أبو الأعلى المودودى



الحكومة الإسلامية



أبو الأعلى المودودى

الحكومة الإسلامية

نقله الى العربية

احمد ادريس

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كلمة لابدمنها ..

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد

لقد عشت دهرا التهم كل ماتصل اليه يداى من مؤلفات حجة الاسلام استاذى الكبير أبى الأعلى المودودى حتى شغفتنى كتاباته حبا وخالطت كلماته وسطوره وآراؤه عقلى وقلبى وروحى فعشقته لله وفى الله دون أن اراه لأن ما يكتبه ليس سوى ما احسه ويتردد بينى وبين نفسى غير انى عاجز عن التعبير وهو أقدر واكفا .. يشكلنى فكره وتشذبنى روحه وفهمه للاسلام الحنيف فلا غرو ان اشعر نحوه بما اشعر . وكم حلمت برؤياه وكم رغبت لقاءه وكم تمنيت مجالسته والعيش فى جواره واسال الله ان يحقق لى ذلك وهو وحده أعلم بما فى النفوس .

وشاء ربى عز وجل ان يطفىء قليلا من لظى عاطفتى فدبر لى العثور على كتاب ((الحكومة الاسلامية)) ، فرحت التهمه وارى الحق فى سطوره او اراها الحق ذاته وكثيرا ما صعب على ذهنى وقلبى التفريق بين كليهما .

ثم ذهبت فى زيارة لأخى الأستاذ حسين عاشور صاحب المختار الاسلامى وجاء ذكر الكتاب فاذا به يكلفنى بنقله الى العربية فسرنى ذلك كثيرا ، واستفرغت له جهدى ووقتى فان حاز قبولا فالتوفيق من الله وحده والا فهو اجتهاد عاشق وللمجتهد ان اخطا اجر .

وانى اذ اقدم الى قراء العربية هذا الكتاب اود ان الفت انظارهم الى ان عديدا من النصوص التى وردت فى الكتاب جاءت مكتوبة باللغة الأردية وقد تحملت عناء جما فى الرجوع الى مصادرها الأصلية كى اكتب نصها بالضبط فما وفقنى الله فيه كتبته وما لم اهتد اليه اشرت الى انه نص مترجم ومرد ذلك كله الاختلاف بين طبعات المصادر التى نقل عنها استاذى المودودى وبين ما اتيح لى البحث فيها .

وانهى كلمتى بدعاء خالص لله ان يتم علينا هديه ورشده وعلى الله قصد السبيل .

القاهرة فى غرة رمضان ١٣٩٦ هـ

٢٥ اغسطس ١٩٧٦ م احمد ادريس

تمهيد

كان التصور العام عن الدين قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أنه فرع من فروع الحياة المتعددة، وبعبارة اخرى كان الناس يعتبرونه «ملحقا» ثانويا لحياة الانسان الدنيوية، ليصبح بمثابة شهادة او « رخصة » فى الحياة الأخرى يحصل بها على النجاة والخلاص يوم الحساب، كما اقتصر مفهومه على العلاقة التى بين العبد وربه. وان كان لزاما على من يرغب فى الفوز بدرجات رفيعة من الخلاص أن ينقطع عن كافة شعاب الحياة، ويكرس حياته ويربطها بهذا الفرع وحده دون سواه، فان من لا رغبة عنده فى نيل مراتب عالية ودرجات رفيعة، بل يريد مجرد « الخلاص » ويبغى أن ينظر المعبود اليه نظرة رعاية ويحل بركته على امور دنياه، فحسبه أن يجعل الدين ذيلا وملحقا لحياته، فيسير فيها وفق هواه وطريقته الخاصة على أن يؤدى بعض الطقوس والشعائر الدينية يرضى بها معبوده ويسعده. فعلاقة الانسان بنفسه وابناء نوعه وكل امر فى دنياه شىء وعلاقته بمعبوده شىء آخر، ولا رابط بين الاثنين ولا صلة.

هكذا كانت الجاهلية تنظر الى الدين، ومن ثم لم يقم على أساسه اى مجتمع انسانى متحضر، ولم يتأسس على قواعده اى تقدم وازدهار، فمعنى المجتمع هو معنى الحياة بأكملها، اما ما هو مجرد « ملحق » لحياة الانسان فمحال أن يكون أساسا يعتمد عليه بناء الحياة بأسرها.

لهذا ظل الدين منفصلا على الدوام عن المجتمع وحياته فى كل مكان فى العالم، وان كان كل منهما قد أثر فى الآخر بالضرورة فى قليل او كثير، فان هذا التأثير كان نتاج اجتماع المتضادات والمتناقضات فى آن واحد ومن ثم كان تأثيرا عديم الفائدة.

فحين أثر الدين فى المجتمع، ادخل فيه الرهبانية والعزلة والانزواء والتعصب وكراهية ملذات الدنيا والانقطاع عن العالم، واقحم فى العلاقات الانسانية القطيعة والتنافر والتعصب، فما كان هذا التأثير سببا فى الرقى ودافعا الى التحضر بأى معنى من المعانى، بل كان عقبة كأداة فى طريق تقدم الانسان الدنيوى.

وحين أثر المجتمع فى الدين - وهو مجتمع يقوم على النزعات المادية واتباع غرائز النفس وشهواتها - افعمه بالقذارات والدناءات، وادخل فيه نجاسات عبادة النفس واستغله اسوأ استغلال حينما راح يضفى على

احط القذارات واعتى الشرور ثياب الدين كيلا يشعر بتأنيب الضمير ، وكيلا يجرؤ احد على معارضته والوقوف فى وجهه . ونتج عن هذا اننا نجد الآن فى عبادات بعض المذاهب طرقا لعبادة الملذات والاباحات التى ترغم من شذوا عن نطاق الدين عموما ، بل واتباع هذه المذاهب انفسهم ، على ان يروا فيها انحطاطا وسوء خلق .

ولو نحينا مسألة العلاقة بين الدين والمجتمع جانبا ، لرأينا حقيقة بينة هى أن بناء اى مجتمع فى اى مكان من العالم انما يقوم على أسس لا دينية لا اخلاقية . فالمتدينون الصادقون هجروا الدنيا ، وعكفوا على التفكير فى خلاصهم ونجاتهم ، واهل الدنيا انكبوا على شئونها وامورها يعالجونها بما تقضى به رغائبهم وتجاربهم الناقصة ــ التى اعتبرت كاملة فى كل عصر مضى ثم ثبت نقصها فى العصور التى تلت ــ واذا ما راوا ضرورة لارضاء المعبود واسعاده ، ادوا بعض المراسم الدينية .

ولما كان الدين بالنسبة لهم مجرد « ملحق » لحياتهم ، فلو بقى بينهم فبصفته « ملحقا » أو « ذيلا » تابعا مسايرا لكل ضرب من الظلم السياسى والاقتصادى ، ولكل نوع من الجور والعسف الاجتماعى ، ولكل نظام معوج ومن ثم فقد ساند الابتزاز والسلب والنهب ، واشترك فى الحرق والاغارة والربا والبغى والتكبر والتعالى ، وواكب الفحش والدعارة والبغاء .

الباب الأول

التصــور الاســلامى

الفصل الأول

تصور الاسلام عن الدين

ان الفرض الذى من اجله بعث محمد عليه الصلاة والسلام ، هــو القضاء على ذلك التصور الجاهلى ــ الذى ذكرناه فى مقدمة هذا الباب ــ وتقديم تصور عقلى وفكرى، واقامة مجتمع متين محكم، وادارته بكل دقة وامانة ونجاح كى يقدمه للناس كلا متكاملا ، وقدانجز عليه الصلاة والسلام مهمته على خير وجه مبينــا للانســانية ان الدين يصــبح كلاما اجوف لا معنى له اذا اقتصر على كونه « ملحقا » لحيــاة الانسان ، ومن الخطأ الفاحش تسمية هذا الشىء ــ اى الملحق ــ دينا ، اذ الدين فى الحقيقة ليس جزءا من الحياة وانما هو الحياة بأسرها ، وهو روحها الناطقة الحية ومحركها الرئيسى وقوتها الدافعة ، وهو الفهم والشعور والوعى والفكر والنظر والادراك وهو معيار التفريق بين الخطأ والصواب ، وهو الذى يرينا الفرق بين الاستقامة والاعوجاج فى كل خطوة نخطوها فى اى ميدان من ميادين الحياة ، كذلك هو الذى يقينا وينجينا من التيه وضــلال الطريق، ويهبنا القدرة والطاقة اللازمة للسير على الطريق الحق والصراط المستقيم ، وهو الذى يأخذ بيد الانسان فى كل حقبــة من حياته ليعبر بنجاح مفازة الحياة اللامتناهية الممتدة من الدنياالى الآخرة .

هذا الدين اسمه الاسلام ، وما جاء ليكون ملحقا وذيلا للحياة ، ولو كان كذلك لكان الهدف من نزوله هوالموت والانتهاء . ان هذا الدين يبحث العلاقة بين الله والانسان ، وبين الانسان والانسان ، وبين الانســان وجميع الكائنات على وجه البسيطة ، والهــدف الأساسى من نزوله هو تعريف الانسان بحقيقة الوحدة القائمة بين كافة أنواع العلاقات، فالعلاقات العديدة فى الدنيا ليست منفصلة مقطعة الأوصال متنافرة الأقســام بل هى أجزاء مجموعة واحدة مترابطة متلاحمة ، ومن تركيبها الصحيح القويم فى وحدة يتحقق نجاح الانسان وفلاحه ، فعلاقة الانسان بالكون لا تستقيم ابدا طالما أن علاقته بخالق الكون لا تسير فى مسارها المضبوط السليم ، لأن هاتين العلاقتين يكمل كل منهما الآخر ويقومــه ، والتقاؤهما وتوافقهما يكون الحياة الناجحة ويشكلها ، وأى دين لا يؤدى هذه الوظيفة لا يسمى دينا ، والاسلام وحده هو الذى يتم هذه المهمة وينجزها على اكمل وجه، ولذا قال تعالى ((**ان الدين عند الله الاسلام**)) آل عمران ١٩ .

الدين والحضارة :

والاسلام أسلوب تفكير ووجهة نظر خاصة بالحياة اجمعها ، كما انه أسلوب عمل متميز يتحدد منهاجه من طريقته فى التفكير ووجهه نظره الخاصة . والبناء الناتج عن طريقة الفكر ومنهاج العمل هو دين الاسلام ، وهو المجتمع الاسلامى ايضا فلاانفصال بين الدين والمجتمع وانما اجتماعهما معا يخلق شيئاواحدا . ان هذا الفكر ومنهاجه هو الوحيد الذى يستطيع حل معضلات الحياة وصراعاتها ومشاكلها كمشكلة حقوق الله على الانسان وحقوق الانسان على نفسه، وحقوق والديه وزوجته واولاده، واهل قرباه ورفاقه وجيرانه ، وأهل دينه وأصحاب الأديان الأخرى ، واعدائه وأصدقائه وسائر النوع البشرى بل والكون كله ، ويخلق بين هذه الحقوق جميعها توازنا تاما رائعا أساسه العدل والانصاف . وكون الانسان مسلما هو الضمان الكافى لادائه كل هذه الحقوق فى عدل وتساو تامدون أن يضحى بأحدها فى سبيل الآخر ظلما واجحافا .

كذلك تضع طريقة تفكير الاسلام ونظرته فى الحياة هدفا اخلاقيا عاليا وقصدا روحيا طاهرا لحياة الانسان ، وتدفع جهوده وطاقاته ومساعيه فى كل ميدان الى طرق تتجه كلها الى مركز واحد وتصب فيه .

هذا المركز هو الفيصل فى كل الأمور . فقيمة كل شيء تقدر بالنظر اليه ، وكل أسلوب او طريق يؤدى اليه ينبغى اختياره ، وكل ما يعوق عن الوصول اليه وبلوغه لا بد من رفضه وتركه ، وهو الحكم الوحيد الذى يقرر فى سائر شعاب الحياة ووقائعها — سواء ما يتصل منها بتفاصيل حياة الفرد ، أو ما يرتبط منها بأعظم امور المجتمع ومجرياته — ما على الفرد من قيود وحدود لا بد من مراعاتها ، فى المأكل والمشرب والملبس ، وفى ميادين الصناعة والمعاملات المالية والتجارية ، باختصار فى كل ما يتصل بالحياة ومناحيها المتعددة من اجل ان يواصل سيرته فى الطريق المستقيم الى هدفه المنشود دون تعرج أو تيه او انحراف .

كذلك هو الذى يضع الأسس التى تقوم عليها علاقات المجتمع وروابطه بين الأفراد ، والتى من شأنها ارتقاء الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها بما يتجه بها الى الهدف الرئيسى والمقصود الأصلى .

وهو المرجع فى كيفية استخدام ما سخر فى يد الانسان من قوى السماوات والأرض كى يجعلها تخدم غايته وهدفه ، وهو الحكم العدل فى القوانين التى يجب اتباعها داخل المجتمع الاسلامى بشأن تنظيم العلاقة التى بين المسلمين وغيرهم سواء فى الصداقة ام العداء فى السلم ام الحرب،

فى الاشتراك فى الغايات والأهداف ام الاختلاف فيها ، فى زمن الانتصار ام وقت الهزيمة ، وكذا فى اكتساب العلوم والثقافة والفنون حتى لا يحيد الانسان عن غايته وقصده فى زمرة العلاقات الخارجية وجوانبها المتشعبة ومناحيها المتباينة ، بل يمكنه ان يستفيد من أفراد الانسانية الجهلاء الضالين فى خدمة هدفه طوعا او كرها بطريق شعورى او لا شعورى ، لأن هدفهم من حيث الفطرة هو نفس هدف المسلمين .

وقصارى القول ان هذه النظرية هى الوحيدة التى تحقق وحدة تامة وانسجاما منقطع النظير بين كافة تفريعات الحياة وشعاب الفكر والعمل ، من المسجد الى ميدان القتال ومن طريقة العبادة الى استعمالات المذياع والطائرة ، ومن ادق تفاصيل الغسل والطهارة والاستنجاء الى اعظم أمور العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدولية ، ومن مكاتب التعليم الأولى الى آخر التجارب العلمية ومنجزات القوانين الطبيعية واكتشافاتها ، ويربط بين أجزاء هذه الوحدة نظام هادف وترتيب ذو مغزى مثله فى ذلك مثل الآلة التى تترابط اجزاؤها بطريقة معينة بحيث تأتى من حركتها واشتغالها نتيجة واحدة .

هذا التصور الذى قدمه الاسلام كان تصورا ثوريا فى عالم الدين ، بيد انه لم تقبله بشكل كامل تلك العقول التى تشكلت وتخمرت فى عفن الجاهلية وبالرغم من اننا اليوم على درجة من التقدم العلمى والعقلى كبيرة اذا ما قورنت بماكان عليه القرن السادس الميلادى ، الا اننا لا نزال نرى حجبا من الرجعية وضيق الفكر وظلمة العقول وانطماسها اصبح معها ارقى المتعلمين فى جامعات أوربا الشهيرة عاجزين عن فهم هذا التصور الثورى تماما كما كان اهل الجاهلية الأميون عاجزين عن فهمه وادراكه . ومنذ آلاف السنين والتصور الخاطىء ينتقل بالتواتر والوراثة من جيل الى جيل، ويحكم قبضته على العقول والألباب ، ولم تفلح افضل أساليب التربية والتعليم القائمة على النقد العقلى والتحقيق العلمى فى حل هذه العقدة .

فاذا كان القابعون فى زوايا المساجد المظلمة قد فهموا التدين على انه الاعتزال فى الخلوات وترديد « الله .. الله » ، واعتقدوا أن الدين مقصور على مجرد العبادات وكفى ، فلا عجب من امرهم فهم ذوو تفكير مظلم وعقول مطموسة .

واذا كان عامة الناس وسوقتهم الجاهلة قد اعتبروه بعضا من المراسم والطقوس التى تؤدى فى المناسبات ، فلا حيرة فى امرهم فهم جهلاء أميون .. لكن ما الذى حدث لمن تربوا فى نور العلم ؟ وما لظلمة التخلف والرجعية تجثم على اذهانهم فلا يفهمون دين الاسلام الا كما

فهمه اهل الجاهلية ، ولا تصور لديهم الا ماكانت عليه الجاهلية القديمة ؟

وليت غالبية الطبقة المثقفة من المسلمين يسلك افرادها طريقا ضالا عرجا نتيجة استقرار هذاالتصور الجاهلى فى اذهانهم وحسب ، بل هم فوق ذلك يمثلون الاسلام وثقافته وحضارته ومجتمعه امام العالم اسوأ تمثيل ، فمشاكل المجتمع الاسلامى الأصلية التى تتوقف على حلها حياته أو مماته لا تخطر ببالهم مطلقا ، اما المشاكل التافهة التى لا قيمة لها تراهم يولونها عظيم اهتمام ، ويعتبرونها مشاكل اصلية عويصة ويشحذون هممهم لحلها حلا غريبا مدهشا .

وها هو تصور الدين تصورا ضيقا يلبس اثوابا مختلفة ويظهر فى أشكال متعددة .

فترى واحدا من هؤلاء السادة الأفاضل يقول « انا هندى اولا مسلم ثانيا » ، وهو لم ينطق بهذا الا لأنه يحسب الاسلام قابلا للتقسيم الجغرافى خاضا له ، فثم اسلام تركى واسلام هندى واسلام ايرانى واسلام مصرى وكل منهم ينشعب الى أقسام واصناف محلية فالمسلم عنده يتخذ اسلوب حياته وتفكيره بما يتناسب وظروف محل اقامته ، ويقبل للحياة هدفا خاصا مستقلا براسه ، وينخرط فى تلك النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعيةالتى صنعتها الأقوام المتعددة من خليط من الأصول والمبادىء المختلفة ، ويبقى بعد ذلك كله مسلما .. لأن الاسلام « ملحق دينى » لحياته يتفق مع اى طريقة ويتطابق مع اى اسلوب ومنهج .

وآخر يرى ضرورة تميز المسلمين عن غيرهم فى أمور الدين والدنيا ، وليس الدين الاما بين الانسانوربه من امور كالعبادات والعقائد ، وفى مقدور المسلمين ان يسيروا فيها وفق طريقتهم الخاصة ولا احد يريد او حتى يستطيع زحزحتهم عنها ، اما بقية المجالات والعلاقات الأخرى الدنيوية فلا ضرورة لاقحامهم الدين فيها ، بل عليهم ان ينظموها بالطرق المعروفة التى تسير عليها شعوب العالم حميعها .

اما الثالث فيرى ضرورة ان يكون للمسلمين نظام خاص فى حقوقهم الانسانية والدينية والاجتماعية ، لكن ليس ثمة ما يدعو لانفصالهم فى الأغراض السياسية والاقتصادية ، لأن التفريق بين المسلم وغيره فى هذه المسائل امر لا وجود له وحقيقة زائفة لا اصل لها، ومن ثم فينبغى على كافة المسلمين ان ينضوا فى اغراضهم السياسية والاقتصادية تحت لواء الجماعات الأخرى التى تكافح من اجل تصفية المشاكل الاقتصادية والسياسية على مبادىء غير دينية .

ويزعم رابع ـ قام ليبعث الروح فى جسد المسلمين الميت ـ ان الشىء الأساسى ليس الايمان بالله واليوم الآخر واتباع الكتاب والسنة .. ابدا ، انما هو تسخير عناصر الطبيعة والوصول الى قوانينها واستخدامها عن طريق القوى المنظمة الضابطة لكى تتحقق النتيجة الهامة وهى العلووالتمكن فى الأرض .

ومثل هذا السيد الفاضل يرمى الى التقدم المادى فى ذاته ، ولذا فقد اهتم اصلا بالوسائل التى تؤدى اليه ، اما العقل الذى يعمل تحت سلطة هذا العلم ويحدد الهدف من وسائل التقدم بما تمليه عليه وجهة نظره وطريقة تفكيره، والذى يوضح منهاج التقدم الثقافى والحضارى والاجتماعى ويعين هدف هذا التمكن فى الأرض وغايته فهو عنده لا اهمية له سواء كان هذا العقل يابانى النزعة او المانى الفلسفة او ايطالى المسلك او فاروقى التفكير او خالدى المزاج ، فكلها عنده عقول مسلمة بدرجة واحدة ونتيجة اعمالها وتشغيلها واحدة هى التمكن فى الأرض . فمن يحصل على « وراثة الأرض » فى رأيه هو وحده « الصالح » (١) ولو كان النمرود بدلا من ابراهيم . ومن غلب وسيطر هو وحده المؤمن ولو كان ملك الروم الوثنى بدلا من عيسى عليه السلام .

ولقد هبت من بيننا جماعة تدافع عن حقوق المسلمين القومية وتحميها فرات ان الحفاظ على الاسلام ونظامه ومجتمعه يكمن فى بعث الاطمئنان فى قلوب المسلمين الى صون دينهم وقوانينه فى الأحوال الشخصية وكذا الاعتراف بلغته لغة رسمية وحسب ..

ومثل هؤلاء الأشخاص لصقوا بشخصياتهم طابع الاسلام ، واحتكروا لأنفسهم حق تمثيل المسلمين والنيابة عنهم ، وراحوا يهتمون بحصولهم على نسبة معقولة فى الانتخابات والمناصب الرسمية ، ولوقضى بحل ما فى مشكلة اسلامية بحتة ، فلن يكون الاذا قبلته اغلبية هؤلاء الممثلين ووافقت عليه وكأن الحقوق الاسلامية فى نظرهم محفوظة مصونة وكأن الاسلام بخير لم يمس .

هكذا ترون كيف تختلف الأشكال والحقيقة واحدة ، وكيف تتعدد الهياكل والجوهر واحد بعينه ، فكلها أشكال للتصور الخاطىء للدين فى نظر الجاهلية وهو تصور يرفع راسه ضد التصور الاسلامى فى كل عصر وكل زمان متخذا الوانا متباينة مختلفة .

---

(١) اشارة الى الآية « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون » ـ المترجم .

ولو فهم هؤلاء الناس من ذا الذى يستحق ان يطلق عليه لفظ «مسلم» حقيقة ، واى جماعة جديرة بتسميتها « جماعة اسلامية » بالمعنى الحقيقى لزالت أخطاء فهمهم . فالمسلم من الناحية القانونية هو من ينطق بالشهادة شفاهة ولا ينكر اساسيات الدين ، وبهذا المعنى يدخل فى دائرة الاسلام كل مسلم لا يزيد فى جوهره عن ذلك ، وليس فى وسعنا ان نسميه كافرا او نمنعه حقوقه التى يحصل عليها فى المجتمع الاسلامى بمجرد اقراره بالاسلام ، غير ان هذا ليس الاسلام عينه بل هو اجازة او تصريح بالدخول فى دائرة الاسـلام . اما جوهر الاسلام فهو ان تطوع ذهنك وفق مبادىء الاسلام ، ويصبح أسلوب تفكيرك هواسلوب القرآن فى التفكير ، وتصير نظرتك الى الحياة وأمورها هى نظرة القرآن لها ، وتزن الأشياء بالمعيار الذى اختاره القرآن وحدده ، وان يكون هدفك الشخصى والجماعى هو الهدف الذى بينه القرآن واقره ، وان تتخلى عن مختلف طرق الحياة وتختار طريقا تحدد اختياره بما تلقاه فى قوانين القرآن والسنة المحمدية . فان قبل عقلك هذا ، وتوحدت مشاعرك ومشاعر القرآن ، فان السبيل الذى تسلكه فى الحياة لن يكون غير ما سماه القرآن سبيل المؤمنين .

العقلية القرآنية :

ان العقل الاسلامى أو القرآنى ـ اذ هما فى الحقيقة شىء واحد ـ يؤمن فى ظل نظرية الاسلام فى الحياة ببعض المعتقدات ، ويؤدى بعض العبادات والشعائر يقال لها بالمصطلح العام الشعائر الدينية ، كذلك يقبل العقل الاسلامى أشياء ويرفض أخرى فى كافة شئونه كالمأكل والملبس والمشرب وطرق الحياة الاجتماعية ووسائلها والمعاملات التجارية والنظم الاقتصادية وقوانين السياسة ومختلف مظاهر المدنية والتحضر وطرق استخدام العلم وتسخيره بالوسائل المادية والقوانين الطبيعية .

وحيث أن النظرية واحدة وطريقة التفكير واحدة والهدف واحد ومعيار القبول والرفض واحـد ، فلا يمكن ان يختلف اسلوب الحياة والعيش أو تتناقض المبادىء التى تسير عليها الأمور الدنيوية . وقد تختلف جزئيات العمل والتنفيذ فى شكلها وظاهرها ، وقد لا تنطبق تفريعات الأحكام ودقائق تفاصيلها مع المبادىء الأصلية تمام الانطباق ، الا أن هذا يعد اختلافا عارضا وليس جوهريا اساسيا بأى حال من الأحوال .

ان الأساس الذى نسجت عليه خطة الحياة فى الاسلام ، والذى ربط بين شعابها وفروعها ودقائقها ربطا محكما ، من المستحيل ان يختلف من مكان لآخر فسواء كنت تركيا أم باكستانيا أم مصريا فطالما انك مسلم ،

فستختار حتما هذه الخطة التى تتناسب وتتلاءم مع روحك وترفض تلك التى تختلف فى مبادئها واسسها وروحها مع مبادئك وروحك .

انكم لا تستطيعون الفصل بين أمور الدين وامور الدنيا ، لأن الدنيا والآخرة فى نظر الاسلام مرحلتان من مراحل الحياة المتصلة التى لا تنقطع، أولاهما مرحلة السعى والعمل وثانيتهما مرحلة النتائج . وما تتبعونه فى الأولى تظهر نتائجه فى الثانية واضحة جلية . وهدف الاسلام تنظيم العقل واعداده اعدادا يمكنه من معالجة المرحلة الأولى بأسلوب سليم يأتى بنتائج موفقة فى المرحلة الثانية، عندئذ تصبح الحياة كلها حياة دينية يرتبط كل شىء فيها بغيره ، من دقائق العقائد والعبادات حتى مبادىء المجتمع والسياسة والاقتصاد وتفريعاتهم ارتباطا معنويا هادفا . فان سلكت فى قضاياك السياسية والاقتصادية مسلكا يتفق وخطة أخرى غير خطة الاسلام المحكمة فان صنيعك هذا يعتبر ارتدادا جزئيا يفضى بك الى ارتداد كلى نهائى . اذ معناه انك قطعت احكام الاسلام وجزأت تعاليمه وفصصتها لتقبل بعضها وترفض الآخر فتراك تقبل المعتقدات والعبادات الدينية وتشيح بوجهك عن ذلك النوع من نظم الحياة الذى يقوم على اساس هذه العقائد والعبادات .

فتفريقك بين مبادىء الاسلام واحكامه فى كل من الدين والدنيا خطأ كبير فى نظر الاسلام ، وما من مسلم يؤمن ايمانا صحيحا يقبل هذا التفريق ويرضاه مصداقا لقوله تعالى :

« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » البقرة ٨٥ .

ثم اذا قمت بهذه التجزئة واعتزمت معها البقاء فى دائرة الاسلام ، فلن تبقى طويلا فى اطار هذه الدائرة لأن العبادات والعقائد الدينية لا معنى لها اذا انفصلت عن نظام الحياة وطريقة العيش سوى الموت والتعفن . فلعمرى كيف تؤمنون بمبادىء الحياة غير الاسلامية ثم يظل ايمانكم بالقرآن قائما سليما غير منقوص وهو نفسه الذى يثبت كذب هذه المبادىء وزيفها خطوة بخطوة . ؟

أما اذا نسقتم اموركم وقضاياكم السياسية والاقتصادية ونظمتموها وفق ما تقره خطة الاسلام ، فلن تضطروا الى الانقسام فى أحزاب متفرقة فحزب واحد فقط ــ هو حزب الله ــ كاف لانجاز هذه المهام والاضطلاع بكل هذه الأمور لأنه لن يضم بين أجنحته صراع المصالح بين العامل وصاحب العمل ، أو بين المزارع الأجير وبين مالك الأرض أو بين الرعية والراعى انما تكتنف الجميع القوانين والمبادىء الخلاقة التى تحقق الانسجام والتوافق فى العمل وتقسيمه والاشتراك فيه على قدم المساواة

فلم لا تحاولون خلق هذا التوافق والاندماج بين مختلف طبقات شعوبكم طبقا لهذه القوانين ؟ واذا كان من لا يملكون مثل هذه القوانين مضطرين للسقوط فى نيران الصراع الطبقى الضارمة ، فلم تتبعونهم وتسيرون خلفهم ؟ .

ولو أنكم ترغبون فى التقدم المادى والعلو والتمكن فى الأرض فالاسلام خير معين لكم فى هذا المجال ، فقط يريد الاسلام ان تفرقوا بين علو وتمكن فرعون ونمرود ، وبين علو وتمكن ابراهيم وموسى . فالأول هو ما حققته اليابان وبريطانيا وغيرها ، بينما الثانى هو ماحققه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والمسلمون فى القرون الأولى من الاسلام . ان التمكن نوعان وكذا تسخير العناصر الطبيعية واخضاعها والوصول الى علم القوانين الطبيعية ونتائج الاستفادة منها واستغلالها ، لكن الفرق بين وجهة نظر كلا النوعين واهدافهما هو الفرق ما بين السماء الأرض فقد ترونهم متماثلين فى النتائج الظاهرية السطحية ، الا انكم لاترون او تدركون ما بينهما من بعد أخلاقى وروحى وهو بعد المشرقين . ان تقدم أهل الدنيا وتمكنهم ينتج عن تسخير العناصر الطبيعية وقوانينها تسخيرا يجعل هدف الحياة هدفا حيوانيا ، اما العلو والتمكن الذى يعد به القرآن اتباعه وأهله فهو وان كان ينتج كذلك عن تسخير العناصر واستغلال قوانين الطبيعة ، الاأن هدف الحياة فى ظله هدف أخلاقى وروحى راق بالضرورة وهيهات تحقيقه دون سيطرة الايمان بالله واليوم الآخر على الحياة كلها ، ودون دخول كافة الجهود المبذولة فى الحياة داخل ذلك الاطار المتين الذى فرضت الصلاة والزكاة والصوم والحج عليكم لاحكامه وتثبيته وشد أركانه وزواياه .

لماذا دولة اسلامية ؟

اوضحنا فيما سلف أن المسلمين لو أرادوا أن يعيشوا مسلمين حقيقة فلا بد لهم من أن يطيعوا الله فى دقائق حياتهم وعظائمها ، وأن يحكموا شريعته وقانونه فى حيواتهم الشخصية والجماعية . اذ الاسلام لا يقبل أبدا أن يعلن الانسان أيمانه بأن الله رب العالمين ، ثم يصرف أمور حياته وشئونها وفق قانون غير الهى فلعمرى ان هذا لتناقض يصعب تصوره ولا يقبله الاسلام الذى جاء لاجتثاث مثل هذا التناقض والاطاحة به .

ان المطالبة بالحكومة الاسلامية والدستور الاسلامى تنبع من الشعور الأكيد بأن المسلم اذا لم يتبع قانون الله ، فان ادعاءه الاسلام ادعاء باطل لا معنى له ، وها هى ادلة القرآن على هذه الحقيقة :

١ ـ يقرأ القرآن بأن الله تعالى هو مالك الملك ، ومن ثم فهو صاحب

الحق فى الحكم بداهة ، كما يقر بأن تنفيذ أوامر احد غيره أو حكم احد سواه فى ارضه وعلى خلقه انما هو باطل وكفران مبين . والصواب ان يحكم الحاكم بقانون الله ويفصل فى الأمور بشريعة الخالق بوصفه خليفة لله ونائبا عنه فى ارضه .

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء »

آل عمران ٢٦

« ولم يكن له شريك فى الملك » الاسراء ١١١

« فالحكم لله العلى الكبير » غافر ١٢

« ولا يشرك فى حكمه احدا » الكهف ٢٦

« الا له الخلق والأمر » الأعراف ٥٤

« يقولون هل لنا من الأمر من شيىء قل ان الأمر كله لله »

آل عمران ١٥٤

٢ ــ وبناء على هذا سلب الانسان حق التقنين لأنه مخلوق ورعية وعبد ومحكوم ، ومهمته تتركز فى اتباع القانون الذى سنه مالك الملك . وقد اباح الاسلام بالطبع مزاولة الانسان الاستنباط والاجتهاد وتفريعاتهما الفقهية ، لكنه شرط ذلك بألا يخرج عن أطار حدود الله . كذلك أعطى المؤمنين حق التقنين فيما لم يرد فيه حكم صريح من الله ورسوله على أن تراعى فى التقنين روح الشريعة ومزاج الاسلام ، لأن سكوت الشارع عن اصدار حكمه فى بعض المسائل يعنى أن للمؤمنين الحق القانونى فى سن احكامها وضوابطها . لكن الأمر الاساسى الذى لا غمة فيه ولا خفاء أن من يترك قانون الله ويؤمن بقانون آخر وضعه بنفسه أوشرعه له غيره من البشر انما هو طاغوت باغ خارج عن طاعة الحق ، وأن من يبغ الحكم بهذا القانون الوضعى ويعمل على تنفيذه فهو باغ عات عن أمر ربه ايضا .

« ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام »

النحل ١١٦

« اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء »

الاعراف ٣

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

المائدة ٤٤

« الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به »

النساء ٦٠

٣ ـ ان الحكومة الصحيحة العادلة فى ارض الله هى التى تتأسس وتحكم بالقانون الذى بعثه الله على ايدى انبيائه ، واسمها الخلافة :

« وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله »

النساء ٦٤

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بماأراك الله »

النساء ١٠٥

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل اليك »

المائدة ٤٩

« افحكم الجاهلية يبغون »

المائدة ٥٠

« يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »
ص ٢٦

٤ ـ أن كل ما يصدر من أعمال من قبل أية حكومة تقوم على أساس شرعة أخرى غير شرعة الله وقانونه الذى جاء به الانبياء من لدن رب الكون والهه باطل لا قيمة له ولا وزن ، مهما اختلفت هذه الحكومات فيما بينها من تفاصيل فى الشكل والنوع ، ولا شرعية لحكمها وتنفيذه ، فاذا كان مالك الملك الحقيقى لم يخولها السلطان(١) فأنى لها أنتكون حكومات شرعية ؟

ان القرآن ليرى كافة ما تقوم به هذه الحكومات محض عدم لا وزن له ولا قيمة وقد يقبل المؤمنون ـ وأعنى بهم رعايا الله الأوفياء ـ وجود هذه الحكومات باعتبارها أمرا واقعا خارجا عن ارادتهم وقدرتهم ، لكنهم لا يعترفون بها وسيلة حكم شرعية وسلطة تفصل فى أمورهم وقضاياهم ، اذ لا تحق لهم طاعة الخارجين على حاكمهم الأصلى (الله) أو قبوله حكما فى مجريات حياتهم ، ومن يفعل ذلك فقد خرج من زمرة المؤمنين الأوفياء مهما ادعى الاسلام والايمان .

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » .

الكهف ١٠٣ ـ ١٠٥

---

(١) نعنى بالسلطان السلطة التى تسلم بأن الله مالك الملك وتعترف بنفسها خليفة لله وتؤمن بالرسول رسولا من عند الله وبالقرآن كتابا منزلا من الله وتعمل بمقتضى الشريعة الالهية .

« تلك عاد جحدوا أمر ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد »

هود ٥٩

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد »

هود ٩٦ ــ ٩٧

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا »

الكهف ٢٨

« قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا »

الأعراف ٣٣

« ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه »

يوسف ٤٠

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤ منين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا »

النساء ١١٥

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم »

النساء ٦٥

« ولن يجعل الله للكافرين على المؤ منين سبيلا »

النساء ١٤١

هذه محكمات الكتاب وما فيها خطأ أو شك أو اشتباه ، وهذه هى العقيدة المحورية التى يدور عليها أسلوب الاسلام فى التفكير ومنهاجه الاخلاقى ونظامه الاجتماعى . ولا يمكن أن يصل المسلمون الى الايمان الكامل دون أن يقيموا على اساسها حكومة اسلامية ومجتمعا اسلاميا . وهيهات أن يكونوا مسلمين دون ان ينفذوا قانون الله وشرعته ، ومن ثم يقتضى دينهم وايمانهم اقامة نظام خلافة الهية وتطبيق قانون الله فى كل أمور حياتهم وعلاقاتهم لأن اقامة حاكمية الله هى الهدف الذى بعثت من اجله الأنبياء عليهم السلام وقد طلب من الرسول عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة أن يدعو :

« وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا »

الاسراء ٨٠

يعنى أن تعطينى السلطة أو تسخر لى حكومة تؤازرنى وتعاضدنى كى أستطيع بها تقويم اعوجاج الدنيا واصلاح انحرافها ، وأوقف تدفق سيول الفواحش والمعاصى ، وانفذ قانونك العدل . وهذا تفسير الحسن البصرى وقتادة لهذه الآية ، وقد استحسنه واكده اثنان من أجلة المؤرخين هما ابن جرير وابن كثير ، وأيــداه بالأثر القائل« **ان الله ليزع بالسـلطان ما لا يزع** بالقرآن » أى أن الله ليكف بسلطة الحكم ما يكفه بالقرآن .

ونستفيد من هــذا أن سبيل من أراد اصلاح العالم الاسـلامى ليس الوعظ والارشاد وحده ، بل تلزمه قوة سياسية لتحقيق الفكر واخراجه الى حيز التنفيــذ . واذا كان الله تعــالى قد لقن نبيــه وعلمه هــذا الدعاء بنفسه ، فان ما يثبت منه أن طلب الحكومة والسلطة لاقامة الدين وتنفيذ الشريعة وتطبيق حدود الله ، وكذا الجهاد فى سبيل تكوين هذه الحكومة وايجادها ليس أمر مشروعا فحسب وانما هو مطلوب ومندوب . ومن ير فى ذلك حبا للدنيا وطلبا لها فهــو مخطىء . فاذا كان طلب الحكومة لأغراض شخصية حبا للدنيا وعبادة لها ، فان طلبها لاقامة دين الله هو عين حب الله وعبادته .

الفصل الثانى

الاسلام والسلطة

اتضحت على السطور الآنفة ضرورة وجود الدولة الاسلامية . ولما كانت هذه الفلسفة الشيطانية التى تنادى بالتفريق بين الدين والسياسة من نواح عديدة قد عملت عملها فى التأثير على أذهان المسلمين ، حتى انكم ترونهم الآن يتلمسون مختلف التفاسير ويخترعون شتى التأويل كى يفسحوا لهذا التفريق مكانا فيما بينهم ، لذا سنرى على الصفحات التالية اى ضرب من الثورة يبغى الاسلام تفجيره واحداثه ، وما حقيقة التأويلات السقيمة العفنة التى تستولى على جماع العقول فى هذه المسألة .

وكنت كتبت فى تفهيم القرآن (١) فى تفسير آية **« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين »** البقرة ١٩٣ ، أن ليس المقصود من توبة الكافرين رجوعهم عن كفرهم وشركهم ، بل اقلاعهم وأوبتهم عن الفتنة . فالكافر أو المشرك أو الملحد له الحق فى اختيار مايؤمن به من العقائد ، وما يعبده من الآلهة ، وان شئنا انتزاعه واستنقاذه مما هو سادر فيه من ضلال وغواية فعلينا ان نسدى له النصح والتفهيم لا أن نقاتله ونحاربه ، ولكن لا حق له ابدا فى ان يعرض عن القانون الالهى وينفذ قوانين باطله فى أرض الله .

وقد اعترض عالم جليل من قراء مجلة ترجمان القرآن (٢) على ماتحته خط ، وكتب الى اعتراضه الذى أوجزه لكم فى نقاط كما يلى :

(أ) معنى هذا أن الاسلام الذى يضمن أمن الانسان وسلامته ويحميهما يتدخل فى أديان الآخرين ومذاهبهم ، وعلى هذا الأساس يؤجج نيران الحرب والقتال مما يتنافى وقوله تعالى **« لا اكراه فى الدين »** البقرة ٢٥٦ .

(ب) يتضح من الآية **« لكم دينكم ولى دين »** الكافرون ٦ ، أن للمخالفين حرية البقاء على مذاهبهم ومعتقداتهم ، ومن ثم فلا بد من حصولهم

---

(١) تفسير القرآن الذى كتبه أستاذنا المودودى وقد ترجم الى لغات عدة ونسأل الله تعالى أن نراه مترجما الى لغتنا العربية قريبا ـ المترجم .

(٢) هى المجلة الناطقة بلسان الجماعة الاسلامية فى باكستان وصاحبها استاذنا المودودى ـ المترجم .

ايضا على حرية الحركة فى سبيل نشرها والدعوة اليها ؛ فهم ايضا يعتبرون مذاهبهم على حق وصواب . وهذه الحرية تبين لنا من خلال مفاهيم القرآن العديدة فى هذا الصدد كما أن القرآن يثبت كذلك وجود الجدل والمناظرات كماق الآية ((**ولاتجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن**)) العنكبوت ٤٦ ـ وقد حفظت معابد غـير المسلمين وطرق عبادتهم ورسومها من المساس بها والتدخل فيها ؛ حتى انه أبيح لأهل الكتاب التعبـد فى المسجد النبوى على طريقتهم . كذلك اختار سيدنا يوسف عليه السلام العمل عند عزيز مصر الذى كان مشركا فى عمله وعقيدته ؛ ومع ذلك كان سيدنا يوسف يدعو الى عقيدته آمنا سـالما وهذا واضح من الآية ((**يا صـاحبى السجن اأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**)) يوسف ٣٩ مما نفهم منه ضرورة حصول الآخرين ايضا على حقهم فى نشر . افكارهم والدعوة اليها .

(ج) بالنظر الى العبارة التى تعلو الخط يتضح ان المسلمين لايستطيعون الحياة آمنين داخل اية مدينة تضم سكانا من اديان وعقائد مختلفة فكيف يمكنهم اذن العمل فى تعاون وتسامح مع غيرهم فى بقية أمور المجتمع اذا كانت العقيدة السياسية والأساسية وحدها هى العائق المانع ؟

واذا كان هؤلاء المسلمون من رعايا تركيا أو ايران مثلا ؛ فانهم ـ طبقا لرايك سيرفعون راية الجهاد لأن القانون الاسلامى لا يطبق فى هذه البلاد. وعلى هذا لن تستطيع اية جماعة مسلمة ان تتعامل أو تتعاون مع غـير المسلمين بطرق غـير معروفة ؛ لأن ما ذكرتموه من استدلال يعوقهم من الاشتراك أو التعاون فى العمل بأى شكل من الأشكال .

واذا كان لأية جماعة مسلمة حقها فى نشر عقائدها فان غير المسلمين لهم هذا الحق ايضا خاصـة اذا كانوا هم الحاكمين المسيطرين؛ فما لاتحبه لنفسك لا تحبه لغيرك .

ولقد عقد الرسول عليه الصلاة والسلام معاهدة عمل وتعاون مشترك مع اهل الكتاب فى المدينة المنورة ؛ فهل كانت تلك المعاهدة مبنية فقط على مثل هـــذه الشروط ؟ كما ان المراحل الأولى من العهـد المكى لا تؤيد استدلالك . وبعبارة اخرى ان مجرد وجود مثل هذه الجماعة يعتبر تحديا سـافرا للحكومة غير الاسلامية التى تحكم المجتمع الذى يضم هذه الجماعة؛ اذ لو اشتد ساعدها لشهرت سيوفها للاطاحة بنظام الحكم وقوانينه ... فمن ذا ـ يتحملها أو يطيقها اذن .. ؟! . هـ

والجواب على هذه الاعتراضات يمكن ان يدون فى بضع جمل ، غير ان الحقيقة هى ان وراء هذه الاعتراضات مخزنا كبيرا ومستودعا ضخما مكتظا بالأخطاء التى تتفشى فى أوصال الأمة بشكل مفزع ، مما جعل المسلمين عاجزين حتى عن فهم معانى دينهم ومفاهيمه الأساسية . لذا فسوف اتناول الاجابة عليها بقدر من التفصيل .

مهمة الاسلام :

وسأبحث الآن معنى ضمان الاسلام امن الانسان وسلامته ، ومعنى « **لا اكراه فى الدين** » و « **لكم دينكم ولى دين** » ، وكذلك ما اذا كان سيدنا يوسف قد جاء بدعوة ورسالة أم اتى للبحث عن عمل يصيب منه رزقا وعيشا .

وقبل ان اخوض فى هذا كله ينبغى اجابة سؤال هام : ما هى مهمة الاسلام الحقيقية فى هذه الدنيا ؟ هل جاء الاسلام ليفرض على الناس ان يطيعوا الجبابرة طاعة الأنعام حتى اذا ما قام احد الطغاة يؤله نفسه وجد اتباع الاسلام خدامه الطائعين وأنصاره الأوفياء ؟ وهل يستفيد الاسلام من تجميع الرعية وحشدها لخدمة حكومات الدنيا وممالكها حتى أن اية حكومة يمكنها أن تحصل من مصنع الاسلام على كل ما يلزمها من مختلف الآلات والعدد والوسائل التى تستفيد منها فى تنفيذ دعوتها ؟ هل مهمته تفهيم الناس حفنة عقائد وتعليمهم قليلا من المبادىء الأخلاقية ، كى يخلق فيهم رقة وليونة ليسهل عليهم التأقلم فى اى نظام اجتماعى يعيشون فى كنفه ؟ اذا كانت هذه مهمته فلا فرق اذن بينه وبين الديانة البوذية أو السينتبال (١) أو المسيحية ، ووقتها يصعب علينا أن نفهم السبب الذى من أجله جاءت كلمة مخيفة مرعبة مثل « قاتلوهم » فى كتاب هذا الدين. كذلك كان المفروض عليه ــ بدلا من ان يأمر اتباعه بالجهاد ــ أن يأمرهم ليقولوا :

« اننا فقراء مساكين فلم تقتلوننا ؟ اننا لا نريد قلب نظام الحكم ولا ندعو لاصلاح النظام الاجتماعى ، ولتكن السلطة فى يد أى انسان فان ما نبغيه هو البقاء فى ظلها آمنين . ان ديننا هو طاعة حكومة العصر والوفاء لها ، أما عقيدتنا الدينية وطريقة عبادتنا فلن تضر بكم كما انها لن تضر بأى نظام اجتماعى أو مصلحة من مصالحكم » .

أما اذا كانت الحقيقة أن الاسلام يضع بنفسه نظام الحياة الذى يحوى الى جانب العقائد والأخلاق والعبادات ــ كافة القوانين والأحكام التى تنظم

---

(١) احدى ديانات الهند . ــ المترجم .

السلوك الفردى والجماعى وما يتعلق بهما من امور وقضايا ، واذا كانت دعوة الاسلام هى دعوة من اجل تطبيق نظامه ، واذا كانت حجته فى ذلك ان نظامه وحده هو الحق وفيه وحده فلاح الانسان وان كل نظام سواه باطل فلا مفر على الاطلاق من ان يقتضى الاسلام تعميم نظامه وتغليبه فى الأرض وتقويض النظم الأخرى والاطاحة بها.

ان تقديم نظام صادق للحياة . قائم على الحق والعدل مع اغفال الدعوة الى الطريق العملى لاقامته لهو امر عقيم عديم النفع ، واكثر منه عقما الاعتراف ببطلان النظم الأخرى مع الخضوع لغلبتها وسيطرتها والاصطبار عليها وتحملها. والأكثر منهما عقما بل والمحال بداهة هو تطبيق نظام للحياة فى ظل نظام آخر وتحت سيطرته .

ان مختل العقل فاقد اللب والصواب وحده هو الذى يطالب فى آن واحد باتباع وتطبيق نظامه المقترح ، والعيش فى حياة آمنة تحت ظل نظم اخرى مغايرة .

فدعوة الاسلام لاقامة نظامه الخاص تتطلب بداهة زلزلة النظم الأخرى وهدمها واقامة نظامه فى مكانها، ومن ثم فقد أمر الاسلام اتباعه باتخاذ كافة أشكال التحرك التى تؤدى الى تحقيق هذا الهدف . وقد جعل الفيصل القاطع والعلامة الفارقة بين ايمان اتباعه وعدم ايمانهم سؤالا واحدا وجهه اليهم : هل تبذلون أرواحكم وأموالكم رخيصة فى سبيل اقامة هذا النظام أم تقنعون بالحياة – أياكان نوعها – فى ظل النظم الباطلة ؟ . ولو تدبرتم القرآن والحديث – بشرط الا تضم قلوبكم ادنى تحيز أو ميل – لاتضح لكم أن – هذا هو موقف الاسلام الأصلى وليس ما تذكرونه وتدعونه .

فان كانت هذه هى الحقيقة ، وان كنا عرفنا جوهر الاسلام وحقيقته وآمنا به ، فان مجرد وجودنا لا بد وأن يكون تحديا صريحا لأية حكومة غير اسلامية ، سواء تحملت وجودنا هذا أم لم تتحمله وسواء امكن التعامل والتعاون مع غير المسلمين أم لا . فطالما صدقنا فى ايماننا فسنعلن أن مهمتنا هى الجهاد لتنفيذ شريعة الله فى كل بقعة لا تطبق فيها .

ان سلامنا ليس مشروطا بأن يتحمل من يعصون الله جهادنا فى سبيله كما أن تعاوننا وتعاملنا مع غير المسلمين ليس بالشىء الذى نضحى لأجله بالجهاد فى سبيل اقامة نظام الحياة الذى آمنا به لمجرد أن هذا التعاون يتعسر تحقيقه فى مثل هذه الحال .

ان الاسلام يضمن ولا ريب امن الانسان وطمأنينته ويحميهما ، لكن

الامن الحقيقى فى نظره هو الناتج من اقامة حدود الله وشرعته . ومن يفهم الامن والاطمئنان على انه حياة الجميع تحت خيمـة النظم الشيطانية فى سلام دون ان تراق قطرة من دماء المسلمين فهو اذن لم يفهم وجهة نظـر الاسلام البته ولم يدرك نظريته ومهمته .

وليكن معلوما ان الاسلام لا يحمى مثل هذا الأمن اطلاقا ، لأن الامان المطلوب ليس ما يقيمه الآخرون ونظمهم بل ما يقيمه هو ويرى فيه وحده سلامة الانسان وسعادته .

اما ((**لا اكراه فى الدين**)) فمعناها ان الاسلام لا يكره احدا على قبول عقائده كرها ، كما انه لا يفرض عليه عباداته جبرا ، لأن العبادات لا معنى لها دون ايمان متين بها ، فالاسلام يعطى كل انســان الحرية فى هذين الأمرين . لكن الأمر الذى يرفضه بشدة ان تكون قوانين المجتمع التى يقوم عليها نظام الدولة مستمدة من مصدر آخر سوى شريعة الله ، أو من صنع احد غير الله ومع هذا تنفـذ فى ارض الله ويخضع لسلطانها المسـلمون ويتبعونها .

وان كان لا محالة من تدخل اى الفريقين فى دين الآخر ، فان المسلمين ان لم يتدخلوا فى دين الكفار فان الكافرين سوف يتدخلون حتما فى دينهم وتكون النتيجة ان مذهب الكفر سوف ينشر مظلته على قطاع كبير من حياة المسلمين . ولهذا يطالب الاسلام اتباعه ان يتقدموا ويستولوا على مقاليد نظام الحياة – بدلا من ان يحدث ذلك من جانب الكافرين ثم يشرعوا بعد ذلك فى معاملة غير المسلمين فى ميدان العقائد والعبادات بما تقتضيه الآية ((لا اكراه فى الدين)) .

الخطأ فى تصور التسامح :

ولننظر الآن ما اتخذه صاحب الاعتراض من ادلة ، وما تخيره سندا وبرهانا على ما ساقه .

واول دليل : لماكان المراد بالفتنة فى رايكم غلبة الكفر وسطوة الكفار ، ولما كنتم ذكرتم ان هدف الجهاد والقتال – وفق تفسيركم – هو القضاء على هذه الفتنة وبترها واقامة دين الله فى مكانها ، فلا بد اذن من التسليم بأن الاسلام يجمع بين متناقضين متضادين فيقول من ناحية ((**لا اكراه فى الدين**)) ، ثم ينكر على غير المسلمين من ناحية اخرى حق تكوين نظـام حكومى وفق نظريتهم ومنهجهم ، ويعطل قوانينهم ويجمدها ليفرض عليهم بالقوة دين الله كذلك فهو يقول ((**لكم دينكم ولى دين**)) ، ويمنح من لايتبعونه حرية البقاء على دينهم وعقيدتهم وافكارهم ، ثم اذا به يشن عليهم حربا

كى ينظموا كافة امور الدنيا على اساس عقيدته ومبادئه . وبما ان الاسلام لا يحوى تناقضا فتفسيركم اذن ليس بالتفسير الصواب .

والدليل الثانى : اذا كان وجود حكومة غير اسلامية يعد فى نظر الاسلام فتنة على المسلمين استئصالها وسحقها ، فكيف امكن ليوسف عليه السلام ان يطلب منصب الوزارة فى حكومة مصر غير الاسلامية ، بل وظل يدير شئونها واختصاصاتها آنذاك وفق قوانين فرعون كما هو واضح من الآية « **ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك** » يوسف ٧٦ .

اما الدليل الثالث : لو سلمنا بصحة تفسيرك ، فسنضطر للتسليم بأن الاسلام يشعل فى العالم حربا لا يخمد لهاأوار ابدا ، ويفرض على المسلمين خوض حرب عوان ممايتسبب عنه عدم استقرار المسلمين فى اى مكان ، وفقدانهم الاحساس بالأمن والراحة والطمأنينة ، كذلك يتحتم علينا وفق تفسيرك أن نرفع لواء الجهاد لافى وجه الحكومات غير الاسلامية وحدها بل فى وجه حكومات البلدان المسلمة التىلاتطبق القانون الاسلامى. فان كان هذا هو ما يفرضه علينا ديننا فكيف يقدر غير المسلمين على أن يجاورونها مطمئنين ويتعاملوا معنا آمنين ؟ وكيف تتحمل الحكومات غير المسلمة وجودنا وتصبر علينا ؟ .

واول هذه الأدلة مبنى على فهم خاطىء ، فايمان الشخص بعقيدة ما واتباعها فى حياته الخاصة بطريقته الخاصة شىء ، واقامته نظام المجتمع وفق نظرياته وفرض هذا النظام بالقوة (١) على سكان دولة ما شىء مغاير تماما . وقد حسبهما صاحب الاعتراض شيئا واحدا واغفل ما بينهما من فرق ، ثم طبق عليهما معا آيات « **لا اكراه فى الدين** » و « **لكم دينكم ولى دين** » وغيرها بالرغم من أن هذه الآيات تتعلق بالأمر الأول فقط . وليس من شك فى اننا لن نكره أى انسان غير مسلم على ترك عقيدته وقبول عقيدة الاسلام أو نجبره على التخلى عن عبادته المذهبية واختيار صلاتنا وصيامنا ، لكننا لا نسلم اطلاقا بحق احد فى أن يفرض علينا بقوة الحكم والسلطة نظرياته فى الأخلاق والتعليم والمجتمع والاقتصاد والسياسة وغير ذلك مما يتعلق بالحياة كلها .

ان ترك الآخرين يعيشون وفق منهجهم ومذهبهم لهو تسامح بلا شك، ولكن ليس من التسامح بالمرة أن نخضع ونتحمل منهج الآخرين المفروض علينا بالاكراه والذى يخالف منهجنا وطريقة حياتنا ونظامنا . فالمعروف

---

(١) ليكن واضحا أن الحكومة فى أصلها ترادف الجبر والاكراه . وجميع النظريات التى تتأسس عليها قوانين الحكومة ومبادئها تنفذ بقوة هذه الحكومة على من يعيشون داخل حدود نفوذها .

بداهة ان حكومة البلاد سوف تطبخ القوانين وتصنعها بما يساير فلسفتها التى تؤمن بها ، وكذا الحال فى مجال السياسة والاقتصاد وغيرها ، ولن نستطيع ان نسير وفق نظام حياتنا واصول ديننا ونظريتنا فى ظل هذه الحكومة سواء رضينا ام لم نرض فسندع مخالفينا ينفذون نظرياتهم فى حياتنا جميعها بقوة غلبتهم السياسية وبسبب استيلائهم على أعنة الحكم. وفى هذه الحالة يعنى استعمال التسامح انهم لو اعتبروا الزنا حلالا واباحوه للناس جميعا فسيسرى فينا ونسكت عنه ونتغاضى باعتبارنا رعايا ضعافا فى دولتهم ، واذا اباحوا الربا وتعاملت به حكومتهم فان اتقى اتقيائنا لن يستطيع الافلات من التدنس به بسبب استحكام قبضتهم على البلاد ولن نقدر اذن على شراء كسرة خبز أو عود ثقاب طالما لن نخرج من جيوبنا جزءا من ثمنه خاليا من الربا المتمثل فى صورة ضرائب أو فوائد . وان كانوا يؤمنون بالدهرية والالحاد فسيضعون نظام التعليم بأكمله طبقا لنظرياته وافكاره واخلاقياته ، وتوصد كافة أبواب التقدم والازدهار امام رعايا الدولة ما خلا باب هذا الجحيم المستعر ، ولن يفلح كبار ائمتنا واكثرهم ورعا وتقوى فى حماية ابنائهم وذرياتهم من تأثير الالحاد واخلاقياته . واذا اطاحوا بقانون الله واقاموا نظام الدولة على قوانين اخرى عملتها ايديهم فان جزءا كبيرا من حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية سوف يخرج عن ذلك القانون الذى نؤمن به ويخضع لما لانؤمن به . فحدثونا ـ أفادكم الله ـ اى نوع من التسامح هذا ؟ واى عقل هذا الذى يرى ان المعنى الصحيح لقول الله **« لا اكراه فى الدين »** هو ان نتحمل نحن اكراه الآخرين لنا ؟

ضرورة الدولة :

ان وجود قوة قاهرة تسمى « الحكومة » أو « الدولة » تأخذ على عاتقها اقامة نظم المجتمع وبنائه امر ضرورى حتمى لم ينكره حتى اليوم سوى من يعتنقون المذاهب والفلسفات الفوضوية أو المؤمنين بالتصوف الاشتراكى الذين يقولون بوجود مرحلة ما ان نصل اليها حتى يصبح الانسان ولا حاجة به الى « حكومة » تدير مجتمعه وتنظمه (١) . بيد ان هذه الافكار لا مكان لها الا فى عالم الخيال ولم تثبت التجارب التاريخية والمشاهدات الواقعية صحتها وصدقها الى اليوم .

ان تجربة الحياة العملية وعلم الفطرة الانسانية يؤكدان ان قيام النظام الاجتماعى يحتاج الى قوة مسيطرة قاهرة وان هذه القوة ـ التى تقيم

---

(١) يشير الاستاذ المودودى الى آخر مرحلة من مراحل الاشتراكية والتى يقول المفكرون الاشتراكيون خاصة انجلز ولينين بانعدام نظام الحكومة او الدولة الجبرى فيها وبقيام مجتمع غير طبقى يقوم على التعاون الاجتماعى ويخلو من وجود حكومة .

النظام الاجتماعى بسطوتها وغلبتها — لا بد من مناداتها بنظرية فكرية ، ورسمها خطا اجتماعيا . ايا كان شكله ومساره . وفى ضــوء النظرية والخط او المنهج بتعبير ادق تضع هــذه القوة لنفسها لائحة عمل او دستورا تنفذه فى حياة المجتمع عن طريق سلطانها ونفوذها . وثمة دخل كبير لنوعية هذه القوة ومبادىء دستورها فى قيام النظام الاجتماعى او فشله ، كما ان حياة المجتمع بل وحياة الفرد ذاته تتشكل طوعا او كرها وفق القالب الذى تصنعه بسطوتها ونفوذها .

فالذين يعيشون فى دائرة دولة ما لا مناص من تخليهم عن ٩٠ ٪ من نظريتهم ومنهجهم واضطرارهم للسير وفق نظرية الحكومة ومنهجها حتى وان لم يؤمنوا بنظريتها الأساسية ودستورها وقوانينها او يرضوا عنهـا بوسيلة او بأخرى ، ثم ما تلبث قبضة عقيدتهم ونظريتهم أن تتراخى يوما بعد يوم عن الـ ١٠ ٪ الباقية .

هكذا وبعد أن أشرنا الى ماهية الحكومة ، وفهمنا ان حياة المجتمـع أيا كانت لا بد لها من حكومة تضبطها ، لم يعد عسيرا على اى من ذوى الفكر والبصيرة أن يدرك أن الجماعة التى ترفض الايمان بالدين بمعانيه الجاهلية المعاصرة وتؤمن به نظاما شاملا للحياة ، ان كانت صادقة فى ايمانها ولا تبغى الحياة بأسلوب يخالف عقيدتها وايمانها ، فعليها أن تتقدم بنفسها وتحاول الاستيلاء بما لديها من قوى على هذه القوة القاهرة التى تقيم نظام المجتمع والا فسوف تستولى جماعــة اخرى عليها ، ويضطر المؤمنون للسير وفق دينها ونظامها فيما لا يقل عن ٩٠ ٪ من حيـاتهم وجوانبها . كما أن ايماننا لا محالة قائم بهـذا الاكراه فان لم نفعله نحن فسيمارسه الكفار علينا لذا فمن الأفضل أن نكرههم نحن ونسوقهم الى ما لو قبلوه لشقوا طريقهم الى الجنــة فى سهولة ويسر ، بدلا من أن يكرهونا هم ويقودونا الى حيث جحيم الخلد ونيران الأبد .

كان ذلك هو الوجه الأول لهذه المسألة ، اما جانبهاالآخر الذى يلزم ايضاحه فهو أن الله وحده مالك هذه الأرض . وحق سكناها واستغلالها والافادة منها والتصرف فى ملكيتها لا يمنح الا لمن أطاع امر مالكها واتبع قانونه الشرعى ، اما من أعرض عنه واتخذه هزوا ولم يمتثل له فهو ظالم غاصب باغ . ولا تحسبوا أن معصيته هذه عصيانا لله فحسب ، وانما هى فوق ذلك سبب فى فساد نظام الأرض وفتنة أهلها ، ومن ثم فالحق أن من عتوا عن امر الله وخرجوا عليه ، وحادوا عن تطبيق قانونه والسير على هديه لا حق لهم على الاطلاق فى الحياة على وجه ارض الله . لكنها عنـاية الله الكبرى وحلمه اللا محــدود ان يملى لهم ، ويدعهم على وجهها ، ويمنحهم الحرية فى بقائهم على كفرهم وشركهم والحادهم الى الحد الذى

لا يصبح معه بغيهم وعصيانهم سببا فى فتنة عباد الله الآخرين وفساد حياتهم ، لانه تعالى لا يرضى بالطبع ان يلقى هؤلاء العصاة بقانونه خلف الظهور ليديروا نظام ارضه وفق قوانينهم التى خطتها أناملهم ، ويملأوا ارضه وملكه فسادا وفتنة واثما مبينا . لأجل هذا امر سبحانه من آمنوا بقانونه وشرعته : الا تكرهوا الكفار على قبول دين الحق ولكن جاهدوا بكل قواكم لاخماد الفتنة المتمثلة فى غلبة الكفر والكفار وسطوتهم . حينئذ سيقوم نظام الأرض فعلا على دينى وقانونى ، فان رفضوه وتنكروا له بعد ذلك لا بد وان يبقوا « اصاغر » لا « اكابر » « **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** » التوبة ٢٩ (١) .

يوسف عليه السلام وسلطة الحكومة :

بعد ايضاح ما تقدم من حقائق نرى ان الدليل الثانى يفقد حجته وبرهانه . فلو كان يوسف عليه السلام نبيا مرسلا من الله حقيقة فان مهمته لن تكون مهمة اخرى غير مهمة كل رسول حقيقى الا وهى اظهار دين الله على سائر الأديان الأخرى . وهذه هى الحقيقة الأولية التى ينبغى اتخاذها قاعدة عامة فى تفسير مختلف وقائع سير الأنبياء جميعا . والا فلو سلمنا بأن سيدنا يوسف عليه السلام كان ينفذ فى مصر قانون الملك بدلا من قانون الله فليس ثمة فرق جوهرى بينه وبين أى من وزراء الحكومات غير الاسلامية . وللأسف الشديد ابتعد الناس كثيرا عن الحقيقة الأصلية فلم يفهموا قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، وراحوا يحسبون خطابه لعزيز مصر ان « **اجعلنى على خزائن الأرض** » مجرد طلب للحصول على وظيفة فى بلاط الملك بيد ان الأمر كان شيئا آخر .

لقد اختار يوسف عليه السلام بادىء ذى بدء الطريق الذى يختاره

---

(١) كتب استاذنا المودودى فى تفسيره « تفهيم القرآن » يشرح هذه الآية فقال :

« أى أن غاية الحرب والقتال ليست دخولهم فى الاسلام أو اتباع دين الحق ، وانما انهاء سيطرتهم وسطوتهم فلا يصيرون حكاما فى الارض أوأولى أمر ، لأن مقاليد الأمور وسلطات الحكم والامامة لا تكون الا فى يد أتباع دين الحق ، أما من سواهم فهم تابعون مطيعون .

والجزية لقاء الأمن والحماية التى توفرها الحكومة الاسلامية لاهل الذمة ، كما أنها دليل على رضاهم أن يكونوا تابعين . فمعنى « عن يد » أنهم يؤدونها طائعين راضين . ومعنى « صاغرون » أى ليسوا « أكابر » فى الارض لان هذا شأن المؤمنين وحدهم الذين يؤدون واجب الخلافة . أما من رفضوا اتباع دين الله وساروا وفق طرقهم أو طرق سواهم الضالة فلهم الحرية المطلقة أن يفعلوا ما شاءوا من أخطاء . لكن ليس لهم اطلاقا الحق فى تملك أزمة الأمور وسلطات الحكم فى أى بقعة من أرض الله ، واقامة وادارة نظام الحياة الاجتماعى وفق أسلوبهم وطريقهم الضال . فان تمكنوا من ذلك فسينتشر الفساد حتما ويصبح واجب المؤمنين أن يحاولوا اقصاءهم عن ذلك وجعلهم طائعين للنظام الصالح .

الأنبياء اجمعون لاقامة دين الله ، واقصد به الدعـــوة العامة ثم تنظيم وترتيب من آمنوا بالدعوة ثم الجهاد فى سبيل اقامة دين الله . ولهذا بدأ فى السجن اولى حلقات سلسلة دعوته التى تطلعنا سورة يوسف فى القرآن الكريم على أصولها ومبادئها . ثم ما لبث أن سنحت امامه فرصة كان فى استطاعته الوصول الى هدفه بواسطتها عن طريق مختصر قصير . فرأى ان يظهر الطهر وحسن السيرة فى أمر زوجة العزيز وصحيباتها .. وقد نال ذلك . ثم اثبت نفاذ بصيرته فى مسألة تأويل رؤيا الملك ، فآمن به ملك مصر ايمانا كان يرى معه أنه لو طلب منه كافة سلطات الحكم آنذاك لأعطاها اياه عن طيب خاطر دون تردد . عندئذ وجد عليـــه السلام فى استيلائه الفورى على السلطة طريقا أقرب لاقامة دين الله بدلا من ان ينجز مهمته عن طريق الحركة الشاملة ، فطلب من الملك ((**اجعلنى على خزائن الأرض**)) . ولم تكن هذه مطالبة بمنصب وزير المـــالية كما يظن البعض ، بل كانت مطالبة بالسلطة الكلية .

والله سبحانه وتعالى يشهد بحصول يوسف عليه السلام على السلطة فيقول : ((**وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منهاحيث يشاء**)) يوسف٥٦ يعنى أن البلاد كلها كانت تحت سلطته . وثمة شهادة اكبر من هذه فى سورة المائدة حيث قال موسى لقومه : ((**يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحـدا من العالمين**)) . المائدة ٢٠ ، اذ يتضح منها أن السلطة التى حصـل عليها سيدنا يوسف نتجت عنها ثورة شاملة أصبح بنو اسرائيل على اثرها حكاما على مصر بدلا من الفراعنة ، فارتفع شأنهم ونالوا ما لم ينله أحـــد من الشعوب التى جاورتهم .

أما التأثير الدينى الذى تركه سيدنا يوسف فى مصر نجد شهادة عليه فى سورة غافر حين كلم موسى عليه السلام فرعون عصره ، فقال رجـل مؤمن من الأقباط :

((**ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا**)) يوسف ٣٤ .

أو بعد معرفة هذه الحقائق عن أمر سيدنا يوسف عليـــه السلام ، يستطيع أحد من الناس أن يتجرأ ويتخذه دليلا على أن الاشتراك فى حكومة غير مسلمة حق مشروع ؟

أما آية ((**ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك**)) يوسف ٧٦ التى تتخـذ حجة على أن يوسف عليه السلام كان ينفذ القوانين الفرعونية ويعمـل

بمقتضاها ، فمع ان معناها ومفهومها يتسع لحديث مسهب الا اننا لو
سلمنا بمعناها الظاهرى اوجدناه يؤكد حدوث هذه الواقعة فى عهد حكومة
يوسف حين كان قانون العقوبات المعمول به من قبل لا يزال سارى المفعول
فى البلاد (والقرائن توضح انها من وقائع الأعوام الأولى من فترة توليه
الحكم . اذ بعد بضع سنوات من تنصيبه عزيزا على مصر بدأت السنوات
السبع العجاف المعروفة ، والتى اضطر فيها اخوته النزول الى مصر بحثا
عن الغلة) .

وطبيعى ان نظام المجتمع فى اى قطر لا يتغير فى آن واحد وانما يبدل
بالتدريج وحتى فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام نفسه استغرق قلب
نظام المجتمع العربى وتغييره ما يقارب عشرة اعوام . فنظام الميراث مثلا
تم تغييره فى العام الثالث او الرابع للهجرة، وطبقت قوانين الزواج والطلاق
بصورة كاملة بعد خمس او ست سنوات من الهجرة ، كذلك استكملت
قوانين العقوبات على مدى ثمانية اعوام كاملة، وتغير نظام الدولة الاقتصادى
تدريجيا فى تسع سنوات ، وحرم الخمر بشكل قطعى فى العام الثامن
الهجرى ، وحرم الربا تماما فى العام التاسع الهجرى .

فاذا كان يوسف عليه السلام قد شرع يغير قانون الملك بهذا التدرج
أيضا، واذا كانت قوانين الدولة القديمة آنذاك ظلت نافذة الى فترة ما ،
فهل يستدل بذلك على ان واحدا من رسل الله اعتبر قوانين الآخرين
الجاهلية شرعية بل وطبقها وقام على تنفيذها ؟

(٣) اما الدليل الثالث فهو ليس فى الأصل دليلا وانما ينبغى تسميته
عذرا . وقد اجبنا عليه من قبل ، لذا ساكتفى هنا برواية الحديث الذى
نقله ابو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « والجهاد ماض منذ
بعثنى الله الى ان يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل
عادل » .

اى ان الجهاد لا يعتذر عن القيام به بان جبابرة عصاة اقوياء يسيطرون
علينا الآن ، كما لا يمكن التماس العذر عن المضى فيه بان حكومة الوقت
بالرغم من كونها حكومة كفار ، الا اننا نلقى فى ظلها الأمن والاطمئنان ، وننال
تحتها العدل والانصاف . كذلك لايجوز للمسلمين اذا تحقق العدل وقامت
الشرعية فى بلادهم ان يقعدوا مطمئنين ، ويلفتوا ابصارهم عما يجرى
خارجها من الظلم والفساد .

الفصل الثالث

النظرية الباطلة

فى الفرق بين الدين والسياسة

كتب احد قراء مجلة ترجمان القرآن الى استاذنا المودودى يقول :

« يحدثنا القرآن الكريم ان يوسف عليه السلام تمكن فى الأرض واضطلع بمنصب ممتاز فى حكومة عصره ، بيد انه كان رسولا وكانت على عاتقه رسالة يتحتم عليه اتمامها واداؤها . وقد اشار احد المؤمنين فى بلاط فرعون الى ان قوم فرعون لم يؤمنوا بنبوة يوسف وان يوسف عليه السلام ظل يملى لهم حتى مماته .

ويتضح من هذه الاشارة ان يوسف عليه السلام بلغ رسالته بالفعل لكن فرعون وقومه لم يؤمنوا بها، ومع ذلك ظل يوسف شريكا له فى حكومته .

فكيف لرسول مصطفى من الله ان يشترك فى حكومة غير شرعية ؟ وحيث ان يوسف عليه السلام ابلغ الناس رسالته ولم يؤمنوا بها ، اذن كان لزاما عليه اما ان يجاهد ضد من انكروا دعوة الاسلام ورفضوها ، او ان يهاجر من ديارهم . لكنه لم يجاهدهم ولم يهاجر من بلدهم بل حتى لم يتبرا منهم او يعلن ازدراءه لهم واستياءه منهم وغضبه عليهم .. فهل تستطيع ان تحل لنا هذه المعضلة ؟ » .

فرد عليه استاذنا المودودى على صفحات المجلة يقول :

ان تاريخ بنى اسرائيل فى فترة ما قبل موسى عليه السلام يكتنفه الغموض (١) ومن ثم تاتى صعوبة العلم بتفاصيل الاشارات التى ذكرها القرآن موجزة . ومع ذلك لم يدع القرآن مجالا للشك فى ان يوسف عليه السلام ما كان شريكا فى حكومة ذات نظام غير شرعى بل ان القرآن اثبت عكس ذلك حصوله على السلطة الكلية والنفوذ المطلق وتوليه مقاليد الامور فى الحكومة آنذاك شريطة ان تكون كافة السلطات فى يده . تأملوا هذه الآية :

---

(١) لم يلق التلمود ولا التوراة على فترة ماقبل موسى ضوءا . وحتى تاريخ مصر القديم وآثارها لا نجد فيهما اية معلومات تتعلق بهذه الفترة .

« قال اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء » يوسف ٥٥ ـ ٥٦ .

يتضح منها ان مطالبة يوسف عليه السلام كانت مطالبة بالسلطات كلها وانه قدنالها كلها بالفعل ، غير ان بعض الناس فهموا **(خزائن الأرض)** على انها وزارة المالية مثلا ، بينما تعنى فى الحقيقة كافة مقاليد البلاد ، فكان طلب يوسف من فرعون مصر أن اجعــل فى يدى كافة ازمــة مصر ومقاليدها . ونتج عن طلبه هذا حصوله على السلطة على كل مصر . كذلك فهم البعض **(يتبوأ منها حيث يشاء)** بمعنى مقصور على أن يوسف عليه السلام أضحى مطلق الحريه فى اختيار او بناء أى مكان وحسب ، على حين مقصودها الحقيقى تصوير سلطة سيدنا يوسف وتشبيهها بسلطة صاحب الأرض فى أرضه .

ويبقى الآن السؤال عن كيفية حصوله على السلطة ومحاولاته التى بذلها لتبديل نظام البلاد الثقافى والاجتماعى والأخلاقى والسياسى بما يتفق ومبادىء الاسلام عن طريق هذه السلطة ، والى أى حد نجح فى ذلك ممـا لا نجد له تفاصيل واضحة فى التاريخ .

وينبغى أن نعلم من اشارة واحدة وردت فى سورة المائدة أن سـلطة بذلها لتبديل نظام البلاد الثقافى والاجتماعى والأخلاقى والسياسى بما يتفق الى جوار ربه ، وانما كانت سلطة ذات فعالية وتأثير بحيث بقيت بعـده ردحا فى يد خلفائه المسلمين الذين حكموا مصر وأصابوا حظا من الرفعـة والشـوكة لم ينله قوم غيرهم فى ذلك الزمان .

تقول الآية :

« واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين »

المائدة ٢٠

وبالطبع يمكن أن نستنبط التأثير الضرورى الذى يترتب على مثـل هذه الغلبة والسيطرة الاسلامية على سائر شعاب حياة المجتمع .

ولقد استنتجتم من الآية التى ذكرتهـا من قبل من سـورة غافر أن الاقبـاط رفضـوا دعوة يوسف عليه الســلام . والحق أن مثل هـذا الاستنتاج لا يمكن الوصول اليه من هذه الآية . وقد فهمتها على أن مصر ـ مثلها فى ذلك مثل الهند ـ قبل عدد كبير من سكانها الاسلام ، وبقيت

اكثرية فائقة على ما هى عليه من شرك (١) ومكث من قبلوا الاسلام على راس السلطة دهرا . لكن الانحطاط الدينى والاخـلاقى اثر فى أجيالهم بالعبودية والضلال حتى سقطوا فى فتنة عبادة الأشخاص الى درجة لم يبق معها بينهم وبين غيرهم من المشركين فرق يذكر .

تقول الآية :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » غافر ٣٤ .

ويتضح منها أولا أن أكثر الناس ظلوا فى شك من نبوة يوسف ودعوته ابان حياته ، تماما كما حدث مع كل نبى . ثانيا ان من آمنوا به عشـقوا شخصيته بعد موته ، ووقعوا فى الغلو والتطرف ، وراحوا يزعمون انه لن يأتينا رسول آخر غيره . وعلى هذا الأساس رفضوا تصديق من جاء بعده كما فعل ذلك فيما بعد كل من اليهود والنصارى .

وعلى اى حال ليس فى مقدورنا ان نستخرج من هذه الآية أيضا انعدام الايمان المطلق بيوسف عليه السلام ، بل ان هذه الآية وغيرها تشير الى أن جماعة من المؤمنين به قامت ونفذت النظام الاسلامى فى بنى اسرائيل ، ثم تدرجت فى الانحطاط فيما بعد .

دفاع عن التفريق بين الدين والسياسة :

بعد نشر الرد السابق ارسل احد مشاهير القوم الى أستاذنا المودودى بعض الاستفسارات والتعليقات نجملها فيما يلى :

« هل كان يوسف عليه السلام عضوا فى حكومة غير اسلامية أم لا ؟ واذا كان كذلك فهل هذا مقبول من وجهة نظر الاسلام ؟

ان مولانا المودودى يرى ان يوسف عليه السلام لم يكن شريكا فى نظام حكومة مصر غير الشرعية ، ومن العجيب انه استدل على رأيه بالآية التى تقول **« قال اجعلنى على خزائن الأرض »** وهى التى تثبت فى الحقيقة عكس رأيه . فلقد طلب يوسف من فرعون مصر : اجعلنى على خزائن البلاد فقبل فرعون وغدا يوسف عليه السلام القائم على مال فرعون . وهذا يعنى انه

---

(١) تقول التوراة ان من خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر كان من بينهم ستمائة الف محارب فاذا قدرنا مجموع سكان مصر آنذاك بما لا يقل عن ٦ مليون فان هذا العدد يقارب عشرة فى المائة من المجموع الكلى للسكان .

اضطلع بجزء من حكومة فرعون او شاركه فيها . ولقد حاول مولانا المودودى تلافى هذه النتيجة البديهية لكنه اخفق حين قال « ان مطالبة يوسف عليه السلام كانت مطالبة بالسلطات كلها وانه قد نالها كلها بالفعل» ولفظ السلطة الكلية اولا لم يرد فى القرآن الكريم على الاطلاق ، ولكنه من الفاظ مولانا المودودى اراد ان يضيفه الى آيات القرآن الكريم حتى يصبح القرآن متفقا مع نظرياته وآرائه ، بدلا من ان يصحح هو آراءه لتنطبق مع آيات القرآن وتسير وفقها . وحتى اضافة المودودى غير المشروعة لهذا اللفظ لم تؤيد اجتهاده ونظريته ، اذ المسلم به ان يوسف عليه السلام طلب كافة السلطات المالية ونالها بالفعل لكن هذه السلطات طلبت من فرعون مصر ذاته ، كما انه وحده هو الذى كان يعطيها ومن ثم فبالرغم من حصول يوسف على هذه السلطات الا انه لم يستطع ان يكون اكثر من شريك فى الحكومة وركن من اركانها . وعلى هذا يصبح قول مولانا المودودى « فكان طلب يوسف ان اجعل فى يدى كافة مقاليد مصر وازمتها ونتج عن طلبه هذا حصوله على السلطة على كل مصر » قولا يخالف الواقع تمام المخالفة .

ثانيا : من المعروف ان يوسف عليه السلام طلب جميع السلطات المالية وفوضت اليه فعلا ، ولكن بالاضافة الى هذه السلطات المالية كانت فى الدولة سلطات اخرى كالبوليس والجيش والقضاء وما الى ذلك وهى التى لم يطلب يوسف منها شيئا ، ولم تسند اليه . ثم يأتى بعد ذلك مولانا المودودى ويقول ان السلطات التى نالها يوسف كانت سلطات مصر كلها . ان ما ادعاه المودودى فى هذا لا اساس له ولا سند .

وبناء على ما سبق يتضح ان وضع يوسف عليه السلام ظل يتمثل - بعد هيمنته على خزائن مصر - فى اشتراكه فى الحكم وتدعيمه له طالما انه لم يثبت من اى مصدر ان فروعون مصر قد تنازل عن السلطة وتخلى عن الحكومة ، واحتل يوسف مكانه واصبح ملكا على مصر . وهذا هو الثابت من التاريخ والذى يؤيده القرآن فى الآية موضع البحث وفى الآية التالية : **« وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين »** يوسف ٥٤ - اذ يتضح منها تمام الوضوح ان فرعون مصر اتخذ يوسف عليه السلام دعامة لحكمه وسندا وجعله مستشارا خاصا له .

كذلك ليس ثمة فى هذه الآيات ادنى شك فى ان فرعون مصر تخلى عن الحكومة والسلطة .

ويتضح من آية اخرى ستلى فيمابعد ، ان حكم فرعون ظل قائما وكذلك دينه الى فترة بعد ان اصبح يوسف متصرفا فى خزائن مصر . اذ

لما جاء أخوه يوسف لأخذ الحبوب والغلال وشحنها ؛ واستصحبوا معهم بنيامين أخا يوسف الشقيق نزولا على رغبـــة يوسف نفسه ؛ آواه اليه وصارحه بأنه أخوه على حين كتم عن أخوته الآخرين هذا الأمر . ولما كان يوسف عليه السلام يريد الابقاء على أخيه بنيامين عنـده لم يبد لهم رغبته فى ذلك وانما دبر وضع الوعاء فى متاع بنيامين ؛ وحين بدأت القافلة فى التحرك أذن مؤذن فى العير انكم لسارقون ؛ فأنكر أخوه يوسف ذلك فقال المؤذن فما جزاء من نجده عنده قالوا أن تأخذوه عوضا عن الوعاء . وتم تفتيش جميـــع الرجال وأخرج الوعاء من رحل بنيامين .. وأخذ بنيامين بدلا من الوعاء .. عندئذ يقول تعالى :

« ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا ان يشاء الله » يوسف ٧٦

فهذه الآية توضح أن القانون الذى كان معمولا به فى مصر آنذاك هـو قانون الملك ولم يكن يوسف عليه السلام يستطيع بمقتضى هذا القانون ان يأخذ بنيامين من اخوته بتهمة السرقة . لكن الله تعالى أجرى على لسان اخوتهم قولهم :

« جزاؤه من وجد فى رحلة فهو جزاؤه » يوسف ٧٥ وفى هـذا يقـول مولانا شبير أحمد العثمانى مفسرا هذه الآية : « يعنى ان الله انطق اخوته فقالوا من تجدوا الصواع فى متاعه خذوه عبدا نظيره ؛ وبذا تم القبض عليه (أى بنيامين) . والا ما كان قانون مصر آنذاك يسمح بذلك . ولو انهم لم يقرروا ذلك بأنفسهم لما استطاع يوسف أخذ أخيه بأية صورة وفقا لما يقضى به القانون المصرى » .

ولا يستلزم هذا أن يكون يوسف عليه السلام قد وقف عن تبليغ رسالته ودعوته ؛ أو هرب من اعلانها بعد تمكنه من وزارة مصر ؛ فهو قد بدأ دعوة التوحيد وقت أن كان فى السجن فنراه يقول لرفاقه هناك :

« يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير ام الله الواحـــد القهار ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان أن الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه » يوسف ٣٩ ــ ٤٠ فلما تولى الوزارة كان ضروريا أن يواصل مهمته فى ميدان الدعوة .

فالثابت من الآيات الكريمة دون ريب أن يوسف عليه السلام أصبح أحد أعضاء حكومة غير اسلامية برغبته وطلبه ؛ وأن نظام الحكم وقانون البلاد بقيا بعد توليه الوزارة غير اسلاميين ؛ وبدلا من أن يعاتبه الله على ذلك ويلومه نراه يمتدحه ويسمى ما ناله يوسف من تمكن فى الأرض نعمـة الهية فيقول : **« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشـاء »** يوسف ٥٦ مما يستدل منه على ان اشتراك المسلمين بل وحتى الأنبياء فى

نظام حكومة غير اسلامية امر جائز مشروع وليس ذلك فحسب بل هو ايضا فرض كفاية فى بعض الحالات لأن طلب يوسف من فرعون مصر ان يكون على خزائن مصر برغبته دليل على ان هذا السلوك لم يكن جائزا مشروعا له فحسب بل كان بعده واجبا عليه والا لما طلبه من فرعون ، ودعم طلبه بقوله عن نفسه انى حفيظ عليم . فان لم يكن عمله كوزير لملك مصر فى رايه واجبا عليه وفرضا فان قوله عن نفسه انى حفيظ عليم يدخل فى نطاق مدح النفس الذى لا وجه له .

الرد :

تحدثت فيما مضى مرتين عن هذا الجزء موضع البحث من قصة يوسف عليه السلام احداهما تفصيلا والثانية ايجازا واختصارا ، ولست ادرى لماذا ترك صاحب الاعتراض حديثى الأول ــ وجعل مدار كلامه واعتراضاته على حديثى الثانى وحده أ بينما كان فى استطاعته ان يجد فى اولهما (١) اجابة لأكثر النقاط التى ادرجها فى اعتراضاته ان لم يكن لها كلها.

وعلى اى حال فان هذا التجاهل ــ ايا كان سببه ــ يحوى شيئا وحيدا نرى فيه خيرا لنا الا وهو ان ماذكرته مرارا بالتفصيل كان توضيحه شاقا عسيرا علينا وها نحن قد وجدنا فى ذكر الآخرين واثارتهم لجوانبه وزواياه فرصة اخرى لتوضيحه وتبيانه .

افى الاسلام تناقض :

ان اول مانتوقعه غالبا من اى انسان عاقل فى الدنيا ان يخلو كلامه من التناقض . ولو ان انسانا جاهلا ذا عقل بسيط سمع من شخص اقوالا يناقض بعضها بعضا لاعترض عليه من فوره واسكته ، لان عقله البسيط المغلق لم يستطع استساغتها وقبولها. لكن المدهش حقا ان هذه التناقضات التى يصعب توقعها من انسان ذى عقل بسيط ساذج يتوقع البعض صدورها من جانب الاله الحكيم الذى خلق العقل بنفسه ، واعجب من هذا ان من يتوقعون صدور هذه اللامعقولية الزائدة من الله ، بل وينادون بها ليسوا اناسا جاهلين ، انما هم اهل العلم الذين يلقنون الدنيا باسرها المعرفة والعلم ، وهم السادة الافاضل الذين تتصارع عقولهم فى تصريف امور دنياهم ، فهؤلاء السادة العقلاء يريدون من ربهم بل ويأملون املا كبيرا ان تحوى اموره تناقضا بين ثناياها، وان يضم كلامه عز وجل تضادا وتخبطا . فيقول اننى ملك السماوات والارض ثم يسلم بسلطة احد آخر على اى بقعة من ارضه . او يقول لهم ياايها الناس اطيعوا جميعا احكامى

---

(١) راجع ما كتبه الاستاذ المودودى تحت عنوان الاسلام والسلطة ص ٢٠ من هذا الكتاب .

وقانونى ، ثم يسمح لهم بل ويصل الأمر الى حد ان يفرض عليهم ان يؤدوا فروض الولاء والطاعة لأولئك الحكام الذين لا يحكمون فقط بغير ما انزل من قوانين شرعيــة الهية ، بل يصــدرون فى اكثر الأحوال احــكاما تخالف شرعته .

او يضع بنفسه قانونا خاصاللانسان ويعلن ان هذا هو قانونى وان كل ماعداه باطل، ثم يجيز لهم تطبيق القوانين الأخرى والخضوع لها ، ويعطى لمن وضع لهم بنفسه هذا القانون الحق فى ان يشرعوا لانفسهم قوانين ان ارادوا ذلك او ان ينفذوا قوانين الآخرين ويتبعوها.

او يرسل رسله لهدف خاص هو دعوة سكان الأرض بأسرها الى قبول دينه ، ثم يسمح لهؤلاء الرسل او لأحد منهم ان يصبح عاملا وخادما فى نظام دين غير دينه ، ويبذل قصارى جهده فى العمل على تنفيذه واقامته بنجاح ، بل على حد قول صاحب الاعتراض يثنى سبحانه وتعالى على هذا العمل ويستحسنه .

او ينتقى من بين سكان العالم اجمع امة تعمل على تحقيق هدف معين هو ان تأمر بالمعروف الذى قرره معروفاوتقضى على المنكر الذى حــدده منكرا ، ثم يحل لهذه الأمة — بل ويجعله فرض كفاية على بعض صفوتها المختارين — ان يأخذوا بنصيب فى اقامة ونشر تلك المنكرات التى جعلها حاكمهم الباغى معروفا ، وان يتحولوا الى ادوات لمحو المعروف الذى يراه هذا الطاغية العاصى منكرا .

ان هذه الأمور سافرة التناقض صريحة التضاد ، وتناقضها لا يلزم لادراكه تفكير عميق . لكن الأمر العجيب ان من يعلمون الناس كيفيــة كتابة التفاسير وتدريس الفقه والعلوم العقلية ويربون العقول التى تضطلع بأكبر المناصب والمسئوليات فى المجامع والدواوين لايرون فيها تناقضا . كما ان اله الكون فى رايهم على درجة من السوء يتوقعون معها أن تصدر عن ذاته مثل هذه الحماقات والجهالات . التى لايستطيع اى جاهل احمق أن يسمعها من احد رفاقه وجلسائه ويسكت عنها ويتغاضى .

يقول صاحب الاعتراض :

« كذلك يتضح من آية اخرى ستلى فيما بعد ان حكم فرعون ظل قائما وكذلك دينه الى فترة بعد ان اصبح يوسف متصرفا فى خزائن مصر ... » **« ما كان لياخذ اخاه فى دين الملك الا ان يشاء الله »** ... فهذه الآية توضح ان القانون الذى كان نافذا فى مصر آنذاك هو قانون الملك »

مفهوم الدين :

يبدو ان صاحب الاعتراض وقت كتابته هذه الكلمات لم يتوقف قليلا ليفكر فى هذا التناقض الصريح الذى يتضح فى القرآن نتيجة ما زعمه من تفسير . فليتكرم الآن ويمعن تفكيره فى دراستنا وتناولنا له .

حيث ان الله تعالى قد سمى القانون الملكى المصرى فى الآية التى نقلها صاحب الاعتراض نفسه ((**دين الملك**)) ، اذن فمعنى الدين ليس فقط تلك العبادات التى تؤدى فى أماكن العبادة ، بل هو ايضا القانون الذى بمقتضاه يقبض البوليس على المجرمين ، والذى يحكم به فى المحاكم والمسائل المكتبية والعسكرية، والذى ينظم أمور البلاد وعليه يقوم نظام المجتمع بأكمله . فالمنهاج الذى تسير عليه فروع الحياة المختلفة وتتبعه بشكل جماعى يسمى باصطلاح القرآن « دينا » . ولما كان المنهاج السائد فى مصر حينذاك يسير وفق مشيئة فرعون ويتأسس على سلطته العليا المطلقة لذلك سماه القرآن « دين الملك » . ومن ثم يتضح أن « دين الله » لا ينحصر فى المساجد والصلاة والصوم وكفى ، وانما يعنى كذلك اتباع تلك الشريعة الكاملة التى تنبع من رضا الله وتقوم على حاكميته وسلطته ، وتندرج تحتها كافة أمور الحياة .

فالسؤال الآن : لماذا بعث يوسف عليه السلام نبيا من عند الله ؟وأى شىء كان يدعو اليه ؟ دين الله أم دين الملك ؟ فاذا سلمنا بتأويل صاحب الاعتراض وتفسيرات السادة الأفاضل الذين يبغون افزاعنا وتخويفنا ، للزم التسليم أيضا بأن الله أمر نبيه بأن يدعو خلقه وخاصة أولئك المساكين منهم فى مصر الى أن يختاروا دين الله ، ثم اذا بهذا النبى نفسه يعمل على قيام دين الملك واستحكامه بهدى من الله ورعايته . والعجيب أن الله لم يشعر بتناقض سلوكه هذا وراح يمدح هذا النبى — كما جاء فى كلام صاحب الاعتراض — بل وسمى فوز نبيه بمنصب الوزارة فى نظام الكفر « نعمة الهية » وكأنه تعالى واحد من هؤلاء المتدينين العظام فى زماننا هذا ممن نرى على جباههم زبيبة سوداء من اثر السجود وما أن يحصل ابنه على درجة الماجستير ويصبح « نصف متفرنج » ويعين مفتشا فى ادارة الخمور مثلا حتى يهوى ساجدا لله مسبحا بحمده شاكرا أفضاله لأنه تعالى اسبغ نعمته على هذه الأسرة .

ثم يقول صاحب الاعتراض :

« ولا يستلزم هذاان يكون يوسف عليه السلام قد وقف عن تبليغ رسالته ودعوته او انه هرب من اعلانها بعد تمكنه من وزارة مصر فهو قد بدأ دعوة التوحيد وقت أن كان فى السجن ... فالثابت من الآيات الكريمة

دون ريب أن يوسف عليه السلام أصبح أحد أعضاء حكومة غير اسلامية برغبته وطلبه وأن نظام الحكم وقانون البلاد بقيا بعد توليه الوزارة غير اسلاميين »

وفى هذا الادعاء أيضا تناقض لم يسترع انتباه صاحب الاعتراض فأى نوع من التوحيد كان يوسف عليه السلام يدعو اليه ؟ فان كان التوحيد فى دعوته هو عبادة الله فى طقوس وشعائر تؤدى فى أماكن العبادة الى جانب طاعة قانونه الذى يقوم عليه نظام الحكم والمجتمع باعتبارهما عند الله أمرا واحدا هو خضوع الحياة كلها لتعاليم الدين وقوانينه فان يوسف عليه السلام – من وجهة نظر صاحب الاعتراض يكون قد عمل بما يخالف دعوة الحق والتوحيد .

أما ان كان التوحيد فى دعوته يعنى أن دين الله هو ما يؤدى فى المعابد وبيوت العبادة ، على حين يسير نظام الحكم والمجتمع وفق دين الملك ودستوره ، فان دعوته اذن ليست دعوة توحيد وانما هى دعوة تقوم على الاثنينية لا الوحدانية ، ويسير منهاجها العملى على طاعة حاكمين مختلفين فى آن واحد .

وثمة سؤال آخر : بأى معنى أبلغ يوسف عليه السلام رسالته ؟ فان كان قال للناس انى نائب عن مالك السماوات والأرض فاتقوا الله واطيعونى كما قالها الأنبياء أجمعين فان هذا المعنى لا ينطبق بأى شكل وتسليمه بسيادة ملك غير مسلم وطاعته له فى ظل نظام غير مسلم . وان كان قال للناس انى نائب عن ملك السماوات والأرض غير أن منهجى طاعة ملك مصر وانى أدعوكم أيضا لطاعته ، فان دعوته هذه ليست فقط دعوة صريحة التناقض لا يحق لها الثبات والتمكن وانما تثير الضحك والقهقهة وتصل بداعيها الى مستشفى الأمراض العقلية لاالى منصب الوزارة .

ان هذا الكتاب الذى يسن قاعدة عامة تنص على أن الله لم يرسل رسولا الا ليطاع باذنه « **وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله** » النساء ٦٤ ، ثم يعلن فى الوقت نفسه ويقرر أن من اعترف به رسولا قد جعله طائعا لغير الله وليس مطاعا كما ذكر فى القاعدة السابقة لهو كتاب يستحيل الايمان به تمام الاستحالة .

والقرآن يقدم معيارا لاثبات أنه منزل من عند الله فيقول « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » النساء ٨٢ ، فاذا سلمنا بأسلوب تفكير صاحب الاعتراض وتأويلات من لفوا لفه ، لوجدنا فى القرآن تناقضات بينة صريحة تثبت أن القرآن – بالنظر الى المقياس الذى قدمه بنفسه – كلام أحد آخر غير الله .

والحقيقة ان هذا الطراز الفكرى الذى يمثله صاحب الاعتراض يكمن خلفه تاريخ مؤلم طويل للانحطاط الاخلاقى .

دراسة تاريخية ونفسية لنظرية التفريق بين الدين والسياسة :

ما ان نسى المسلمون هدفهم الأصلى ، وتخلوا عن مهمتهم الحقيقية حتى سقطوا فى عبادة الدنيا ، وغدا التدين فى نظرهم مجرد عبادات وشعائر واتبـاع لبعض الأحكام الشرعية فى الحياة الاجتماعيـة ، حتى ولو كانت أهداف الحياة فى مجتمعهم أهداف أهل الدنيا وعبـادها ، كذلك أضحوا لا يبالون بما اذا كانت مقاليد النظام الاجتماعى فى بلدهم فى يد الصالحين أم الفجار، أو اذا كانت الامامة والزعامة اسلامية فى مبادئها وأهدافها أم غير اسلامية . فكان عقاب الله لهم على غفلتهم هذه أن طفقت مدنهم الكبرى تتعاقب فى سقوطها تحت نير الكفار .

لكن المسلمين وعلماءهم بدلا من تلافى هذا القصور الأصلى ، وتفهم هذا العقاب تفهما صحيحا ، شرعوا – على العكس – يفكرون فى طريقة يحيون بها حياة اسلامية فى ظل نظام كافر . فاتخذوا « **الاضطرار** » عذرا، وراحوا يرسمون للحياة الشرعية الاسلامية خريطة جديدة وخطة فريدة يستطيعون فى داخل اطارها أن يمارسوا حياة اسلامية فى ظل نظام غير شرعى وغير اسلامى .

وعلى هـذا بدأت سلسلة من عقاب الله المتزايد ليبلوهم أيحتملونها ويؤبون ، أم يستغرقون فى مهاوى ضلالاتهم وغيابات انحرافاتهم . ثم راح هذا « الاضطرار » – الذى كان فى مبتداه مجرد اضطرارا . يتفاقم ويزداد وفقا لسنة الله حتى اتخـذ أشكالا وصورا من الاضطرارات دائمـة لا متناهية .

وكل « اضطرار » جديد يظهر فى حياتهم يتطلب منهم أن يزيلوا جزءا من الحدود التى وضعوها للحياة الاسلامية تحت نظام الكفر . بيد أن واحدا من عذابات الله الشديدة التى حاقت بهم لم يوقظهم من غفلتهم أو يبصرهم بحالهم ، فاستنوا قاعدة دائمة مؤداها أن كل « اضطرار » يقتضى أن نجعل حدود الحياة الاسلامية تنكمش وحدود تسلط الكفر وغلبته تتمدد وتنتشر .

ثم بدأ هذا « الاضطرار » يؤرق بالهم ويقلق نفوسهم ، لأن تصور الحركة لا بد وان يبقى موجودا فى ظل « الاضطرار » ، فأى انسان عاقل يدرك بالضرورة انكم اذا اكلتم مثلا لحم الخنزير بسبب « الاضطرار » المحض ، فمن المحتوم ان يبقى الخنزير فى نظـركم حراما ، وبما انكم

تعتبرونه فى الأصل محرما ، وتأكلونه كرها و « اضطرارا » ، فلا محالة من وجود كراهية له ونفور منه داخل قلوبكم ومشاعركم ، وهيهات أن تتلذذوا بطعمه أو تجتهدوا فى ملء بطونكم به فى استساغة وشهية ، أو تتفننوا فى طهيه بطرق عدة وتصنعوا منه أنواعا وأنواعا .. وهذه هى عاطفة الاجتناب والنفور التى لا مناص من ظهورها فى كل المسائل والأمور التى تعتبرونها حراما فى حقيقتها ، وتستبيحونها لأمر اضطرارى عارض .

اما أن تظل امة بأسرها تطرأ دوما على حياة أفرادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حالة الاضطرار الشرعية وضغوطها وآلامها النفسية، فيجتنبون نظام الحياة فى عصرهم بأكمله ، ويشعرون تجاهه بالكراهية والنفور ، وتغدو علاقتهم به أن « لا مفر من الحياة » فهذا فى الواقع امر مستحيل تماما ، ولا يمكن تحمل مثل هذه الحالة مدة طويلة اذ سرعان ما ستشعر الطبائع والنفوس منها بالارهاق ، وهو ما يظهر الآن فى حياة المسلمين واضحا جليا . الا أن تزايد التسلسل المستمرفى الانحطاط الدينى منذ امد طويل ، جعل المسلمين لا يعيدون النظر فى نظريتهم التى بنوها على أساس امكانية الحياة الاسلامية داخل نظام كافر ، ولم يدفعهم الى اتخاذ تدابير واجراءات لانهاء حالة « الاضطرار » هــذه التى اجبرتهم على أن يعيشوا والحرمات تحاصرهم من كل صوب واتجاه ، والخبائث والآثام تكتنف كافة صغائر أمور حياتهم وأجلها على السواء . ولقد حدث رد فعل معاكس فانتهت بهم حالة الانحطاط الدينى المتواتر الى أن يجهزوا تماما على عذر «الاضطرار» من اساسه كى تتهشم قيود الحرمات التى أوصدت فى وجوههم ابواب الانطلاق والرقى والرفعة داخل نظام الكفر ، وتحل محلها الاباحة وتحليل الحرمات .

لهذا الغرض بالذات ظهرت نظرية حديثة تزعم أن الدين قاصر على العبادات والعقائد وبعض المسائل الاجتماعية كالزواج والطلاق وغيره ، وأن مطلب الحياة الاسلامية الرئيسى يتحقق اذا ما كفل أى نظام من نظم الحكم توفير وضمان الأمن للمسلمين فى هذه الأمور ، فتصبح دار الكفر دار الايمان وتلزم طاعة هذا النظام واجراء كافة أمور المجتمع – وهى التى تندرج بمقتضى هــذه النظرية تحت اسم الدنيا بدلا من الدين – وفق قوانينه التى وضعت على أسس كافرة . وليس على المسلمين من حرج فى ادارة دفة هذا النظام ، بل وبذل الأرواح رخيصة فى سبيل نشره وتوسيع سلطانه وحمايته .

وليت الامر اقتصر على « عدم الحرج » أو الاباحة وتحليل ما حرم ، وانما طفقت ضرورات المسلمين فى دار الكفر تجبرهم على أن يجتهدوا فى تشويق أبنائهم وذرياتهم وترغيبهم فى العمــل على خدمة الكفر كى يتلافوا تلك العيوب والتقصيرات التى كان « الحرج » يسببها لهم فى حالتهم

ولى ، ومن ثم فان آخر ما اخترع من حجج تلك التى تزعم أن رقى المسلمين وفلاحهم ، بل واحيانا حياتهم بأسرها ، تتوقف على أن يضطلعوا بمناصب اكبر واكبر فى كافة فروع نظام الكفر : ، فى المحاكم، وفى التشريع والاجتماع ، وفى المجالات العسكرية ومضمار الصناعة وما الى ذلك والا فستهلك الأمة ويسبقها فى الرقى والتقدم غير المسلمين . وكان تأثير هذه الحجة انها جعلت فى لمح البصر ما كان مباحا حتى مساء أمس فرضا صباح اليوم وواجبا ، وغدا فرضا ـ ان لم يكن على الشعب كله فعلى فئة منه على الأقل ـ أن تنهض لتأدية هذا الفرض وكأن أمر الله قد صدر قائلا « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الكفر وليضلوا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يضلون » و « ولتكن منكم امة يدعون الى الشر ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف » .

حقا لقد حدث فى الدين تغيير كبير احترف بسببه كبار الاتقياء والمتدينين ـ الذين تحرك اصابعهم حبات المسابح دوما ـ مهنة المحاماة كى يفصلوا فى قضايا الناس وفق القانون الذى لا يؤمنون به . اما ذلك الذى يعتنقونه ويؤمنون به فيتلونه فى بيوتهم وحسب .

كذلك نتج عن هذا التغيير دخول ابناء كبار الصالحين ورجال الدين معاهد العلم الجديدة وتخرجوا فيها بعد أن تلقوا دروس الالحاد والمادية والرذيلة وانحطاط الخلق . ولم يقتصر تأثير نظام الكفر العملى على هذا ، بل ان هذه الأجيال أضحت خادمة لنظامه الأخلاقى والاعتقادى الذى فرض عليهم كرها وقهرا بسبب غفلة أسلافهم وضعفهم .

ثم تخطى التغيير نطاق الرجال ووصل طوفان الجاهلية والضلال وسوء الخلق الى النساء ، فاذا « بفرض الكفاية » الذى نهض الرجال أول الأمر لأدائه يفرض على النساء حتى اضطررن أخيرا للخروج بغية القيام بهذه « الخدمة الدينية » خشية أن يتخلفن عن غير المسلمات (١) .

ولا تحسبوا أن هذا التغيير وليد عصرنا هذا ، وانما تضرب جذوره الى قرون عديدة خلت حينما سيطر كفار التتار على المسلمين . ولاتظنوا ايضا ان فقط الرسم النظرى لخطة « الحياة الاسلامية فى ظل نظام الكفر » قد تم فى ذلك العهد ، بل ان كثيرا من كبار العلماء واجلتهم آنذاك نفذوهابشكل عملى ، واشتركوا فى العمل تحت لواء النظام الكافر . ومنهم لفيف غفير ممن تتلمذ على كتاباتهم وتفاسيرهم علماء ديننا ومفتونا العظام وها هم اليوم يقومون بتدريسهافى مدارسنا العربية .

---

(١) بعد قيام باكستان اصبح بنات المسلمين يتلقين التدريبات العسكرية فى الميادين العامة ويذهبن الى الدول الغربية للتدريب على عمليات الاسعاف والتمريض وليمثلن المسلمين وينبن عنهم فى البلاد الغربية فى هذا المجال .

ولقد أصبح الخطأ مقدسا بسبب عراقته فى القدم ، ولا عجب ان نرى اليوم فقهاءنا ومحدثينا ومفسرينا سادرين فيه . لكن الأمر البديهى ان الخطأ لا يمكن اعتباره صحيحا بحجة انه تواتر هكذا خلفا عن سلف ، كما لا يكفى لاثبات صحته الاحتجاج بأن كبار القوم وعظماءه قد وقعوا فيه لأن ثبات الحق لا يمكن أن يتم عن مصدر آخر غير كتاب الله وسنة الرسل فقط .

وقد بدأ عصر الانحطاط بالنظرية التى تزعم « امكان الحياة الاسلامية فى ظل نظام الكفر » على أساس « الاضطرار » ، ثم تدرج الى أن وصل الأمر الى ابتداع نظرية تقول « أن العمل فى نظام الكفر جائز ، ثم مستحب ، ثم فرض كفاية » ــ ووصل الانحطاط والاسفاف الى ذروته ومنتهاه فى الراى القائل « بأن طاعة الحكام الذين يعطون الحرية الدينية هى عين ما يقتضيه الدين » . لهذا تضاعفت محاولات المسلمين فى ضرورة ايجاد دليل من الدين يفسرون فى ضوئه كل مرحلة من مراحل انحطاطهم . وهذه المحاولات فى زعمهم مبنية على نظرية تقول « بما أن دين الله مسئول عن سد احتياجاتنا وضروراتنا فان ما يطرأ على حياتنا من احتياجات جديدة لابد وان نجد لتلبيته فى هذا الدين هديا مرشدا » . لكن النظرية الحقيقية التى تختبىء فى باطن هذه النظرية والتى يعمل هؤلاء الناس بمقتضاها فعلا هى « بما اننا احسنا الى هذا الدين ورفعناه وشرفناه بايماننا به ، ففرض عليه لقاء هذا أن يبدأ فى اتباعنا والسير فى عقبنا لا أن نتبعه نحن ونمضى خلفه . اى أن ما بيننا وبينه من علاقة ليس سعينا لتنفيذه وتطبيقه بين ظهرانينا وفى أرض الله بحيث يكون الضامن المسئول عن تلبية ما يعن لنا من حاجات ورغبات خلال هذا السعى ، وانما علاقتنا به لابد وان تتخذ شكلا آخر هو أن نترك حتى مجرد فكرة اقامته وتطبيقه ، ونتيه فى غيابات واودية اتباع أهوائنا . وعليه أن يلازمنا حيث شئنا ويخضع لكافة ما نتبعه من اديان باطلة ، وعلى كاهله مسئولية الوفاء بمايظهر لنا نتيجة اتباعنا لهذه النظم التى تخالفه » .

لهذا بدأ هؤلاء الناس ــ وهم على ماهم عليه من هذا الرأى السقيم الخاطىء ــ يبحثون عن دليل فى القرآن والسنة يبررون به أفكارهم وآراءهم وامعنوا نظرهم فى آيات القرآن وسوره ، فلم يقع فى القرآن بأكمله لا على سورة العنكبوت مثلا أو البقرة او آل عمران أو الانفال أو التوبة ، وانما فقط على سورة يوسف ، وبالذات الجزء الذى أورده صاحب الاعتراض. وكذا الأمر حين فتشوا فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلم يجدوا شيئا يستحق الاتباع ، لا رمضاء مكة الملتهبة ، ولا قذفه بالطوب والحجارة فى الطائف ، ولا معارك بدر واحد وانما فقط حادثة هجرة بعض المسلمين وبقائهم رعايا تحت حكم ملك مسيحى عدة سنوات .

ان من لا يطلب شيئا لمزاجه الخاص بل يطلب الوصول الى الحقيقة المجردة تراه يهتم اهتماما بالغا بأن يسال : هل يمكن ان نستنتج مما نبحثه فى قصة يوسف هذه النتيجة التى يريد هؤلاء السادة الافاضـــل الوصول اليها؟ واذا سلمنا بهذه النتيجة – وهى ان احدالانبياء قد ارتضى العمل فى نظام كافر برضا من الله ورعاية وعناية، واخذ على عاتقه مسئولية تنفيذ قانون غير الهى ((**دين الملك**)) لا لشىء الا لان هذا العمل فى ذاته هدف مقصود ، وان المسلمين الذين هاجروا من مكة الى الحبشة انما هاجروا بناء على ان النظام الاجتمـاعى غير المسلم يعد مناسبا لاقامة اية جمـاعة اسلامية ، شريطة ان يسمح لهم بأن يعبدوا الله فى مساجدهم على طريقتهم الخاصة ، ويؤمنوا فى صدورهم ببعض العقائد ، ويدعـــوا الى عقيدتهم ودينهم ، فان أسئلة اخـرى اكثر اهمية واولوية من السؤال الســابق سوف تثار . اذ بعد قبول هذا الكلام والتسليم به يتحتم تحقيق عـدة امور وبحثها هى :

١ – هذا الدين الذى ارسله الله تعالى على يد الأنبياء الى الانسانية كلها هل بعث خصيصا من أجل دور العبادة وحسب أم لتنظيم الحيــاة الانسانية بأكملها ؟

٢ – وهؤلاء الأنبياء الذين جاءوا بهذا الدين اكان هدفهم جميعا واحدا ؟ أم ان كلا منهم كان له هدف خاص ومهمة محددة بحيث يمكن ان تتعارض مهامهم فيما بينها ؟

٣ – وما الذى طلبه الله فعلا من الانسان ؟ هل طلب منه أن يقر بعبديته لله ويتبع قانونه ؟ ام ان يؤدى له شعائر عباداته فحسب ثم يحيا فى كافة ما تبقى من مجالات حياته وميادينها كيفما يحب ويهوى ؟

وقد يجيب البعض على السؤال الأول بأن هذا الدين الذى أرسله الله مقصور على تلك الحياة المحدودة التى تسمى بمفهوم العصر ((الحيــاة الدينية)) ولكننا لو سلمنا بهذا المفهوم المحدود للدين لأصبح كل ما ورد فى القرآن والكتب السماوية الأخرى من قوانين وشرائع تتعلق بالاجتمـاع والحضارة والاقتصاد والسياسة وامـــور الوزارات والعسكرية والعدل وشئون الحرب والسلام وغيره هراء عديم القيمة لا معنى له على الاطلاق ولن تبقى له صفة الأحكام والاوامر ، وانما يتحول الى وصايا ان عملنا بهــا فخير والا فلا ضير علينا ولا شكوى أو غضب من قبل الله .

وقد تأتى اجابة السؤال الثانى – طبقالتصور المعاصرين عن حقيقة النبوة – ان الانبياء قد بعثوا لمهام مختلفة متباينـة . فاذا كان الهدف من

بعثة احدهم تحطيم نظام الكفر واقامة النظام الاسلامى ، فان الهدف من بعثة الآخر قد لا يقتصر على اكتفائه بالمساهمة بنصيب محدود فى الاصلاح الدينى والخلقى وانما طاعة النظام الكافر الموجود فى زمانه ايضا والاخلاص والوفاء له وتدعيمه ومساندته كلما وجدالى ذلك سبيلا حتى يسود هذا النظام ويقوى . غير أن هـذا الكلام لا يطابق بيان القرآن الذى يؤكد ايما تأكيد ان هدف بعثة الأنبياء كلهم هدف واحد لا يتغير ، كما أن العقل لا يصدق أن مثل هذه الأفعال المتضادة المتصادمة تصدر من جانب الله عز وجل . فأى انسان عادى يستبعد ان يكون هذا الاله الها حكيما لانه يرسل للناس من لدنه رسولا من أجل تحقيق هدف ما ثم يبعث لهم آخر لانجاز غرض يعارض الهدف الأول ويناقضه .

وطبيعى أن ثمة فرقا بين التناقض وبين ان يصل احد هؤلاء الانبياء الى ذورة النجاح فى اقامة نظام اسلامى ، على حين يظل نبى آخر يعمل على اقامته من منتصف الطريق أو من البداية الى آخر لمحة من حياته دون ان يتمكن من اتمامه ، ويختار ثالث طريقا وسطا بين الدعوة والحرب بما يتناسب وظروفه الخاصة ، لأن هـذه الأساليب والأشكال على اختلافها تضع نصب أعينها هدفا واحـدا هو السعى من أجل اقامة نظام الله فى الحياة بشكل كامل . أما أن يعتبر البعض هذا الاختلاف الشكلى تضادا وتناقضا فى الغرض من بعثة الأنبياء ، فلعمر الحق أنه لبهتان وزور على الله كبير هيهات أن نلقى له نظيرا مماثلا .

وكذا الأمر فى الجواب الثالث ، فقد يعتقد المسلمون فى عصرنا هذا أن ما طلبه الله من الانسان هو أداء بعض طقوس العبادة ، واتباع طرق معينة فى الغسل والطهارة وبعض الحدود الخاصة بالحلال والحرام لا اكثر ولا اقل . فالله لم يطالبه بأبعد من هذا كالبحث مثلا فيما اذا كان يسير فى حياته وفق قانون الله ، أم يتبع قوانين شياطين الانس والجن التى تسيطر على ارضه تعالى .

لكن هذاالجواب مهما كان باعثا على الاطمئنان والراحة النفسية فى صدور عشاق الدنيا المعاصرين ، ومهما كان صادرا عن فهمهم «للدين يسر» و ((**وما جعل الله عليكم فى الدين من حرج**)) ، فقد اخترعوا وابتدعوا به الوانا من التساهل والتهاون . وعلى اى حال فان هذاالتصور يتنافى ومعنى « **العبدية** » ومفهومها . فقد لا يوجد شىء أكثر سخرية واضحاكا من تصور « **العبدية** » أن يبقى العبد عبدا ساعتين فقط فى الأربع وعشرين ساعة ، ويعيش فيما تبقى من يومه حرا طليقا . او ان تنتهى « عبديته » بانتهاء تكبيره وتعظيمه لسيده ، ويصبح بعد ذلك طليق العنان فى سائر امور حياته يصرفها كيف شاء وفق نظام من صنعه أو من صنع الآخرين .

ان الاله الذى لا يمكن الاعتراف به الها هو ذلك الذى يقرر انه رب

الانسان وخالقه ثم يرضى ان يدع هذا الانسان يحدد الوهيته وحاكميته
ويحصرها فى نطاق ضيق غير مهم فمامن والد يرضى بأن تتحدد ابوته على
ابنه فى حيز ضيق بحيث ما ان يؤدى الابن له مراسم الطاعة حتى يكون قد
وفى بمقتضيات الأبوة ويصبح حراً فى ان يختار له اى أب يشاء . كذلك ما من
زوج يرضى بأن تنحصر صفته الزوجيـــة بالنسبة لزوجته فى آدائها له
فروض الطاعة وبعدها تختار من يروق لها على وجه الأرض زوجا . كما
ان اى حاكم لا يرضى ان تنكمش سلطاته على رعاياه فيعترفون به حاكما
فى الاحتفالات والمناسبات الرسمية واذا ما انفضوا من حضرته اتخذ كل
منهم ما يهواه من قوانين واطاع ما يشاؤه من احكام .

فكيف بهذا الاله وقد خلق الناس اجمعين وهو القاهر المسيطر فوقهم
جميعا، ومع ذلك يرضى بتضييق الانسان حدود سيادته ونفوذه وألوهيته
عليه ، ويقبل منه بعض الشعائر ويترك له الحبل على الغارب ليكون عبدا
لمن يشاء .. ابيقى الها بعد هذا ؟

فاذا كانت هذه التصورات المتعلقة بالدين والنبوة والعبدية تصورات
ناقصة ، واذا كان دين الله المرسل الى الانسان يستولى فعلا على جماع
حياته الجماعية والفردية على السواء ، واذا كان مايطلبه الله من عبيده هو
اتباع قانونه واحكامه فى كل صغيرة وكبيرة واذا كان الله قد ارسل رسله
من اجل الدعوة لاقامة نظام الحياة على الحق والسعى فى ســبيل اقامته
اعتمادا على طاعة اله واحد ، فان اى انسان طبيعى يصعب عليه التسليم
بأن سيدنا يوسف وحده من دون انبياء الله كان نموذجا شاذا فبدلا من ان
يسعى لاقامة « دين الله » خدم فى وزارة المالية فى ظل « دين الملك » . كما
ان اى شخص طبيعى لا يمكن ايضا ان يوفق بين امرين متضادين هما :
ان النبى عليه الصلاة والسلام كان ينادى بالجهاد لاقامـــة دين الحق فى
مجتمع العرب غير الاسلامى ، ثم اذا به يرى أن نظام الحبشة غير الاسلامى
كان على الحق بحيث يمكن ان يكون مكانامناسبا لاقامة جماعة اسلامية .

ان الذين لا يرون الدين نظاما للفكر متناســقا عقلا ، بل يعتبرونه أجزاء
متناثرة من مجموعة مفككة الأوصال لارابط بينها، يسهل عليهم أن يفصصوا
احــكام القرآن وتعاليم الدين واوامره قطعــا قطعا ليخترعوا تفسيرات
وتأويلات لحياة الأنبياء تتناقض فيما بينها تناقضا جد صريح .

ولكن بما ان هذا الدين نظام مرتب مترابط الأواصر متسق الأجزاء من
صنع حكيم عليم فليس للناظرين فيه مندوحة من ان يفسروا كل جزء او
جانب منه بما ينسجم ومزاجه العام . ولا احد يقبل مثل هذا التفسير
الذى ينم عن وجود تناقض وتضارب فى تعاليم هذا الدين وفى أعمال الأنبياء
عليهم السلام ، حتى ولو كان صادرا عن اكابر العلماء واجلتهم .

الخطأ فى الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام :

لو تدبرنا قصة سيدنايوسف عليه السلام كما وردت فى القرآن، لعلمنا انه صار ـ قبل تشريفه بالنبوة ـ مملوكا لعزيز مصر بسبب غدر اخوته وخيانة احدى القوافل التجارية ، وفى هذه الاثناء او بعدها ـ حين دخل السجن ـ حباه الله مقام النبوة ، وغالبا ما تشرف به فى الفترة التى عاشها فى السجن ، لأن كلامه قبلها لم يكن ذا طابع رسولى بل كان يبدو كلام رجل صالح .

حينئذ علا شأنه فطفق يدعو لرسالته وما أمر به بين رفاق السجن . وخلاصة دعوته موضحة فى سورة يوسف التى قراها اى انسان اليوم لراى انها ما كانت دعوة لعبادة ارباب متفرقين بل لعبادة رب واحد ، ولطالما ظل عليه السلام يبين لأهل مصر ان ذلك الملك الذى اتخذتموه ربا ليس بربى لكن ربى هو الله ، وله العبادة خالصة ، واننى اتبع دينه وشرعته .

ولقد ظهرت هذه الدعوة التى كان يبلغها فى السجن فى صورة علامات غير قليلة تدل على تدينه وتقواه وحكمته وبصيرته . وتأثر بها ملك مصر تأثرا كبيراجعله يشعر ان لو طلب يوسف عليه السلام كافة السلطات منه لتنازل له عنها واعطاه اياها . فكان أمام يوسف عليه السلام طريقان : الأول ان يختار للثورة الاسلامية طريق الدعوة العامة والصراع والعمليات الحربية الطويلة المدى ، وهو الطريق الذى يختاره النبى فى الظروف العامة . والثانى ان يستغل وضعه الذى وصل اليه بقدرة الله ، وان يتقلد السلطات التى نالها من الملك الذى آمن به ، ثم يجتهد بعد ذلك فى قلب نظام الفكر والأخلاق والمجتمع والسياسة . وقد أعطاه الله بصيرة نافذة استطاع بها أن يرى الطريق الثانى اقرب الى هدفه وانفع فاختاره .

فلم يكن عليه السلام يعمل فى ذلك النظام غير الاسلامى من اجل حصوله على عيشه وقوت يومه ، أو بهدف الجاه والمجد الشخصى ، أو تحقيقا لبعض مصالح النظام الفاسد وانما كان عمله تدبيرا وسلوكا خاصا اختير لتحقيق الهدف الذى بعث من اجله مثله فى ذلك مثل كل الأنبياء .

ان الذين فهموا سلوكه على انه مجرد « وظيفة » ، وظنوا ان يوسف عليه السلام لم يكن له شأن باقامة النظام الاسلامى ، وان غرضه الذى كان يجهد لتحقيقه كان تدعيم النظام الكافر الذى تقلد فيه وزارة المالية ، انما يعتبرون يوسف عليه السلام موظفا كغيره من موظفى الحكومة آنذاك ، بل حتى لم يجعلوا مقامه كمقام واحد من الوزراء المعاصرين ـ وكلكم يعرف سلوكهم ـ ان تأكدوا من عدم جدوى الوزارة فى تحقيق هدفهم (حرية

البلاد) (١) رفضوا حتى مجرد التفكير فى قبولها وتقلدها وان قبلوها ثم اكتشفوا ان جوهر السلطة الفعلية لم ينتقل اليهم تركوها ونأوا عنها .

ان المهم ليس السؤال عما اذا كانت سلطات ملك مصر قد طلبت منه أم انتزعت غصبا أو عما اذا كان يوسف قد عزل فرعون مصر بعد وصوله الى السلطة أم تركه على عرش البـــلاد وانما السؤال الذى له الاهمية الأولى : هل طلب سيدنا يوسف هـــذا المنصب لتدعيم واقرار النظام الكافر ؟ أم لتحقيق هدف بعثته وهو اقامة النظام الاسلامى ؟ ثم السؤال الذى يليه فى الأهمية : هل حصل سيدنا يوسف على سلطات تمكنه من قلب نظام الحكم وتبديله ام لا ؟ وفى رأينا ان التصور الصحيح الكامل عن الدين والنبوة يتطلب ان نفهم أن الغرض من طلب يوسف عليه الســـلام **« اجعلنى على خزائن الأرض »** يوسف ٥٥ ، هو اقامة النظام الاســـلامى وان مراده من المطالبـــة بخزائن الأرض كان توليه كافة مصـــادر ومقـــاليد البلاد .

واذا كان صاحب الاعتراض ومن حذوا حذوه قد فهموا **« خزائن »** على انها الشئون المالية فان هذا اللفظ لم يستخدم فى القرآن الكريم فى هذا المعنى ومن يقرأ القرآن يعرف ان معناه هو المنابع والمقاليد (٢) .

وبديهى ان استقرار كافة اسس ومصادر بلد ما فى يد شخص لايختلف فى معناه عن كون هذاالشخص متصرفا فى كل صغيرة وكبيرة فيها، بل هما معنيان منطبقان تمام الانطباق . وتصديق هذا ما جاء فى التوراة عن قصة يوسف عليه السلام ، اذ توضح بصراحة أن فرعون مصر ظل اسما فقط على حين انضوت كل شئون البلاد تحت امر يوسف وسلطته (٣) .

وتبقى الآن الدعوى القائلة ان دين الملك ظل باقيا بعد وصول يوسف عليه السلام الى الحكم كما هو واضح من الآية **« ما كان لياخذ اخاه فى دين الملك »** يوسف ٧٦ .

واول امر ينبغى ان يرسخ فى الأذهان بخصوص هذه الآية هو انها فهمت بطريقة خطأ ، فقد فهمها معظم النـــاس على ان يوسف ما كان ليستطيع اخذ اخيه فى دين الملك ، على حين معناها الصحيح انه لم يكن يتناسب ومقام يوسف ان يأخذ اخاه فى دين الملك .

---

(١) كتب استاذنا المودودى هذا وقت كانت الهند خاضعة لنفوذ الاستعمار الانجليزى وكانت الوزارات التى تتشكل آنذاك ترمى الى تحقيق حرية الهند كهدف اساسى لها — المترجم

(٢) انظر مثلا آية « ولله خزائن السماوات والارض » المنافقون ٧ وآية « وان من شىء الا عندنا خزائنه » الحجر ٢١ وآية « ام عندهم خزائن ربك » الطور ٣٧ وآية « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم » غافر ٤٩ .

(٣) تقول التوراة فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام :

وقد جاء فى القرآن الكريم ما يضارع هذا التعبير ، وما يفهم منه هو عدم المعقولية والتناسب لا عدم القدرة .

فمثلا يقول تعالى ((**وما كان الله ليطلعكم على الغيب**)) آل عمران ١٧٩ فليس معناها أن الله لا يستطيع أن يطلعكم على الغيب ، بل معناها أنه ليس من طبيعة الله أن يطلعكم على الغيب ومثلها آية ((**ماكان الله ليضيع ايمانكم**)) البقرة ١٤٣ وآية ((**فما كان الله ليظلمهم**)) التوبة ٧٠ وآية ((**ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه**)) آل عمران ١٧٩ . فليس معنى هذه الآيات عدم قدرة الله على فعل الشيء وانما معناها ان ذات الله ليس من طبيعتها الظلم او اضاعة الايمان او الخلط بين المؤمنين والمنافقين . وفى سورة يوسف نفسها تقول الآية ٣٨ ((**ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء**)) فهى لا تعنى اننا لا نقدر على ان نشرك بالله شيئا ، بل طبيعتنا وشأننا ليس أن نشرك بالله شيئا . ومن ثم فتفسير الآية موضع البحث بأن يوسف عليه السلام كان راضيا عن العمل بقانون الملك ((**دين الملك**)) ، ولم يكن فى مقدوره القبض على أخيه بمقتضاه تفسير سقيم غير صحيح . وتفسيرها الصحيح من واقع استعمالات القرآن لهذا التعبير هو انه لم يكن يتناسب وشأن يوسف أن يأخذ أخاه فى دين الملك . وهذه الآية تثبت بالطبع أن قانون العقوبات غير الاسلامى ظل نافذا فى البلاد طيلة سبعةاعوام او ثمانية (حتى مجيء أخوة يوسف الى مصر) بالرغم من وجود سيدنا يوسف على راس السلطة . وقد اسلفنا الحديث فى هذه النقطة وقلنا أن نظام المجتمع فى اى بلد لا يمكن تغييره بين عشية وضحاها . كما أن الظن بأن الثورة الاسلامية سوف تقلب كافة قوانين الجاهلية ورسومها دفعة واحدة بمجرد تمكنها من السلطة ظن خاطىء . بل ان الرسول نفسه أمضى عشرة أعوام

« فقال فرعون لعبيده هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله ثم قال فروعون ليوسف بعد ما اعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك أنت تكون بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى الا أن الكرسى أكون فيه أعظم منك ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على أرض مصر وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف والبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب فى عنقه واركبه مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا وجعله على كل أرض مصر وقال فرعون ليوسف أنا فرعون فبدونك لا يرفع انسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر » .

التكوين ٤١ من ٣٨ ـ ٤٤

وتوضيح الفقرة التى تعلو الخط أن فرعون آمن بيوسف عليه السلام أو على الاقل أوشك على الايمان به فى أول لقاء بينهما ثم بعد مرور سبع أو ثمانى سنوات أتى اخوه يوسف الى مصر فقال لهم يوسف :

« فالآن ليس أنتم ارسلتمونى الى هنا بل الله وهو قد جعلنى أبا لفرعون وسيدا لكل بيته ومتسلطا على كل أرض مصر أسرعوا وأصعدوا الى أبى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف قد جعلنى الله سيدا لكل مصر » .

التكوين ٤٥ \ ٨ ـ ٩

كاملة فى تغيير نظام المجتمع فى عصره ، وعلى هـــذا الأساس بقيت قوانين العقوبات وبعض من القوانين الأخرى نافذة فى عصر حكومة يوسف عليه السلام لبضع سنوات ـ وليس لنا ان نستنتج من هذا انه عليه السلام لم يكن يضع امام عينيه تطبيق القوانين الالهية بحذافيرها، وانه كان يرغب فى اقرار القوانين الكافرة : وحدها فى البلاد .

الخطأ فى الاستدلال بهجرة الحبشة :

ينبغى على قبل ان اختم هذا الباب ان القى نظرة على موضوع هجرة الحبشة . والطريقة التى تروى بها احداث هذه الهجرة هى ان الرسول عليه الصلاة والسلام ارسل الى الحبشة ـ وكانت عليها آنذاك حكومة غير اسلامية ـ جماعة من المسلمين كى يكونوا من رعاياها ، فأطاع هـــؤلاء الصحابة الكرام ملك الحبشة غيرالمسلم لحصولهم تحت حكمه على حريتهم فى العبادة واصبحوا مخلصين له اوفياء حتى انهم دعوا له بالفوز والتوفيق والنصر عندما شن احد الملوك المجاورين حربا عليه .

بيد ان هذه الوقائع فهمت فهما خاطئا .

فأولا : ان الرسول عليه الصلاة والسلام ارسل جماعة من المسلمين الى الحبشة آنذاك لانه كان يعـلم ان النجاشى من النصارى الصالحين . ويروى فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال لهم عن الحبشة « وهى ارض صدق » .

ثانيا : ان الغرض من ارسال المهاجرين الى هناك لم يكن تحولهم الى رعايا لدولة الحبشة فالرسول عليه الصلاة والسلام حين تشاور معهم فى امر الهجرة قال لهم :

« لو خرجتم الى الحبشة حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا » ، وهـــذا يوضح انه راى ان يجنبهم تحمل مزيد من القساوات والمصائب فى تلك المرحلة من مراحل نضالهم وكانوا قد لاقوا الونا من الذل والاضطهاد قبلها، فأرسلهم لفترة عارضة الى مكان لا يتوقع فيه مثل هذه المصائب ، وكان قصده ان يعودوا بعدان تهدا الاحوالويصبح الجوملائما مناسبا . فكيف يمكن ان نستنتج من هذاان حصول المسلمين على حرية العقيدة والعبادة فى ظل حكومة غير اسلامية يكفى لان يكونوا رعايا اوفياء لهذه الحكومة ، ولا شئ عليهم اكثر من هذا ؟

ثالثا : لما وصل المهاجرون الى الحبشة ، وارسل الكفار وفدا يطلب من النجاشى اعادتهم ، وحاوره سيدنا جعفر لم يصدق النجاشى ـ طبقا

لرواية المحدثين وفقهاء السيرة – ما ورد فى القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام فحسب ، بل اقر ايضا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . فأى شك بعد ذلك فى اسلام النجاشى ؟ .

وقد نقل الامام أحمد عن عبد الله بن مسعود الذى كان شاهد عيان فى هذه الواقعة قول النجاشى « مرحبا بكم وبمن جئتم من عنـــده أشهد انه رسول الله وانه الذى نجد فى الانجيل وانه الرسول الذى بشر به عيسى بن مريم » فهل تصدر هذه الألفاظ عن انسان غير مسلم ؟ .

ويروى البيهقى عن عمرو بن العاص – وكان قد أرسل من قبل كفار مكة لاعادة المهاجرين أنه قدم لأهل مكة تقريرا عن الموضوع بعدعودته من الحبشة فقـــال : « ان أصحمة (١) يزعم أن صاحبكم نبى » . فكيف يعترف انسان بنبوة محمد ولا يكون مسلما ؟ .

وقد روى ابن هشام فى سيرته قصة اســلام عمرو بن العاص التى توضح أن دعوة النجاشى هى أول ما أدخل الايمان فى قلبــــه وانه بايع بالاسلام على يد النجاشى قبل صلح الحديبية . وما قاله النجاشى لعمروبن العاص فى هذا هو « أطعنى واتبعه فانه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده » .

كذلك نقل ابن عبد البر فى كتابه « الاستيعاب » الخطبة التى استقرأها النجاشى أم حبيبة عند تزويجها للنبى غيابيا ومنها « أشهد أن محمـــدا رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم » .

واكثر من هـــذا استنادا ووثوقا ، الرواية التى جاءت فى صحيحى البخارى ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الغائب عندما تلقى نبأ وفاة النجاشى فقال :

« مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة » .
وبهذا ينهدم الرأى الذى يتخذ من هجرة الحبشة دليلا على امكان حياة جماعة من المسلمين فى ظل نظام كافر .

---

(١) اسم نجاشى الحبشة – المترجم .

الباب الثانى

فلسفة القرآن السياسية

الفصل الأول

تصورات القرآن السياسية

تمهيـــد :

ان علم السياسة فى أصله هو دراسة مشكـــلة العلاقة بين الفـرد والدولة . وثمة أسئلة اساسية تشكل اركانه الرئيسية هى :

١ — ما هى ضرورة الحكومة ؟

٢ — لمن الحاكمية العليا فى الدولة ؟

٣ — ما هى مبادىء الطاعة واصولها ؟

٤ — ما هى اهداف الحكومة ومهامها الأساسية ؟

وعلى الصفحات التالية اجابة هذه الأسئلة من خلال القرآن . ولما كان ضروريا لفهم تصورات القرآن السياسية أن نعرض وجهة نظره بالنسبة لمقـــام الانسان فى الكون والتصور الكامل لحيـــاته ، لذا سنوضح بعض الحقائق الأساسية فى تصـــور الاسلام عن الحياة ثم نتبعها بتصـــورات القرآن السياسية .

(١)

بعض الحقائق الأساسية

يتحتم على الباحث فى القرآن — قبل كل شىء — ان يقف على أصله ؛ سواء آمن به ام لم يؤمن . ولفهم هذا الكتاب لا بد من التسليم بأساسه الذى بينه بنفسه او من اتى به (اى محمد عليه الصلاة والسلام) وهو :

١ — ان الله العالم — وهو خالق الكون كله ومالكه وحاكمه — خلق الانسان فى جزء من مملكته اسمه « الأرض » ، واعطاه القدرة على المعرفة والتفكير والفهم ، ومنحه ملكة التمييز بين الخير والشر ، ووهب

حرية الاختيار والارادة . او بمعنى اجمالى اعطاه الحرية الشخصية والاستقلال الذاتى ثم جعله خليفته .

٢ ـ ان اله العالم حين عين الانسان فى هذا المنصب ، اقر فى ذهنه اننى مالكك ومالك العالم اجمع، ومعبودك وحاكم الدنيا بأسرها ، فلا انت مستقل بذاتك تماما فى مملكتى ، ولا انت عبد لاى شىء آخر سواى، ولا احد حقيق بطاعتك وعبوديتك وعبادتك غيرى ، وان هذه الحياة الدنيا التى منحتك وامنحك فيها السلطان والقوة والنفوذ ، ان هى الا فترة اختبار تعود بعدها الى فاقيم عملك وافصـل فيه ، وارى اى الأعمال وفقت فيها وايها فشلت فى القيـام بها ، وان الطريق الصواب هو ان تؤمن بى معبودا فردا صمدا ، وتتبع القـانون الذى ارسله اليك فى دنياك ، وتنظر الى الدنيـا على انها دار امتحان ، وتعيش حياتك بهدف النجاح والتوفيق يوم الدينونة والفصل فى الآخرة . وان الطريق الخاطىء الضال هـو ما يخالف هذا . فان اخترت الطريق الأول ـ وانت حر فى هذا الاختيار ـ لنلت فى دنياك الامن والراحة والسعادة ، ولمنحتك حين تأتى الى بعد الحساب منزل الراحة والسعادة الأبدية واسمه « الجنـة » وان اخترت الطريق الثانى ـ وانت حر فى اختياره ايضا ـ لتجرعت كأس البوار والضياع فى دنياك ، ثم تتركها لتأتينى فى الآخـرة فالقى بك فى هاوية الألم والعذاب المخلد واسمها « جهنم » .

٣ ـ ان الله تعالى ـ بعدان افهم الانسان هذا ـ انزله الى الأرض، واعطى اول افراد من نوعه (آدم وحواء) القانون الذى يعملون وذريتهم بمقتضاه ، فهؤلاء الآدميين الأوائل لم يخلقوا فى ظلمة وجهالة ، وانما اضاء تعالى بداية حياتهم على الأرض ، فعلموا الحقيقة والهداية ، ولقنوا قانون حياتهم . وكان أسلوب عيشهم الاسلام اى طاعة الله والتسليم المطلق لقانونه . وهم بدورهم علموا أولادهم وذريتهم أن يكونوا طائعين لله مسلمين .

ثم ما لبث الانسان بعد قرون من التدرج ان انحرف عن جادة السبيل ، وضل عن طريق الحياة القويم (الدين) ، وسار فى دروب ومسالك وطرق ضالة عرجة بسبب غفلته ، ثم مسخ الدين وحرفـه بدافع من الشرور والآثام ، وجعـل مع الله شركاء فى الألوهية من سائر موجودات السماء والأرض ، الانسانية وغير الانسانية ، المادية منها والخيالية ، ثم خلط علم الحقيقة الذى حبـاه الله ، بالأوهام والنظريات والشعبذات والفلسفات ، وابتدع طرائق وأديان لا عد لها وحاد عن مبادىء الشريعة العادلة التى اقرها الله وشرعها ليخترع

الحياة قوانين وقواعد تتفق ورغبات نفسه الجامحة ومزاجه السقيم نجم عنها ان طوى الظلام ارض الله وافقها .

٤ — ان الله تعالى — وهو الذى منح الانسان حرية ذاتية محدودة لم يفرض عليه مهما ان يتدخل فى شئون خلقه ، ويوجه من انحرفوا من بنى الانسان عن جادة الطريق الى الوجهة القويمة قهرا وقسرا بحد السيف ، كما انه تعالى لم يفرض مع فترة العمل الدنيوى التى حددها لمختلف اقوام بنى الانسان ضرورة ان يؤدى ما يظهر فيها من عصيان وبغى بحياة الانسان جميعه .

ومع اقراره تعالى بحرية الانسان فى الأرض ، قطع على نفسه عهدا منذ بدء الخليقة ان يرسل قوانين وهدايات ترشد الانسان فى فترة عمله الدنيوى ومن ثم بدأ يصطفى بعضا من بنى الانسان ممن آمنوا به واتبعوا رضوانه ، فجعلهم نوابه وممثليه وارسلهم برسالاته وحباهم علم الحقيقة ، واعطاهم قانون الحياة الصحيح الشرعى ، وامرهم ان يدعوا بنى الانسان كى يعودوا الى الطريق القويم الذى حادوا عنه وتنكبوه .

٥ — ان هؤلاء الرسل ظهروا فى مختلف الشعوب والأمم ، وامتد ظهورهم وتعاقبهم فى سلسلة استغرقت آلاف السنين ، وانهم بعثوا الى آلاف من البشر ، وكان دينهم جميعا واحدا هو الطريق الصحيح الذى هدى الله الانسان السير فيه واتباعه منذ اول يوم ، وأنهم اتبعوا جميعا قوانين بعينها هى قوانين الاخلاق والمجتمع الخالدة الأبدية التى شرعت خصيصا للانسان منذ الوهلة الأولى من حياته — كذلك كانت مهمتهم مهمة واحدة هى دعوة بنى الانسان لاتباع هذا الدين وهذاالقانون ، ثم تكوين امة منظمة ممن يقبلون هذه الدعوة ويؤمنون بها كى تتبع قانون الله ، وتكافح من اجل تطبيقه وتنفيذه فى ارض الله . ومنع اقامة وتطبيق ما سواه من شرائع وقوانين . وقد ادى كل نبى مهمته فى عصره بنجاح . ولكن حدث ان ظل كثير من الناس لم يؤمنوا بدعوتهم وان انحرف عنها أولئك الذين آمنوا بها واصبحوا امة مسلمة حتى ان ضل بعضهم عن القوانين الالهية تماما ، وحرف البعض الاخر كلام خالقهم وتعاليمه وقوانينه .

٦ — ان الله تعالى بعث اخيرا محمدا عليه الصلاة والسلام فى بلاد العرب ليقوم بنفس المهمة التى جاء من اجلها الانبياء السابقون ، مخاطبا بنى الانسان كلهم . بمافيهم اولئك الذين تنكبوا طريق الأنبياء السابقين ونكصوا عنه . وكانت مهمته دعوتهم جميعا الى الطريق

القويم ، وتبليغهم من جديد قانون الله وشرعته ، وتكوين امة ممن يؤمنون بهذه الدعوة لتقيم نظام حياتها وفق قانون الله من ناحية ، وتكافح وتجاهد من أجل اصلاح العالم كله من ناحية اخرى . وكتاب هذه الدعوة هو القرآن الذى انزله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢)

تصور الاسلام عن الحياة

يبين القرآن نظريته الكاملة بخصوص حياة الانسان ومنزلته اللائقة المناسبة فى آية واحدة فيقول :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والأنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

التوبة ١١١

لقد عبر فى هذه الآية عن الايمان — وهو أمر بين العبد وربه — بلفظ « البيع » . وهذا يعنى أن الايمان ليس عقيدة غيبية ، وانما معاهدة يبيع العبد بمقتضاها نفسه وماله لله مقابل رضاه بوعد الله أن يعطيه الجنة فى الحياة الأخرى بعد الموت . ولكى نفهم أسرار هذا القول لا بد وأن نقف أولا على حقيقة « البيع » المذكور .

ولو نظرنا الى الحقيقة الأصلية وهى أن الله وحده مالك روح الانسان وماله لأنه هو وحده خالقه وخالق كافة الموجودات وهو الذى منحه كل مايتحكم فيه ويسيطر عليه ، لرأينا أن ليس ثمةماينم عن وجود مايقتضيه البيع والشراء ، لا عما يملكه الانسان ويبيعه لله ، ولا عما هو خارج عن ملكية الله ويبغى تعالى شراءه . وانما ثمة شىء واحد موجود فى داخل الانسان حباه الله اياه وجعل له التصرف المطلق فيه الا وهو حرية الارادة والاختيار .

غير أن حقيقة الأمر لم تتغير بحصول الانسان على هذه الحرية . فقط كل ما حدث هو أن أصبح الانسان حرا فى أن يؤمن بالحقيقة آنفة الذكر أو يرفضها ، وبعبارة اخرى ادق واوضح ليس معنى نيل الانسان هذه الحرية انه أضحى مالكا لنفسه وقواه العقلية والبدنية ، متصرفا فى قدراته

وطاقاته التى حصلها فى الدنيا ، وان له الحق فى استعمالها كيف شاء ، بل معناه حصوله على الحرية فى الايمان او الكفر بحقوق ملكية الله اروحه ونفسه وماله وسائر ما يتعلق به ، وانعدام ملكيته الذاتية لنفسه وزعمه عدم احتياجه الى الله وانه طليق العنان يتصرف كيف شاء فى حدود قوته وسلطته . وهنا فقط يظهر تصور البيع .

ولا يعنى هذا البيع فى الحقيقة ان الله يريد ان يشترى ما عند الانسان وانما يعنى ان الله يطالب الانسان أن يسلم برضا منه ورغبة بأن هذه الأشياء التى وضعتها امانة لديك ، واعطيتك الحرية فى ان تكون امينا عليها او خائنا لها ، هى اشيائى وممتلكاتى وانك لست المالك الحر فى الحياة بأسرها ، بل انك قبلت التصرف فيها بأمانة ، اما الخيانة التى اعطيتك أيضا حرية ممارستها وفعلها ، فعليك أن تتخلى عنها وتتركها من تلقاء نفسك . وعلى هذا فان بعتلى حريتك الشخصية فى هذه الحياة العارضة وهى ما اعطيتها انا لك وليست ابداعك وصنعك — فلسوف اعطيك الجنة فى الحياة الآخرة الأبدية ثمنا لها . ومن يرض بأن يبيع لله هذا البيع فهو مؤمن اذ الايمان هو المرادف للبيع . اما من يرفض هذا البيع ، أو يعترف به لكنه يختار سلوكا لايتمه وينجزه فهو كافر . والهرب من هذا البيع بذاته كفر صريح .

تلك كانت حقيقة البيع ولنفصل مضامينه ومعانيه فيما يلى :

١ — ان الله تعالى وضع الانسان فى امتحانين كبيرين اولهما هل يثبت الانسان عظمته بعد ان اعطى الحرية ويعترف به مالكا وحيدا فردا ، ولا يعصى له امرا ام لا . وثانيهما هل يثق فى ربه ثقة ان يقبض ثمنها نقدا فى هذه الحياة الدنيا بل فى الحياة الآخرة بعد الموت والذى وعده الله بدفعه له لقاء ان يبيع حريته الذاتية ومتعته برضا منه وسرور ؟ .

٢ — ان القانون الفقهى الذى يقوم عليه المجتمع ينص على ان الايمان هو الاقرار ببعض العقائد ، وهيهات لأى قاض شرعى أن يحكم على الانسان بالكفر او الخروج عن الدين ما لم يثبت لديه بالدليل القاطع بطلان هذا الاقرار .

لكن مقياس الايمان عند الله هو ان يبيع له العبد حريته فى الفكر والعمل والا يدعى ملكيته لنفسه وروحه . فلو ان انسانا اقر بكلمة الاسلام ونطق بها واتبع احكام الصلاة والزكاة وغيرها لكنه اعتبر نفسه مالكا لروحه وجسده وقلبه وعقله وقواه البدنية وماله وموارده واسبابه وسلطته ونفوذه ، وآمن بشخصه متصرفا فى هذه الأشياء

كلها بحرية مطلقة كيفما يشير به مزاجه وهواه ، فقد يعتبر مؤمنا في الدنيا فقط لكنه لن يكون مؤمنا عند الله بكل تأكيد لانه لم يتعامل معه منذ البداية بمقتضى معاهـــدة البيع التى تعنى حقيقة الايمان الاساسية فى نظر القرآن . فالندم والأسف على بذل الروح والمـال حيث يكون رضا الله ، وبذلهما فيما لا يرضيه هما سلوكان يحددان تحديداً قاطعا لا شبهة فيه أن مدعى الايمان لم يبيع لله روحه وماله ، او انه لايزال يعتبر هذا الشىء المباع ملكه على الرغم من قبوله معاهدة البيع وتوقيعها.

٣ ــ ان حقيقة الايمان هذه تفرق تماما من الالف الى الياء بين طريقـة الحياة الاسلامية وطريقة الحياة الكافرة والمســلم الذى يؤمن بالله ايمانا صادقا صحيحا هو الذى يعمل فى سائر مجالات حياته ابتغاء مرضاة الله ، ولا يشعر بحريته الشخصية واستقلاله الذاتى فى اى امر من امــورها اللهم الا ــ اذا اعتــرته غفلة عارضــــة فتغيب عن وعيه وذهنه نصوص معاهدة البيع التى عقـــدها مع الله . وحال الجماعة التى تتآلف المؤمنين الا تتحرر من اتباع قانون الله والعمـل بما يرضيه لتختار فى حياتها اية فلسفة سياسية او اى طريق ثقافى وحضارى ، او منهاج اقتصادى واجتماعى ، أو خط دولى الا ما فيه رضا الله واذا ما اعترتها غفلة عارضة واختارت شيئا من هذا فانها لا تفيق من غفوتها الا حين تلقى وراء ظهرها بما اتخــذته من منهج اساسه الحرية والانطلاق وتؤوب الى الطريق الذى تشكل العبودية لله أساسه وبنيته .

ان التخلى عن مرضاة الله والتحرر من قانونه وسلطته ثم الفصل فى شئون النفس وعلاقاتها وفق المزاج والهـــوى لهو منهج كافر واسلوب ضال ، سواء سمى من يتبعونه مسلمين أم غير مسلمين .

٤ ــ ان معاهدة البيع هذه تنص على ضرورة اتباع الانسان رضا ربه الذى أوضحه الله بنفسه وبينه لا الذى يتصوره الانسان ويقرره . اما ان يقرر الانسان شيئا من تلقاء ذاته ، ويزعم أن رضا الله يكمن فيه ثم يسير عليه ويتبعه فهذا ليس اتباعا لرضا الله بل اتباعا لرضا الانسان ذاته ، وهو خلاف صريح واكيد لما تضمنته معاهدة البيع . ان من يستلهم منهاج حياته من الكتاب والسنة هو وحده الذى ينفذ معاهدة البيع المبرمة مع الله سواء كان فردا ام جماعة .

هذه هى تفاصيل ماتحتويه بنود معاهدة البيع ، فاذا مافهمناها جيدا وجدناها تنطق بذاتها بالسبب الذى من اجله جعل دفع ثمن البيع (الجنة) مؤجلا الى نهاية الحياة الدنيوية . وليكن واضحا أن الجنــة ليست ثمنا

لاقرار البائع ببيعه نفسه وماله لله ، بل ثمن العمل عينه وهو الا يتصرف البائع خلال حياته الدنيوية بحرية مطلقة فى الشيء المباع ، وانما يتصرف فيه بما يرضى الله بعد ان أصبح حفيظا على امانة الله عنده ، ومن ثم يتحقق البيع بشكل تام بانتهاء حياة البائع الدنيوية وحين يثبت وفاءه الفعلى العملى بشروط البيع وفق نصوص المعاهدة وبنودها حتى آخر رمق فى حياته اما قبل ذلك فلا يستحق ان ينال ثمن البيع وقيمته .

ولقد ورد فيما تقدم ذكر اولئك الذين اقروا بالايمان شفاهة واذا ما واتتهم ادنى فرصة لاختبار معدنهم رايناهم يبخلون بالتضحية بأوقاتهم واموالهم وارواحهم ومصالحهم فى سبيل الله ودينه اما بسبب التهاون والتساهل ، واما بدافع من قلة الاخلاص او النفاق ، ومن ثم يتضح بعد عرض طريقة المؤمنين اسما والمؤمنين حقا ان ما تقرون به من ايمان ليس مجرد الاعتراف بوجود الله ووحدانيته ، وانما هو فى الحقيقة الاقرار بأن الله وحده مالك انفسكم واموالكم فان اقررتم بهذا ثم هربتم من التضحية بأموالكم وانفسكم فى سبيل اقامة حكم الله ، ورحتم تستخدمون قواكم وقدراتكم خلافا لما حدده الله وعينه فهذا دليل حى على زيف اقراركم وبطلانه . والمؤمنون الصادقون هم الذين يبيعون اموالهم وانفسهم لله فعلا ، ويعترفون به مالكا وحيدا لها ، ويضحون بها حيث يأمرهم بلا حرص او تحسر ، اما حيث لا يأمرهم به الله فلا يقبلون بذل ادنى طاقة من نفوسهم او انفاق أصغر جزء من اموالهم .

وقد وجهت اعتراضات جمة على ان هذا الوعد الذى ورد ذكره لا يوجد فى الانجيل والتوراه . فاما بالنسبة للانجيل فلا اساس لهذه الاعتراضات من الصحة لأن الاناجيل الموجودة الآن تحوى آيات تعبر عن نفس المعنى مثل :

« طوبى للمطرودين من اجل البر لان لهم ملكوت السماوات »

متى ٥ : ١٠

« من وجد حياته يضيعها ومن اضاع حياته من أجلى يجدها »

متى ١٠ : ٣٩

« وكل من ترك بيوتا او اخوة او اخوات او ابا او اما او امراة او اولادا او حقول من اجل اسمى يأخذها مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية » .

متى ١٩ : ٢٩

اما التوراة التى بين ايدينا فتخلو من وجود هذا المضمون كما تخلو من تصور الحياة بعد الموت ويوم الحساب والجزاء والعقاب الأخروى بالرغم من ان هذه العقيدة ظلت دائما جزءا لا ينفك من الدين الحق . بيد

اننا لا نستطيع ان نجزم بخلو التوراة الاصلية من هـــذه التصورات ، فالحقيقة ان اليهود فى زمن انحطاطهم عبـدوا المادة وزينة الحياة الدنيـا حتى انهم كانوا لا يرون للنعمة اى معنى سوى ما يتحقق منها فى الحيـاة الدنيوية ، ولهذا جعلوا جزاء الطاعة والعبادة والعبدية فى كتاب الله نعما مادية كثيرة تنالها ايديهم فى حياتهم الدنيا ، وربطوا تصور الجنة وتعريفها بارض فلسطين التى كانوا يتمنونها . ومع ذلك تضم التوراة المعاصرة عديدا من الفقرات التى تؤيد ما نحن بصدده نذكر منها على سبيل المثال :

« اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد فتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك »

التثنية ٦ : ٤ ـ ٥

« اليس هو اباك ومقتنيك هو عملك وانشاك »

التثنية ٣٢ : ٦

لكن جزاء التعلق بالله الذى تذكره التوراة هو انك سوف تصبح مالك ذلك البلد الذى تأكل منه اللبن والشهد ـ يعنى فلســطين ـ والسبب الاصلى فى هذا ان التوراة الحالية ليست كاملة ، كمـا انهـا لا تضم بين صفحاتها كلام الله الخالص بل عديدا من التفاسير المتداخلة المختلطة بكلام الله . وقد جعل اليهـود منها سجلا يحفظ رواياتهم القومية وعصبياتهم الجنسية واوهامهم ورغباتهم وامانيهم واخطاء فهمهم وجزءا من اجتهاداتهم الفقهية مخلوطة بقليل من كلام الله حتى ليصعب فى اكثر المواضع تمييز الكلام الاصلى مما زيد عليه وتداخل معه .

(٣)

الدين والقـــانون

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رافة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »

النور ٢

ان اول شيء ينبغى الالتفات اليه فى هذه الآية أن قانون العقوبات فيها يسمى دين الله . كذلك تبين هذه الآية أن الدين ليس مجرد الصلاة والصوم والحج والزكاة انما هو ايضا قانون البلاد ، واقامة الدين لا تعنى اقامة الصلاة فقط بل تعنى اقامة قانون الله وشرعته كذلك . فان رفض والقى به خلف الظهور واختير قانون غيره فهذا لا يعنى سـوى رفض دين الله ذاته .

(٤)

ضرورة الحكومة واهميتها

« وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صـدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا »

الاسراء ٨٠

يعنى ان تعطينى السلطة ، او تسخر لى حكومة تنصرنى وتشد من ازرى حتى اتمكن بسلطانها وقوتها من تقويم اعوجاج الدنيا وايقاف تدفق طوفان الفواحش والمعاصى ، وتنفيذ قانون عدالتك .

هذا هو تفسير الحسن البصرى وقتادة لهذه الآية ، وقد اورده كل من ابن جرير وابن كثير وهما من أجلة المفسرين ، وأيداه بما ورد فى الأثر « ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » أى أن الله يكف بقوة الحكومة ما لم يكف ويمنع بالقرآن . وهذا يبين أن الاصلاح الذى يبغيه الاسلام فى الدنيا لا يتأتى بالوعظ والارشاد فقط ، وانما تلزم قوة سياسية لتنفيذه وتحقيقه فاذا علمنا ان الله تعالى لقن نبيه بنفسه هذاالدعاء لتأكد لنا على وجه اليقين ان الجهاد فى سبيل الحصول على الحكومة من اجل تطبيق الشريعة الآلهية واقامة الدين وتنفيذ حدود الله ليس جائزا فحسب ، بل مطلوبا ومندوبا ، وان اولئك الذين يرون فى ذلك طلبا للدنيا وعبادة لها يخطئون خطأ كبيرا . فان كان طلب الحكومة لذاتها وللاغراض الشخصية عبادة للدنيا وحبا ، فان طلبها لاقامة دين الله هو عين عبادة الله وحبه .

وهذا ما نراه فى اسوة سيدنا يوسف عليه السلام ، فالثورة الاخلاقية والاصلاحية التى كان يدعو اليها ويرجوها لم يكن لتحقيقها مناص من قوة السلطة ، وحين اتاحت الظروف له فرصة الوصول اليها ، اهتبلها واسس حكومة اسلامية .

يقول القرآن فى هذا :

« وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم »

يوسف ٥٤ ـ ٥٥

ولو تدبرنا ما تقوله السورة قبل هذه الآية لبان لنا ان طلب يوسف هذا لم يكن من قبيل طلب المناصب الذى يقتنص فرصته من يريدون الحظوة والجاه ـ نعوذ بالله ـ اذا ما لمحوا بادرة رضا من جانب الملك او السلطان ، وانما كان فى الحقيقة آخر وسيلة تمكنه من فتح مفاليق الباب الذى يدلف منه الى طريق الثورة . فلقد ظل يوسف عليه السلام ردحا قبل ذلك ـ يظهر دماثة أخلاقه ويؤكد حسن سيرته وسلوكه حتى ان الباب لم يعد فى احتياج لأكثر من دفعة خفيفة يصبح بعدها مفتوحا على مصراعيه لقد مر يوسف بسلسلة من الاختبارات لم تكن طى الكتمان بل كان الجميع على علم بها ، ابتداء من الملك ذاته حتى عامة الشعب المصرى بما فيهم الأطفال والصبية ، واثبت فيها الا نظير له فى الأمانة والصدق والحلم وضبط النفس والعفة والذكاء والفراسة واستكناه الأمور وفهمها مما جعل ملامح شخصيته له بشكل لم يبق لأحد معه ادنى حجة فى رفضها . وشهدت له الألسنة بذلك ، فخضعت له القلوب واستسلم له الملك نفسه. فكونه حفيظا عليما لم يكن مجرد ادعاء بل كان حقيقة ثابتة آمن بها الجميع، واصبح استيلاؤه على السلطة يحتاج الى شئ يسير هو مدى قبوله ورضاه عن توليه سلطات الحكم التى اقر الملك وكباررجالات الدولة باستحالة وجود من هو أكثر منه صلاحية واهلية لها ، فأكمل بنفسه هذا النقص. حتى اذا ما خرجت هذه المطالبة على لسانه قبلها الملك على الفور ووافق عليها مجلسه ، لأن يوسف عليه السلام كان على يقين من ان ثمار دعوته قد اينعت وحان قطافها ، وما كان ينتظر سوى اشارة البدء فقط .

ويحدثنا التلمود ان اسناد سلطات الحكومة الى يوسف لم يكن بموافقة الملك وحده وانما كان ايضا بموافقة كل اعضاء مجلسه ، فماذا كانت تلك السلطات التى طلبها يوسف واسندت اليه ؟ هذا هو السؤال الأول .

وما ان راى جهلاء القوم لفظ « خزائن الارض » ، ثم ذكر تقسيم الغلال

فيما بعد حتى حسبوها وظيفة مسئول الخزانة او المالية ، او لعلها وظيفة مشرف على شئون المجاعة او التموين ، غير ان التوراة والتلمود والقرآن يتفقون جميعا على ان سيدنا يوسف عليه السلام اصبح الحاكم العام والسلطان المطلق على مصر . فيقول القرآن ان يوسف كان على العرش حين جاء يعقوب عليه السلام الى ارض مصر **« ورفع أبويه على العرش »** (يوسف ١٠٠) . ونقل لنا ايضا قول يوسف **« رب قد آتيتنى من الملك »** (يوسف ١٠١). وعندما اختفى مكيال يوسف عليه السلام سماه الموظف الرسمى الذى اذن فى الناس بضياعه وفقدانه « مكيال الملك » **« قالوا نفقد صواع الملك »** يوسف ٧٢ ويوضح تعالى سلطة يوسف على مصر ونوعيتها فيقول **« يتبوأ منها حيث يشاء »** يوسف ٥٦ .

اما التوراة فتقول ان فرعون مصر قال ليوسف :

> « انت تكون على بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى الا ان الكرسى اكون فيه اعظم منك ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل ارض مصر .. فبدونك لا يرفع انسان يده ولا رجله فى كل ارض مصر ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنيح (١) » .
>
> التكوين ٤١ : ٤٠ — ٤٥

كذلك يقول التلمود انه لما عاد اخوة يوسف من مصر وصفوا لوالدهم حاكم مصر فقالوا :

« ان سلطته فوق الجميع من سكان بلاده فوق الخارجين على حكمه والداخلين فيه وكلامه نافذ على كل البلاد ولايلزمه الحصول على اذن من فرعون فى اى امر (٢) » .

والسؤال الثانى : ما هو الغرض الذى من اجله طلب يوسف عليه السلام السلطة ؟ هل هو تنفيذ قوانين كافرة فى نظام حكومة كافرة ؟ ام كان عليه السلام يضع امامه نظرية لقلب نظام المجتمع الأخلاقى والسياسى الى النظام الاسلامى بعدحصوله على السلطة؟

ولعل خير جواب على هذا السؤال ما اورده الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » اذ يقول :

---

(١) كلمة صفنات بالعبرية تعنى اللغز او الشفرة وكلمة فعنيح معناها المفسر وصفنات فعنيح يعنى مفسر اللغز . — المترجم .

(٢) ليس هذا هو النص الاصلى لكنى ترجمته عن الاردية لعدم وجود نسخة عربية من التلمود بين يدى — المترجم .

« وانما قال ذلك (يعنى « اجعلنى على خزائن الارض ») ليتوصل الى امضاء احكام الله تعالى واقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لاجله بعث الأنبياء الى العباد ولعلمه ان احدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا » .

ان هذا السؤال يثير فى الحقيقة سؤال آخر اكثر اهمية واصالة هو : هل كان يوسف عليه السلام رسولا ام لا ؟ واذا كان رسولا . فهل رسالته كما جاءت فى القرآن تشير الى ان الداعية الى الاسلام يخدم بنفسه فى نظام كافر ويعمل على تطبيق قوانين كافرة ؟ ولا ينتهى هذا السؤال عند هذا الحد وانما يتقرر عليه سؤال آخر اكثر اهمية هو : هل كان يوسف عليه السلام صادقا ام لا ؟ فان كان صادقا فهل من شأن الانسان الصادق ان يبدا دعوته فى السجن بقوله **« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار»** يوسف ٣٩ . ويظل يبين لأهل مصر ان ملكهم واحد من هذه الآلهة التى صنعوها بأنفسهم ، ولا يألوا جهدا فى شرح عقيدة مهمته الأساسية قائلا **« ان الحكم الا لله »** يوسف ٤٠ ، ثم مايلبث اذا حان وقت الاختبار العملى ان يتحول الى خادم لهذاالنظام بل ومحافظ عليه وحام له وهو النظام الذى كان يقوم على ربوبية ملك مصر ، وكانت نظريته الأساسية أن الحكم ليس لله بل للملك ؟

والحق ان المسلمين فى دور الانحطاط قداظهروا فى تفسير هذا الأمر عقلية طالما اختص بها اليهود دائما ، فقد كان اليهود اذا ما سقطوا فى الانحطاط العقلى والأخلاقى امتدت أيديهم الى سير العظماء ممن كانوا يلقنون الانسانية دروس العظمة فى عصور التاريخ الخوالى ، واخذوا ينقصون من منزلتهم ومكانتهم حتى يجدوا عذرا وتبريرا لانحطاطهم .

وللأسف الشديد سار المسلمون على نهجهم ، فقد كانوا يتبعون حكومات كافرة ، وحين رأوا ــ وهم فى هذا الانحطاط ــ رفعة الاسلام وعظمة قادته انتابهم الشعور بالحياء والخجل . ومن أجل أن ينقشع عنهم الخجل والحياء ، ولكى تستريح ضمائرهم وتهدأ ، تناولوا حياة هذا الرسول العظيم وصوروه على انه كان يغوص فى أعماق الكفر والضلال وهو الذى ظلت حياته تلقنهم ان لو وجد فى اى بلد على وجه المسكونة رجل مؤمن صادق الايمان على خلق حميد دمث وفراسة وحكمة بارعة ، لاستطاع بمفرده ان يحدث ثورة اسلامية عن طريق قوة أخلاقه وحكمته ، وان قوة المؤمن الأخلاقية فى مقدورها فتح الممالك وتسخير البلدان دون جيوش او اسلحة او معدات بشرط ان يعرف كيف يستخدمها ويحدد الهدف من استخدامها واستغلالها .

ـ تصور الحاكمية والخلافة ـ

ان تصور الاسلام عن الحاكمية واضح لا تشـوبه شائبة فهو ينص على ان الله وحده خالق الكون وحاكمه الأعلى ، وان السلطة العليا المطلقة له وحده ، أما الانسان فهو خليفة هـذا الحاكم الأعلى ونائبه ، والنظـام السياسى لا بد وأن يكون تابعا للحاكم الأعلى ، ومهمة الخليفة تطبيق قانون الحاكم الأعلى فى كل شىء ، وادارة النظام السياسى طبقا لأحكامه .

(ا) « يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبـدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا الله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولـكن أكثر الناس لا يعلمون »

يوسف ٣٩ ـ ٤٠

هذا بعض من كلام سيدنا يوسف عليه السلام . وهو من ابلغ وافضل الكلام فى التوحيد والحاكمية الالهية ، ففيه يعرض نقطة البداية فى الدين، ومنه يبين طريق اهل الحق مستقلا منفصلا عن طريق أهل الباطل ، وفيه يتضح الفرق بين التوحيد والشرك . ويبسط يوسف عليه السلام فى كلماته هذا الفرق بطريقة معقولة لا يصعب فهمها على اى عقـل عادى لا سيما اولئك الذين كان يخاطبهم عليه السلام آنذاك . فقد كانت عباراته وكلماته تنزل على قلوبهم وعقولهم فتؤثر فيها تأثيرا قـويا لأنهم كانوا يحترفون الخدمـة والعبودية لغير الله ومن ثم كانوا يدركون ويشعرون من اعماق قلوبهم ونفوسهم اى الأمرين أفضل : خدمة سيد ورب واحد ، أم سادة وارباب كثيرين ، واى النوعين اصوب وأفضل عبوديتهم لرب العالم كله ، أم عبوديتهم لعباده المخلوقين . ان يوسف عليه السلام لم يقل لهم اتركوا دينكم وادخلوا فى دينى وانما كان يخاطبهم فى بيان عجيب مؤثر ان انظروا منة الله علينا وفضله اذ خلقنا عبيدا له وحده ولم يجعلنا عبيدا لأحد سواه ولكن الناس لايحمدون له فضله ومنته بل يجحدون كرمه ونعمته، ويتخذون من دونه اربـابا متعددين يقرون بعبـوديتهم لهم ، ويخضعون انفسـهم لسلطانهم . ثم بدأ عليه السلام فى نقد دين اهل زمانه بمعقولية تامة ودون ادنى ذرة من خيانة او مرض فى القلب والفؤاد . ولم يكتف بأن بين لهم ان تلك الآلهـة التى تعبدونها وتدعـون بعضها رب النعمة ومالك الأرض ، وتعترفون ، بالآخر واهبا للثروة متصرفا فى الصحة والمرض وغيره ، ان هم جميعا الا اسماء فارغة جوفاء ما انزل الله بها من سلطان ، وليست لها اية حاكمية او الوهية او ربوبية او ملكية . انما المالك الحقيقى الوحيد هو الله

الذى تؤمنون به خالقا للكون وربا . وهو سبحانه لم يؤت احدا منهم سلطانا او سندا يمارس به على الناس ربوبية وسيادة وحاكمية ، بل اختص ذاته وحدها بكافة حقوق الحكم وسلطاته ، وامركم الا تعبدوا الا اياه .

(ب) **« وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى »**

القصص ٣٨

ما كان فرعون يقصد بعبارته هذه ان يقول للناس انى خالقكم وخالق الأرض والسماء لأن هذا القول لا يجرى الاعلى لسان معتوه فاقد العقل . كذلك ما كان يقصد ان يخبرهم الا معبود لكم غـيرى لأن ديانة المصريين آنذاك كانت تقول بآلهة متعددة ، بل أن فرعون نفسه منح درجة الألوهية ومنزلتها على أساس قبول الناس له واعترافهم به ظلا لاله الشمس، وأكبر شهادة على هذا اعتراف القرآن بأن فرعون نفسه كان يعبد آلهة متعددة.

ولو تدبرنا وضع فرعون فى ضوء ما سبق ، لوجدناه لا يختلف عن وضع هذه الحكومات التى تحللت من شريعة الله التى نزل بها الرسـول ، وراحت تدعى لنفسها الحاكمية والسيادة القانونية سواء جعلت الحاكم أم الشعب مصدرا للقانون والتشريع ، ورضيت به صاحب الأمر والنهى فى بقعة من أرض الله . فطالما أن هذه الحكومات قد اختارت أن يسرى على البلاد حكمها وقانونها لا حكم الله وشريعة رسوله ، فليس هناك أدنى فرق بين موقفها وموقف فرعون . ومن عجب أن نرى الناس اليـوم يصبون لعناتهم على فرعون ثم يرضون بهذه الحكومات ويشكلون سند شرعيتها ومصدرها .

ان من يزن الحقائق بميزان العقل ، وينظر الى روحها وجوهرها لا الى اسمائها واصطلاحاتها لن يرى فرقا بين الموقفين سوى أن فرعون استخدم لنفسه لفظ « اله » وهذه الحكومات استخدمت اصـطلاح « الحاكمية » وهما اسمان لحقيقة واحدة .

(جـ) **« الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقـدره تقديرا »**

الفرقان ٢

ان لفظ « ملك » المسـتعمل فى هذه الآية يطلق فى اللغـة العربية على الملكية والسلطة العليا والحاكمية . ومعنى هذا أن الله تعالى وحده حاكم الكون المطلق ، وليس لأى فرد قيد ذرة من سلطات الحكم . وهذا يتطلب بالتالى الا يكون المعبود احدا سواه ، ومن ثم فمن يتخذه الها معبودا انما

يتخذه بعد ان ادرك وفهم ان لديه وحده القدرة على النفع والضر، وانه يؤثر فى مقدراتنا بالخير والشر ، وان اتخاذ الموجودات عديمة القدرة والتأثير ملجا وملاذا لا يصدر حتى من اكثر الناس حماقة ـ اذ لو علم أن ليس فى الكون قوى قهار قادر سوى الله لرفض ان يحنى راسه فى عجز وعوز وحاجةلغيره تعالى ، ولاعرض عن تقديم النذور بين يدى احد سواه، ولعقد لسانه ومنعه من ترتيل اناشيد الحمد والثناء او الدعاء والتضرع والالتجاء الا له وحده ولما صدرت عن اى جاهل فى الدنيا حماقة ان يؤدى فروض الولاء والطاعة والعبادة لأحد غير الهه الحقيقى اوان يقبل احدا يدعى لنفسه حق الحكم .

ولتاكيد هذا المعنى تأمل قوله تعالى فى الآية السابقة **« الذى له ملك السماوات والأرض »** .

(د) **« لله ما فى السماوات وما فى الأرض وان تبدوا مافى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمـن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير »**

البقرة ٢٨٤

لو امعنا النظر فى هذه الآية لاتضح لنا أن أول اساس من اسس الدين هو الايمان بحاكمية الله فهو مالك السماوات والاراضين ، وكل ما فيهم ملك له وحده ، وأن طاعة الله طاعة مطلقة تعد حقيقة اساسية لا يحق للانسان أن يتخذ اسلوبا للعمل سواها .

كذلك تعرض هذه الآية تصور الحساب ومبادىء المسئولية الشخصية وهى ان كل فرد يسأل أمام الله ويحاسب بذاته الفـــردية ، وأن حاكم السماوات والأرض وملكها ـ الذى يحاسب الانسان امامه ـ هو عالم الغيب والشهادة الذى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل حتى مما يدور فى القلوب ويتردد بين الصدور .

وآخر ما نجده فى هذه الآية هو بيان سلطة الله المطلقة . فما من احـــد استن له سبحانه قانونا ليعمل بمقتضاه ويسير عليه جبرا ، وانما هو الحاكم الحر الذى له السلطة المطلقة اللانهائية فى اصدار العفو او توقيع العقـوبة والجزاء .

(هـ) **« ومصدقا لما بين يدى من التـوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقـــوا الله واطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هـــذا صراط مستقيم »** .

آل عمران ٥٠ ـ ٥١

واضح من هذه الآية أن دعوة سيدنا عيسى عليه السلام تقوم على مبادىء اساسية ثلاثة مثلها كمثل دعوة سائر الأنبياء :

الأول : أن السلطة العليا التى على الانسان أن يخضع لها ويطيعها ويقر بعبوديته لها ، والتى يتأسس على طاعتها النظام الكامل للاخلاق والمجتمع والحضارة هى سلطة الله وحده وينبغى التسليم بها وقبولها على هذا الأساس .

الثانى : حتمية طاعة أمر النبى وحكمه بوصفه ممثلا ونائبا عن السلطان الأعلى والحاكم العام المطلق .

الثالث : أن القانون المحكم الذى يقرر التحليل والتحريم فى كل ميادين الحياة الانسانية هو قانون الله وحده الذى ينسخ كل القوانين الأخرى المقحمة فى حياة الانسان المفروضة عليها .

وعلى هذا فليس بين مهمة سيدنا عيسى وسيدنا موسى وسيدنا محمد وبين مهمة غيرهم من الأنبياء عليهم السلام قيد شعرة من فرق أو اختلاف، وقد أخطأ الذين يرون لكل نبى مهمة خاصة ويفرقون بينهم فى الهدف والنوعية .

ان من يرسل من عند الله الى رعية الله لا يمكن أن يكون هدفه شيئا سوى منعهم من حكمهم المطلق لأنفسهم والتصرف فى حياتهم بما تقتضيه حريتهم الذاتية ، ومن شركهم بالله (أى أن يشركوا مع مالك الملك اناسا آخرين فى السلطة العليا ، ويقسموا بينهم وبين الله مختلف العبادات والطاعات) ودعوتهم لعبادة المالك الحقيقى عبادة خالصة وطاعة مطلقة .

ومن أسف أن ما بين أيدينا من اناجيل لا توضح مهمة المسيح عليه السلام كما أوضحها القرآن حتى اننا نجد هذه المبادىء الثلاثة فى صورة لمحات مبعثرة متفرقة مقسمة فيما بينها . فمثلا قول المسيح بعبادة الله وحده تتضح فى الفاظه :

« للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد »

متى ٤ : ١٠

ولم يكن المسيح عليه السلام يدعو لذلك وكفى بل كان الهدف من كل جهاده أن يطاع حكم الله الشرعى فى الأرض كما هو مطاع فى السماء .

« ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض »

متى ٦ : ١٠

اما وضع المسيح عليه السلام كنبى ممثل لمملكة السماء ونائب عنها ودعوته الناس الى طاعتها بوصفه نائبا عمن فيها فتبدو جلية من اقواله العديدة . فحين بدا دعوته فى مدينة « الناصرة » وطنه ، اعلن اهلها كلهم مخالفته وعصيانه ، وهنا تتفق روايات متى ومرقس ولوقا على انه قال : «ليس نبى مقبولا فى وطنه» (١) . ولما بداوا يدبرون امر قتله فى «اورشليم» واشار عليه الناس بالرحيل الى مكان آخر قال لهم :

« لا يمكن ان يهلك نبى خارجا عن اورشليم »

لوقا ١٣ : ٣٣

وحينما كان يدخل « اورشليم » للمرة الأخيرة صاح تلاميذه :

« مبارك الملك الآتى باسم الرب »

لوقا ١٨ : ٣٨

عندئذ لم يرض علماء اليهود عن ذلك وطالبوه ان يسكت تلاميذه فقال :

« ان سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ »

لوقا ١٨ : ٤٠

كما قال فى موضع آخر :

« تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وانا أريحكم احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم لان نيرى هين وحملى خفيف »

متى ١١ : ٢٨ — ٣٠

اما ان المسيح عليه السلام كان يريد ان تطاع قوانين الله بدلا من القوانين الوضعية التى عملها الانسان بنفسه فان انجيلى متى ومرقس يوضحان هذا الامر ويشرحانه شرحا وافيا خلاصته ان علماء اليهود اعترضوا قائلين ان تلاميذك يخالفون روايات الاحبار لانهم لا يغسلون ايديهم حين يأكلون فقال لهم :

« فقد ابطلتم وصية الله بسبب تقليدكم يا مراءون حسنا تنبا عنكم اشعياء قائلا يقترب الى هذا الشعب بفمه ويكرمنى بشفتيه واما قلبه فمبتعد عنى بعيدا وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا للناس »

«لانكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس غسل الأباريق

متى ١٥ : ٦ — ٩

(١) انظر لوقا ١٤ : ٢٤ ، متى ١٣ : ٥٧ ، مرقص ٦ : ٤ — المترجم

والكؤوس واموراً اخرى كثيرة مثل هذه تفعلون ثم قال لهم حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم لان موسى قال اكرم اباك وامك ومن يشتم اباً او اماً فليمت موتاً واما انتم فتقولون ان قال انسان لابيه اوامه قربان اى هدية هو الذى تنتفع به منى فلا تدعونه فيما بعد يفعل شيئا لأبيه وامه مبطلين كلام الله بتقليدكم الذى سلمتموه واموراً كثيرة مثل هذه تفعلون »

مرقس ٧ : ٨ ـ ١٣

(و) **« ان ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .**

الأعراف ٥٤

ان تفصيل كيفية استواء الله على العرش امر شاق بالنسبة لنا . فمن الجائز جدا ان يكون الله تعالى قد اقر مكانا لمركز مملكته اللانهائية ـ وذلك بعد خلق الكون ـ وركز تجلياته فيه . وسماه العرش حيث يفيض منه الوجود والقوة على سائر العالم ، ويدبر منه الأمر وينفذ الحكم . ويجوز ايضا ان يكون المراد بالعرش سلطة الحكم ، والمراد بتمكنه واستوائه عليه انه احتفظ بزمام مملكة الكون فى يديه بعد أن خلقها وسواها .

على اى حال فتفصيل معنى الاستواء على العرش ايا كان ، انما الفرض من ذكره فى القرآن ان يستقر فى ذهن الانسان ان الله ليس هو خالق الكون فحسب ، بل هو ايضا مدبر امره ، وانه سبحانه وتعالى لم يستقر فى مكان بعينه بعد أن فرغ من خلق العالم وانما هو مستمر فى اجراء حكمه وممارسته بالفعل على الدنيا بأسرها من أصغر امر الى اعظم واجل شأن فيها ، فسلطات الحكم والسيادة والسيطرة بين يديه فعلا ، وكل شيء تابع لأمره وكل ذرة خاضعة لحكمه وقضائه ومصائر الموجودات متصلة ومرتبطة بحكمه وامره .

هكذا اراد القرآن ان يجتث جذور خطأ الفهم الأساسى الذى وقع الانسان بسببه فى متاهات الشرك وضلالات الحرية الشخصية والبغى والعصيان لأن النتيجة الحتمية للاعتقاد بانفصال الله وانقطاعه الواقعى عن تدبير شئون الكون وتنظيمه هى اما أن يعتبر الانسان مصيره رهن الآخرين مرتبطا بهم فينحنى أمامهم ويخضع ، أو أن يعتبر نفسه سيد مصيره فيحيا حرا طليقا كما يهوى ويعشق .

وثمة امر آخر تلزم ملاحظته هو ان العلاقة بين الله والمخلوق فى القرآن الكريم قد اختير لايضاحها وتبيانها من المصطلحات والالفاظ والاستعارات والبلاغات المتعلقة بالسلطنة والملكية ما يربو على مفردات لغة الانسان . فبيان القرآن جلى ظاهر حتى ان اى انسان يقرأ القرآن وهو على دراية بفهم بيانه لابد ان يدركه ويحسه ويستشعره. بيد ان عقول بعض الناقدين التافهة المخبولة استنتجت منه ان القرآن قد تم « تأليفه » فى عصر كان نظام الملكية فيه مسيطرا على ذهن الانسان وفكره مما جعل مؤلفه (وهو عند هؤلاء الظالمين محمد عليه الصلاة والسلام) يظهر الله فى صورة الملك. غير ان الحقيقة الابدية الدائمة التى يعرضها القرآن والتى تخالف هذا تماما ان الملكية فى السموات والارض هى ملكية ذات واحدة فقط ، اما الحاكمية فهى شىء خاص بهذه الذات، وان نظام الكون هذا هو نظام مركزى تام تدبر كافة السلطات فيه ذات واحدة ، ومن ثم فأى شخص او جماعة يدعى لنفسه او لغيره حاكمية كلية او جزئية فى ظل هذا النظام هو ولا ريب سادر فى الافك والزور والبهتان المبين ـ كما انه ليس ثم طريق سليم ومنهاج قويم لمن يعيشون تحت هذا النظام الا ان يؤمنوا بهذه الذات الها ومعبودا واحدا بالمعانى الدينية ، وسلطانا حاكما بالمعانى السياسية والاجتماعية .

وعبارة **« له الخلق والامر »** فى الآية السابقة تبين المعانى المجملة التى حوتها عبارة **« استوى على العرش »** . بمعنى ان الله ليس مجرد خالق فقط وانما هو حاكم كذلك وآمر . فهو قد خلق الخلق ولم يهب احدا حق تنفيذ حكمه فيهم ، ولم يخلق الناس كلهم او بعضهم فى حرية واستقلال ذاتى بحيث يفعلون ما يريدون ، وانما تدبير امر الكون الفعلى بيد الله وحده كما ان دوران الليل والنهار ليس دورانا ذاتيا وحركة آلية لكنه يجرى بأمره وحكمه يوقفه ان اراد ويغيره اذا شاء ، ولا الشمس والقمر والنجوم تملك طاقتها وقوتها بذاتها بل هى مسخرات فى يده تعالى تسخير العبيد وتجرى فيما شاءه لها من عمل .

(ز) **« ان الله يحكم ما يريد »**

المـائدة ١

يعنى ان الله هو الحاكم المطلق ، وله وحده السلطة العليا المطلقة، يحكم ما يريد وليس للعباد حق المساءلة والنقاش فى احكامه ، فجميعها مبنى على الحكمة قائم على المصلحة . والعبد المسلم لايطيع احكام الله لانه يجدها مناسبة له ملائمة لمصلحته وانما لكونها احكام هذا المالك فما حرمه الله فهو حرام لا لشىء الا لانه تعالى حرمه ، وكذا ما احله ليس لتحليله سبب آخر سوى ان مالك كل شىء قد سمح لعباده باستخدامه او فعله .

لهذا يجزم القرآن الا ضرورة لوجود أساس آخر للتحليل والتحريم غير اجازة الله للشيء أو عدم اجازته . ونفس الأمر بالنسبة للعبد فأساس اباحة الشيء له او عدم اباحته ليس الا ان ما احله الله فهو حلال وما حرمه فهو حرام .

(ح) **« ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون »**

النحل ١١٦

هذه الآية تصرح بألا حق لأحد فى التحريم والتحليل غير الله . او بعبارة اخرى ان المشرع والمقنن هو الله وحده . اما من يجترىء ويقرر للناس ما هو مشروع وما هو غير مشروع ، ويصنف لهم ما هو حلال وما هو حرام فقد تجاوز حده . اللهم الا اذ اتخذ القانون الالهى أساسا وسندا ومصدرا ثم استنبط من أحكامه ان كذا وكذا حلال جائز وكيت وكيت حرام لا يجوز اما التحليل والتحريم ، أو بمعنى أعم واشمل التشريع الذى لا يتقيد بهذا الأساس فهو كذب على الله وافتراء . ومن ثم فمن يصدر أحكاما على هذا النسق فلا محيص له من فعل أحد امرين : اما ان يحرم ويحلل دون سند من كتاب الله أو برهان ثم يدعى أن الله قد أحل هذا الشيىء او حرمه ، واما ان يزعم ان الله تنازل عن سلطته فى التحريم والتحليل ، وترك للانسان حرية التشريع لأمور حياته . وكلا الادعاءين كذب وافتراء على الله مبين .

(ط) « قل ارايتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله اذن لكم ام على الله تفترون » .

يونس ٥٩

ان كلمة « الرزق » فى اللغة العربية لايقتصر معناها على الطعام والشراب بل تعنى بوجه عام العطاء والهبة والنصيب . وكل ما من الله به على الانسان فى الدنيا فهو رزق ، حتى الأولاد رزق من الله ، فترى رجلا اسمه « رزق » أو «مرزوق» أو « رزق الله » وكلها يعنى انه معطى من الله ممنوح من عنده. وفى الدعاء المشهور « اللهم ارنا الحق وارزقنا اتباعه » ويقال « فلان رزق علما» وفى الحديث :

« ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر باربع كلمات بكتب رزقه واجله وعمله وشقى أو سعيد »

فالواضح اذن ان المقصود بالرزق ليس الطعام الذى سوف يحصل عليه الطفل الوليد فى الدنيا مستقبلا وانما كل ما يهبه الله اياه ويمنحه فيها . ويقول القرآن :

« ومما رزقناهم ينفقون »

البقرة ٣

فقصر معنى الرزق وتضييقه على الطعام والشراب ، والظن بأن الله يعترض فقط على تلك القيود والحريات التى يضعها ويختارها الناس من تلقاء انفسهم فى المآكل والمشرب خطأ جسيم غاب بسببه عن بصائر الناس واحد من مبادىء الدين الرئيسية الهامة ، ونتج عنه ان غدا التحريم والتحليل فى المأكولات والمشروبات مسألة دينية ، لكن ان يدعى الانسان حقه فى وضع القوانين التى تحكم ميادين المجتمع الأخرى الأكثر ضخامة واتساعا ، ويلقى بكتاب الله وسنة رسوله ظهريا ، ويبدأ فى التشريع بنفسه فان عامة الناس وغيرهم لا يشعرون ان هذا السلوك يتعارض مع الدين مثلما يتعارض تشريع الانسان بذاته فى مجال الاطعمة والأشربة وتحليله وتحريمه أنواعا منها دون سند من كتاب الله وسنة رسوله .

ويحنا الا نشعر بفداحة الجرم الذى نقترفه فى حق الله ورزقه ؟ واذا كان الرزق من عند الله ونحن عبيد الله من خلقه وصنعه ، فكيف نخول لانفسنا حق سن القوانين بشأن كيفية تصرف الله فى مالاكه والانتفاع بها ! ارايتم ان كان لاحدكم عبد وادعى لنفسه حق وضع الحدود على سلطات سيده وتصرفه فى ماله ، ولم ير ضرورة فى مراعاة كلام سيده ، فما قولكم فيه ؟ ولو ان لكم خادما وادعى لنفسه حرية التصرف فى بيتكم ومحتوياته فكيف تعاملونه اذن ؟ نحن لا نبحث الآن وضع ذلك العبد الذى لا يقبل اصلا ان يكون عبدا لاحد ويرفض ان يكون له سيد ويرى ان ما يتصرف فيه من مال ليس ملكا لاحد ، وانما نبحث وضع هذا العبد الذى يقبل ان يكون عبدا لاحد ، ويقر بأن المال ملك لمن هو عابد له ، ثم يزعم بعد ذلك ان لى وحدى حق وضع القوانين على التصرف فى هذا المال وليس ثمة ما يدعونى للرجوع الى سيدى والاستفسار منه .

لقد كان من الممكن ان تكونوا على صواب اذا كان « السيد » قال لكم تصرفوا فى مالى كيف شئتم فانى قد وكلت اليكم كافة حقوق وضع الضوابط والقوانين والحدود على طرق استعماله ووجوه استغلاله . فان كان قال هذا فهل لديكم دليل مادى يثبته ؟ ام انكم تدعون ذلك بغير ما سند او دليل ! وان كان لديكم الدليل فتتكرموا وتطلعونا عليه ، والا فانتم تقترفون الجرم من جرائم البغى والكذب والافتراء المبين .

(ى) « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون »

((ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون))

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون))

المائدة ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧

وقد حاول بعض المفسرين قصر هذه الآيات على اهل الكتاب لكن كلام الله لا يقبل مثل هذا التأويل . وافضل رد على زعمهم ما قاله سيدنا حذيفة رضى الله عنه حين قال له رجل ان هذه الآيات الثلاث تختص ببنى اسرائيل وحدهم . بمعنى ان من لم يحكم من اليهود بما انزل الله فهو كافر وظالم وفاسق فرد عليه حذيفة رضى الله عنه :

((نعم الأخوة لكم بنوا أسرائيل أن كانت لهم كل مرة ولكم كل حلوة كلا والله لتسلكن طريقهم قدر الشراك)) .

ان المبـدأ الأساسى للحاكمية الالهيـة الذى يردد القرآن ذكره فى كل موضع أن من ترضاه حاكما مطلقا غير الله فهو ((طاغوت)) كما أصطلح القرآن على تسميته ، وهذا ضد ((العبدية لله)) .

(ك) ((فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)) .

البقرة ٢٥٦

((والطاغوت)) فى اللغة العربية يطلق على كل من يخرج عن حده الشرعى، والمراد بالطاغوت فى اصطلاح القرآن العبد الذى يتجاوز حد عبديته ويدعى سيادة نفسه والوهيتها ، ويجعل عباد الله عبادا له ورعايا .

وتمرد العبد وعصيانه وبغيه على الله له مراتب ثلاث أولاهم ان يعترف العبد بحق الله فى الحكم بينما يمارس فى الواقع أحكاما تخالفه وهذا فسق .

وثانيتهم انه القى بحكم الله اصلا ثم صار مطلق العنان فى شئونه ، او راح يطيع ويعبد أحدا سواه وهذا كفر ، وثالثهم انه بغى على الله وطفق ينفذ قانونه وحكمه الشخصى فى ملك الله ورعيته وهذه المرتبة الأخيرة اذا وصل اليها العبـد سمى ((طاغوتا)) . ومن المستحيل أن يؤمن الانسـان ايمانا صحيحا دون أن يرفض هذا الطاغوت وينكره .

هكذا أوضحنا على الصفحات الماضيات تصور القرآن عن الحاكمية وفيه أن الانسان لاحظ له من الحاكمية اطلاقا ، وعلى هذا الأسـاس يعترف القرآن بالانسان خليفة لله فى الأرض ونائبا ، ويبين لنا ان مهمة هذا النائب الرئيسـية هى العمل فى الدنيـا طبقا لحكم مالكه وقانونه . وهـذا ما نجد اشارة اليه فى الآية :

« واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة »

البقرة ٣٠

و « خليفة » تدل لى يستخدم السلطات المفوضة اليه فى ملك احد ما بوصفه نائبا عنه . فهو ليس المالك الأصلى نفسه بل نائبه . وسلطاته ليست سلطات ذاتية وانما من عطاء المالك ولا حق للخليفة فى العمل بما يشير به هواه وما تقضى به مشيئة شخصه لكن عمله ومهمته تنفيذ مشيئة المالك ورغبته .

(٦)

مبادىء الطاعة واصولها

ان تصور الحاكمية والخلافة الذى سلف ايضاحه يتطلب – بالمنطق والفطرة – ان يكون مرجع الطاعة هو الخالق وقوانينه وشرائعه ، وان تتبع كافة الطاعات فى الدولة هذه الطاعة الأساسية . وقد بين القرآن هذه المبادىء فقال :

« يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا » .

النساء ٥٩

وتشكل هذه الآية أساس نظام الاسلام السياسى والاجتماعى والدينى كما انها حجر الزاوية القانونى فى الدولة الاسلامية والدستور الاسلامى . وفيما يلى ذكر المبادىء التى تتضمنها هذه الآية : –

١ – ان الله وحده هو المطاع الرئيسى فى النظام الاسلامى . والمسلم عبد لله اولا وقبل اى شىء ، وحكم الله وطاعته هما محور حياة المسلم الفردية ومركز نظام المسلمين الجماعى . اما بقية الطاعات الأخرى فتقبل لا لكونها ندا لطاعة الله مناظرة لها بل لكونها خاضعة لها وتابعة وكل طاعة تتعارض وهذه الطاعة الأساسية الرئيسية على الانسان ان ينزع اغلالها من اعناقه ويطيح بها بعيدا . وقد اوضح النبى عليه الصلاة والسلام هذا حين قال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

٢ – ان طاعة الرسول هى الأساس الثانى فى بنية النظام الاسلامى ، وهى ليست طاعة مستقلة براسها وانما هى الشكل العملى الوحيد لطاعة الله . والرسول مطاع لأنه مصدر موثوق به تصل الينا عن طريقة

احكام الله واوامره . ويمكننا أن نطيع الله اذا اطعنا الرسول . واى طاعة لله دون سند من الرسول وتصـــديق فلا اعتبار لها . واغفال رسول الله والاعراض عنه بغى على الله وعصيان . وهذا ما يوضحه الحديث : « من أطاعنى فقد اطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله » كما توضحه آيات القرآن توضيحا تاما .

٣ ـ تأتى بعد هاتين الطاعتين وتندرج تحتهما طاعة ثالثة يجب على المسلمين القيام بها وأداؤها فى النظام الاسلامى وهى طاعة أولى الامر وهم من المسلمين أنفسهم . ومفهوم أولى الأمر يتسع ليضم بين جنبيـه كل من يتولون مقاليد الأمور فى المجتمع ، سواء كانوا علماء مفكرين ام زعماء سياسيين ام محافظى أقاليم أم قضاة محاكم أم رؤساء مجالس مدن أو قرى أم نوابا برلمانيين . وباختصار شديد تجب طاعة كل من كان صاحب أمر بين المسلمين وكل من لا يستقيم الخلل فى حيـاة المجتمع المسلم بنزاعه ومخالفته بشرط أن يكون من المسلمين ، وان يطيع الله ورسوله . فهذان الشرطان ضروريان لهذه الطاعة بالذات. وهذا لم يأت فى الآية التى نحن بصددها فحسب وانما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام فى أحاديثه باسهاب . فلنتأمل على سبيل المثال هذه الأحاديث :

« السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

(صحيح البخارى ـ صحيح مسلم)

« لا طاعة فى معصية انما الطاعة فى المعروف »

(صحيح البخارى ـ صحيح مسلم)

« يكون عليكم أمراء تعرفون وتنكرون فمن انكر فقد برىء ومن كره فقد سلم ولكن من رضى وتابع ؟ فقالوا « أفـلا نقاتلهم » قال : لا ما صلوا » .

(صحيح مسلم)

أى أن الصلاة هو العلامة المميزة التى بها يعرف خروجه عن طاعة الله ورسوله وحينئذ يصبح جهاده أمر سديدا مستصوبا .

« شرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك قال لا ما أقاموا الصلاة فيكم .. لا ما أقاموا الصلاة فيكم » .

(صحيح مسلم)

هذه الاحاديث تبين الشرط الثالث وتوضحه . وقـد يظن من الحديث الأخير او ما قبله ان ولى الامر اذا ادى الصلاة فى حياته الفردية الخاصة فلا تجوز الثورة عليه لكن المراد باقامة الصلاة فى الحقيقة هو اقامة نظام الصلاة فى حياة المسلمين الجماعية فلا يكفى اولى الأمر ان يكونوا مصلين وانما يتحتم عليهم الى جانب هذا ان ينظموا اقامة الصلاة ويجعلونها قاعدة فى نظام حكمهم لأنها الدليل على ان حكومتهم حكومة اسلامية والا فقد انحرفت عن قالب الحكومة الاسلامية . وهذا ما يتضح فى رواية اخرى تقول ان الرسول صلوات الله وسلامه قد عاهدنا ــ من جملة ما عاهدنا به ــ أن لا ننازع الامر اهله .

« الا ان تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان »

(صحيح البخارى ــ صحيح مسلم)

٤ ــ والمبدا الرابع الذى تقرره الآية محل البحث أن حكم الله ونهج رسوله لهما وضع السلطة النهائية والقانون الرئيسى فى النظام الاسلامى . فكل ما يحدث من نزاع بين المسلمين وانفسهم ، أو بين الحكومـة والرعايا لا بد من الرجوع الى القرآن والسنة للفصل فيه . وعلى الجميع ان يذعنوا لما يصدر عنهما من حكم . وعلى هـذا فالاقرار والتسليم بكتاب الله وسنة رسوله مرجعا رئيسيا وسلطة أساسية فى كل امور الحياة ومشاكلها هـو الخاصة الضرورية الأولية فى النظام الاسلامى التى تميزه عن النظم الأخرى .

وقد يتساءل البعض عن كيفية الرجوع الى كتاب الله وسنة الرسول للفصل فى كل امور الحياة على حين لا نلقى فيهما احكام المجالس البلدية مثلا او السكك الحديدية او البريد وما اليها ، الا ان هـذا القول صادر عن عدم فهم مبادىء الدين واسسه . ان ما يميز بين الكافر والمسلم ان الكافر يدعى الحرية المطلقـة وينادى بها بينما المسلم ــ على عكس ذلك ــ يتمتع بالحرية ــ بعـد صيرورته عبدا لله ــ فى نطاق هذه الدائرة التى منحها اياه ربه . فالكافر يرى نفسه فى غير احتياج لالوهية احـد ويخضع كل شئون الحياة لقوانين وضوابط صنعها بنفسه ، بينما المسلم على عكس هذا يرجع الى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام اولا وقبل كل شىء فى كل امر وشان . فان وجد عندهما حكما نفذه ، وان لم يجد فله حرية العمل والتحرك بشرط الا يخرج عن الروح العامة . وحصوله على حرية التشريع فى بعض المجالات يرجع الى ان سكوت الشارع عن اصدار حكم فيها دليل فى حد ذاته على منحه اياه التحرك فيها .

٥ ـ كذلك تدل هذه الآيه على أن للمسلمين الحق فى ان ينازعوا اولى الأمر ، وتصفية هذا النزاع متروكة لكتاب الله وسنة رسوله . وعلى جميع الأطراف الاذعان والخضوع لما يصدر عنهما من احكام سواء كانت فى جانب أولى الامر ام فى جانب الرعايا ويقتضى تنفيذ هذه الأحكام بالطبع وجود هيئة يرفع اليها النزاع لتحكم فيه بكتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولم تجبرنا الشريعة على اختيار شكل محدد ينظم هذه الهيئة ، فلتكن مجلس علماء أو محكمة عليا او ما اليها . المهم وجود هذه الهيئة فى البلاد وتخويلها سلطات الاحتكام اليها ضد الهيئات التنفيذية والتشريعية ودوائر العدل ومؤسساته وان يكون اساس مهمتها الفصل فى القضايا والمنازعات وتوضيح الحق والباطل وفق أحكام كتاب الله وسنة رسوله .

وحيث ان القرآن ليس كتاب قانون فحسب وانما هو ايضا كتاب تعليم ووعظ وارشاد ، لذا فقد اقر فى صدر الآية التى نبحثها المبادىء والقوانين، ثم اتبعها بتبيان الحكمة والمصلحة الكامنة فيها . فنراه يبين لنا الحكمة فيما اقره فى هذه الآية فى امرين :

الأول ـ ان اتباع ما ذكر فى النقاط السابقة ضرورة يقتضيها الايمان ، ولا يمكن الجمع بين ادعاء الاسلام والانحراف عنها .

والثاني ـ ان رفعة المسلمين وعلوهم يكمن فى عمارتهم الدنيا على هذه الاسس والمبادىء وحدها ، كما انها الشىء الوحيد الذى يدفعهم فى الطريق القويم فى دنياهم وبه وحده تحسن عقباهم .

ثم يذكر القرآن فى ختام عبارته نصيحة تبصرنا بما كانت عليه حال اليهود الدينية والأخلاقية وينبه المسلمين ـ بهذه الطريقة الفريدة ـ الى ان تلك الأمة (يعنى بنى اسرائيل) قد انحرفت عن قوانين ومبادىء الدين وسقطت فى قيعان الانحطاط والدناءة فاعتبروا ايها المسلمون من امرها فان اية جماعة تلقى بكتاب الله وسنة الرسل خلف ظهرها ، وتتبع من القادة والزعماء من لا يطيعون الله ورسوله ، وتخضع وتزعن لائمة دينها وحكامها السياسيين دون أن تطالبهم بسلطة او سند من الكتاب والسنة يثبت شرعيتهم فلا مناص من وقوعها فى انحرافات ومصائب كالتى سقط فيها بنو اسرائيل ويصبح من العسير عليها ان تنجو منها وتخلص .

الفصل الثانى

معنى الخلافة

اول ما ينبغى بحثه فيما يتعلق بمعنى الخلافة ومفهومها هو ان ندرس لفظ الخلافة من الناحية اللغوية البحتة ونعرف ما اذا كان يعنى الخلافة على العرش فحسب ام يعنى كذلك النيابة والتمثيل ؟

التحقيق اللغوى :

يقول الامام راغب الأصفهانى فى مفرداته :

« والخلافة نيابة عن الغير اما لغيبة المنوب عنه واما لموته واما لعجزه واما لتشريف المستخلف » .

وقد استخدم Lane فى معجمه الشهير Arabic - English Lexicon لفظ « خليفة » بمعنى Successor « الخلف ــ الوريث » كما استخدمه كذلك بمعنى Vicegerent « النائب ــ الوكيل ــ الممثل».

وليس بالضرورى للخلافة ان يكون المنوب عنه ميتا او غير موجود . فالامام راغب يقول :

« خلف فلان فلانا قام بالأمر عنه اما معه واما بعده » . ومشتقات « خلف » تتباين خواصها وتتغير . ففى « تاج العروس » : خلفه خلافة : كان خليفته : وبقى بعده وجاء بعده . ويقول القرآن :

« فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب » الاعراف ١٦٩

« وقال موسى لاخيه هارون اخلفنى فى قومى » الاعراف ١٤٢

« قال بئسما خلفتمونى من بعدى » الاعراف ١٥٠

« ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون » الزخرف ٦٠

و « تخلف » بمعنى القعود والتاخر . قال تعالى :

« ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله » التوبة ١٢٠

و « اخلف » بمعنى اعطاء العوض عن شيء مفقود ضائع . ففى « نهاية ابن الأثير » « اخلف الله لك وعليك خيرا اى ابدلك بما ذهب عنك وعوضك عنه » .

وقال تعالى :

« وما انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »

سبأ ٣٩

وفى الحديث الشريف :

« تكفل الله للغازى ان يخلف نفقته »

و « خلف واستخلف » ففى تاج العروس « خلف فلانا اذا جعله خليفته كاستخلفه » وفى « اقرب الموارد » « استخلف » اذا لم يصرح بالمنوب عنه فمعناها جعله خليفته فيقال : « استخلف فلانا اى جعله خليفة له » ، واذا صرح بالمنوب عنه فتعنى انه جعل هذا الشخص خليفة لمن ذكر اسمه فيقال » : « استخلف فلانا من فلان اى جعله مكانه » .

ومعنى هذا ان القرآن الكريم اذا ذكر مجرد الاستخلاف دون اشارة الى المستخلف له فمعناه ان الله جعلهم خلفاء له مثل قوله : **« ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم »** النور ٥٥ واذا اشار الى المستخلف له فمعناه انه جعله خليفة مكان الآخر او بعده . أما اذا ذكر انه نحى النائب السابق وأقر مكانه نائبا آخر فان هذا القول يتضمن كلا المعنيين اى انه يعنى ان الحاكم الأعلى أقر فلانا مكان فلان ، كما يعنى انه جعل فلانا نائبه بعد فلان .

فلو قلنا مثلا : « استخلف الملك اللورد اردن » بعد اللورد « ريدنج » على ولاية الهند فمعنى هذا ان الملك قد عين اللورد « اردن » حاكما على ولاية الهند بدلا من اللورد « ريدنج » ، وكذلك انه عين اللورد « اردن » نائبا له على ولاية الهند بعد اللورد « ريدنج » . وليس بين المعنيين تضارب او تناقض يمنع انطباقهما وتحققهما فى آن واحد . اذن فمعنى الآية **« ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء »** الانعام ١٣٣ ان الله يعطى مكانكم لآخرين وكذا يجعل آخرين خلفاء له فى مكانكم . وليس ثمة ما يحول دون تحقق اى الأمرين فى احد المعنيين او كليهما من الناحية اللغوية .

و « جعله خليفة » يعنى فقط عينه خليفة ومعنى لفظ خليفة سواء قصد به « النائب » او الخلف فهو فى الحالين معنى مضاف وتمامه لا يمكن دون وجود منوب عنه عند التعبير عن المعنى الأول ، ومستخلف له عند قصد المعنى الثانى .

والوضع الذى صرح القرآن فيه بذكر المستخلف له بالاضافة الى « جعل الخليفة » وتعيينه يتضح فيه المعنى المقصود فمثلا :

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح »

الاعراف ٦٩

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم عاد »

الاعراف ٧٤

« ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »

يونس ١٤

ولكن حين لا تكون ثم اشارة صريحة الى المستخلف له نجد انفسنا مضطرين لقبول مستخلف له مقدر . فمثلا :

« يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض »

ص ٢٦

« ويجعلكم خلفاء الأرض »

النمل ٦٢

« انى جاعل فى الأرض خليفة »

البقرة ٣٠

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض »

الانعام ١٦٥

وفى هذه الآيات وما يشاكلها نرى سؤالا يطرح نفسه : لمن « يجعل » الانسان « خليفة » فى هذه الآيات ، فلو قلتم خليفة للمخلوقات السابقة او الاقوام الغابرة او الملوك الاوائل ، فيصرف النظر عما نلقاه فى هذا القول من صعوبة وغرابة ، نجده لا يتفق وبعض الآيات فمثلا فى الآية « **ويجعلكم خلفاء** الأرض » النمل ٦٢ نجد لفظ خلفاء مضافا الى لفظ « الأرض » بحيث يعنى « خلفاء الأرض ذاتها » فكيف لنا أن نستخرج منه معنى خلفاء الأمم الماضية التى كانت متمكنة فى الأرض ؟

وآية « **انى جاعل فى الأرض خليفة** » البقرة ٣٠ . لو قلتم انها تعنى انى جاعل خليفة لسكان الأرض السابقين ، قلنا ان نتساءل هل ذكر الله فى اى موضع فى القرآن اولئك السكان الذين اسندت خلافتهم الى الانسان ؟ فان كان تعالى ذكرهم فهاتوا برهانكم والا فخبرونا بالله عليكم اى المعنيين لآية « **انى جاعل فى الأرض خليفة** » اقرب الى الفهم من الناحية اللغوية والادبية المحضة .. هل انى جاعل فى الأرض خليفة لسكانها السابقين ام انى جاعل فى الأرض نائبا لى واقول لكم لو ثمة انسان يعرف اللغة العربية ولا شيء آخر ، واستمع الى هذه الآية فسيخبرنا من فوره بأى المعنيين يراد بها .

الخلافة ومعنى الحكم :

وادعوكم بعد هذا التحقيق اللغوى ان تتدبروا ما ذكرتموه بانفسكم عن معنى الخلافة . انكم ترون ان المراد بالخلافة فى الارض خلافة حكومة الأرض ومملكتها . وبعضكم يترجم ((**انى جاعل فى الارض خليفة**)) انى جاعل فى الأرض ملكا ، وعلى هذا الاساس يزعم ان آدم عليه السلام جعل خليفة من قبل من سكان الارض . فاذاكان معنى الخلافة وراثة المكان او النيابة او المجىء فى العقب ، فمن اين اتى فيها معنى الحكم والسلطان ؟ واذا كان لفظ الخلافة ذاته يخلو من وجود هذا المعنى بالفعل فمن الممكن ان يكون قد دخل فيه باعتبار ان الخليفة يخلف حاكما او سلطانا وبما ان الانسان قد نال الخلافة التى يضم معناها بين جنبيه مفهوم الحكم والسلطان وفق ما اقررتم به واعترفتم ، فلا مناص من التسليم بانه صار خليفة من كان ملكا حاكما قبله . فافيدونا افادكم الله هل ثبت من القرآن والبحث والتحقيق العلمى وجود مخلوق قبل الانسان على وجه الأرض كانت له حيثية الحاكم ؟

ان العلم والحكمة وحرية الاختيار والارادة والقدرة وغيرها من الصفات لازمة للحكم وضرورية ، وبدونها لا يمكن امضاء الحكم على الأرض وموجوداتها وقد ثبت من التحقيق العلمى أن لم يكن فوق تراب هذه الكرة الارضية مخلوقات تتصف بمثل هذه الصفات . والقرآن يؤكد هذا فيقول ان قبل وجود الانسان كان ثمة افضل خلق الله – اى الملائكة – الذين سماهم ((**عباد مكرمون**)) الانبياء ٣٦ ، وكانوا لا يدرون عن الاشياء خبرا ((**ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا**)) البقرة ٣١ – ٣٢ وكانوا محرومين مسلوبين حرية الارادة والاختيار ((**لا يعصون الله ، ما امرهم ويفعلون ، ما يؤمرون**))

التحريم ٦

أما المخلوقات الثانية قبل الانسان فكانت الجن ولم يرد بشأنهم فى القرآن ما يفهم منه انهم كانوا يحكمون فى الأرض . وتليهم الحيوانات والنباتات والجمادات التى تعرفون بالطبع امرها وطبيعتها ، فاى مخلوق تشرف الانسان بخلافته فى الأرض ؟

وحتى لو سلمنا بأن خلافة الانسان هى خلافة عمن سكنوا الارض قبله ، وانهم كانوا حكام الأرض قبل مجيئه اليها فهل كانوا حكاما بذواتهم وفى اصلهم وجوهرهم ام كانوا حكاما بالنيابة ؟

وبالطبع لاتستطيعون اختيار الأمر الأول لأن وجهةنظر العقيدة الاسلامية تقول ان الحق تعالى وحده هو الحاكم بذاته واصله ، وأن حكم سواه

الأمر الثانى فامامكم امران : اما ان اما فى حال اختياركم الأمر الثانى فامامكم امران : اما ان
موهوب وممنوح . اما فى حال اختياركم
تسلموا بسلسلة لا متناهية من حلقات الخلافة المتتابعة ، واما ان تعترفوا
بتعاقب عدد معين من الخلفاء فى منصب الخلافة وفى كلتا الحالتين ينتهى
الأمر الى ان ذات الله هى المصدر الرئيسى والمنبع الأول الأساسى . وهنا
يمكن ان يظهر فى الخلافة معنى الحاكمية والسلطان باعتبار أنها خلافة
الهية ونيابة عن الحاكم الأعلى .

اشارات القرآن :

واليكم الاشارات القرآنية التى تدل دلالة واضحة على أن هذه الخلافة
التى تشرف الانسان بها هى فى حقيقتها خلافة الهية .

يبين القرآن ان الله قد خلق الانسان فى احسن تقويم :

« لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم »

التين ٤

وقد صنعه تعالى بيديه :

« قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى »

ص ٧٥

ثم نفخ فيه من روحه :

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه »

السجدة ٩

وشرفه بنعمة العلم

« وعلم آدم الأسماء كلها »

البقرة ٣١

وسخر له كل ما فى السموات والأرض :

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه »

الجاثية ١٣

وعلاوة على كل هذا امر الله الملائكة ان تسجد له حين اكتمل خلقه .
وقد ذكر هذا الأمر فى سورة ص بشكل يقتضى الوقوف عنده وتامله بوجه
خاص . فقال تعالى :

**« اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته
ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم
اجمعون الا ابليس استكبر وكان من الكافرين قال يا ابليس**

ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى استكبرت ام كنت من العالين قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فانك رجيم »

ص ٧١ ـ ٧٧

وتوضح هذه الآيات أن صدور أمره تعالى الى الملائكة بالسجود للانسان كان بسبب صنعه اياه بيديه ، يعنى أن الانسان كان المظهر التام للقدرة والصنعة الالهية وفى داخله روح خاصـــة نفخها الله فيه بنفسه ، وخلق الصفات التى تتصف بهاذات البارى تعالى ولكن على نطاق محـــدود بالنسبة لصفات الله اللامحدودة اللا متناهية التى تفوق الكمال . ثم اعلن عز وجل بعد أن خلق الانسان على هذه الحال وبث فيه هذه انصفات ـ انه جاعله خليفة فى الأرض كما هو مذكور فى سورة البقرة . فانتاب الملائكةبعض الشك فى هذا الأمر ، فاظهر الله امامهم افضل صفة من صفات الانسان وهى العلم حتى ثبتت أهلية الانسان وصلاحيته لمنصب الخلافة ، وصدر الأمر الى الملائكة أن اعترفوا بهذه الخلافة واقبلوها واسجدوا لهذا الخليفة دليلا منكم على التسليم والاذعان . فاعترف الملائكة وســـلموا بذلك وسجدوا الا الشيطان الذى رفض قبول هذه الخلافة فطرد من الحضرة الالهية .

فما الذى يتضح من كل هذه الاشارات ؟

اظهرت افضليته على سائر المخلوقات فى مواجهة عامة ونقاء صريح . قيل له انك المظهر الأكمل لصفاتنا واننا نخفنا فيك روحا خاصة منا . وصدر الأمر الى من ؟ الى الملائكة أن اسجدوا له .. وفوق ذلك يعنى انا جاعلوه خليفة .

فهل كانت هـــذه الخلافة التى أعلنت فى وسط كل هـــذه الاستعدادات محض خلافة لساكنى الأرض الأقدمين ، واذا كان الأمر مجرد اسكان آخرين محل السكان الأولين السابقين فما الضرورة فى اعلانه أمام الملائكة؟ وما الداعى لاظهار افضليته عيـــانا أمامهم ؟ ثم لماذا أمر الملائكة بالسجود بهـــذا الساكن الجديد بالذات الذاهب ليحل محل القوم الآخرين فى الأرض ؟

المقصود بالخلافةالالهية :

والقول الثانى المذكور فى القرآن والذى يلقى الضوء على معنى الخلافة الالهية ويفسره هو :

« انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منهـــا وحملها الانســـــان انه كان ظلوما جهولا »

الاحزاب ٧٢

والمقصود بحمل الامانة فى هذه الآية حرية الاختيار والمسئولية والحساب ومعنى هذا ان لم يكن فى السماوات والأرض والجبال قبل خلق الانسان مخلوق لديه القدرة على القيام بهذا الحمل ، او قبول هذا الوضع ثم جاء الانسان وحمله . ونستخرج من هذا عدة نقاط هى :

١ ـ لم يكن فى السماوات والأرض والجبال مخلوق قبل الانسان يحمل عبء الامانة ، والانسان هو اول مخلوق يحمل هذا العبء ، ولذا فهو ليس خليفة او وريث Successor احد فى منصب حمل الأمانة .

٢ ـ ان ما يسمى فى سورة البقرة بالخلافة قد عبر عنه فى هذه الآية بالأمانة ففى الأولى اثبت للملائكة انكم لستم أهلا للخلافة وان الانسان هو الجدير بها، وفى الثانية قيل أن لم يكن فى السماوات والأرض والجبال مخلوق كفء لحمل امانتنا وتحملها الانسان وحده .

٢ ـ ان لفظ « الامانة » يوضح مفهوم « الخلافة » ومعناها ، وكلا اللفظين يلقى الضوء على وضع الانسان الصحيح وحيثيته الأصلية بالنسبة لنظام العالم ، فهو حاكم الأرض لكن حكمه لها ليس فى ذاته واصله وانما هوحكم مفوض اليه « Delegated » ومن ثم عبر الله عن سلطاته المفوضة الى الانسان « Delegateb Power » بلفظ « الامانة » وعلى هذا فمن يستخدم هذه السلطان المفوضة اليه من جانبه تعالى فقد سماه « خليفة » « Vicegerent » وطبقا لهذا الشرح اصبح معنى الخليفة هو الشخص الذى يستخدم السلطان المنوحة له من قبل شخص آخر .
« Person Exercising Delgated Power »

الباب الثالث

مبادىء الحكم فى الاسلام

الفصل الأول

مبادىء الدولة الاسلامية

(١)

هدف الحكومة الاسلامية

يرى القرآن أن هدف الحكومة هو اقامة القانون الالهى وتحقيق العدل ونشر الخير فيقول تعالى :

(ا) ((الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتو الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور))

الحج ٤١

يعنى أن صفات من يستحقون تأييد الله وعونه ونصرته أنهم اذا ما اعطوا السلطة والحكم نهجوا على اقامة الصلاة بدلا من الفسق والفجور والكبر والغرور ، وانفقوا أموالهم فى ايتاء الزكاة بدلا من صرفها فى الملذات والمتع ، وكرسوا حكومتهم لخدمة واعلاء شأو الخير لا تقويضه وذبحه والحط من قدره ، واستخدموا سلطتهم فى كف الشر وبتره والقضاء عليه لا فى نشره وازكائه .

فهذه الآية تبين وتقرر هدف الحكومة الاسلامية وخصائص عمالها وأولى الأمر فيها ، وفى مقدور اى عقل سليم أن يدرك من خلالها ماهية الحكومة الاسلامية فعلا . ولا شك ان جعل هذه الأمة داعيا الى المعروف والخير والحق وتحقيقه وانجازه فى الانسانية جمعاء على المستوى الفردى والجماعى هو ما يشكل عظمتها وشرفها وامتيازها.

(ب) ((وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا))

البقرة ١٤٣

هذا اعلان لامامة وزعامة امة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد أشير الى هذه الزعامة من وجهين : الأول هدى الله ورشده الذى هدى به اتباع محمد عليه الصلاة والسلام وعرفهم الطريق المستقيم فتقدموا فيه وارتقوا

حتى صاروا امة وسطا ، والثانى تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، وهو ما يفهمه الجهلاء على انه مجرد تحول من مكان الى آخر بينما يعنى فى الحقيقة ان الله قد عزل بنى اسرائيل من منصب الامامة وأسنده الى أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولفظ « امة وسط » يحمل فى قلبه معنى واسعا لا يؤديه أى لفظ آخر كما لا يمكن ترجمته والاتيان بنظيره . والمراد به هذه الجماعة -- وهى أعلى واشرف جماعة -- التى تقوم على طريق العدل والانصاف والتوسط ، ولها صفة « الرئاسة » وسط شعوب العالم وعلاقتها مع الجميع حق وصدق بدرجة واحدة ، وليس بينها وبين احد صلة تخالف الحق والصدق والشرعية .

ثم من جعلكم « **امة وسطا** » انما جعلكم هكذا « **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** » . فسبحانه وتعالى يعنى أن الرسول بوصفه نائبنا المسئول سيشهد عليكم -- يوم نأتى بكم جميعا لتنالوا حسابكم -- انه ابلغكم بشكل تام غير منقوص ما علمناه من فكر سليم وعمل صالح ونظام عادل ، وانه طبقه أمام أعينكم وأراكم اياه . ثم انكم ستشهدون على كافة بنى الانسان -- بوصفكم نوابا عن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام -- انكم لم تقصروا ادنى تقصير فى تبليغهم ما ابلغكم الرسول وتوضيحه وتفسيره لهم .

ان الفرد أو الجماعة التى يصدر اليها امر من الله كى تكون شاهدا من قبله على العالم ، لهى فى الحقيقة جماعة عالية القدر رفيعة الدرجة فى امامة هذه الدنيا وزعامتها . وحيث توجد الأفضلية ويعلو الشأن يتعاظم عبء المسئولية ويجسم . وهذا يعنى انه كما أصبح الرسول شاهدا حيا على هذه الأمة فى تقوى الله والاستقامة والعدالة والحق ، فلا بد من أن تصبح هذه الأمة بالتالى شاهدا حيا على العالم أجمع كى ترى الدنيا قولها وعملها وسلوكها ، وتعلم ما هى تقوى الله وما معنى الاستقامة وكيف تكون العدالة واى شىء هو الحق . كما يعنى كذلك أن علينا مسئولية وعبئا ثقيلا عظيما فى تبليغ قانون الله وهديه الى سائر البشر ، تماما كما كانت مسئولية الرسول عليه الصلاة والسلام عظيمة فى تبليغنا هذا القانون حتى انه لو قصر فى ذلك مقدار ذرة واحدة لحوسب به أمام الله . فان لم نشهد امام عدالته تعالى شهادة فعلية مدعومة بالدليل المادى اننا ماقصرنا فى تبليغ عبادك شرعتك وقانونك الذى بعثت الينا على يد رسولك ، فلسوف نؤخذ أخذ عزيز مقتدر ، ويسقط عنا شرف هذه الامامة التى أسندت الينا ، لأننا قصرنا بالفعل فى فترة تولينا زعامة العالم ، فانتشر من الضلالات الفكرية والعملية ما لا حصر له ، وظهر من الفتن والمفاسد ما عم أرض الله ، ولذا فسوف

نحشر فى زمرة ائمة الشر وشياطين الانس والجن حيث نسـال ! اين كنتم اموانا غافلين عن طوفان الضلال والظلم والمعصية الذى كان يجتاح الدنيا ويطويها تحت ابطيه ؟ .

(ج) ((**كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**))

آل عمران ١١٠

هذا هو نفس المضمون الذى بان فى الآية السابقة ، والذى يخبر الله فيه اتباع النبى العربى صلى الله عليه وسلم ان بنى اسرائيل قد عزلوا من منصب زعامة الدنيا وقيادتها نتيجة عدم كفاءتهم وصلاحيتهم لها ، وها هو يسند اليكم لانكم افضل جماعة انسانية فى العالم الآن عملا وخلقا ، وفيكم تلك الصفات الضرورية اللازمة للامامة والرئاسة العادلة الا وهى عاطفة اقامة الخير ونشره وازالة الشر وبتره ، وتسليمكم بأن الله وحده لا شريك له وانه الهكم وربكم ايمانا وعملا . لذا فقد وكلت اليكم هـذه الزعامة ، وعليكم أن تعوا مسئولياتكم وتفهموها فهما عميقا وتجتنبوا الأخطاء التى ارتكبتها الأمم الأخرى .

(د) ((**لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسـان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتـدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يعملون**)) .

المائدة ٧٨ ــ ٧٩

ان انحراف اى شعب يبدأ بانحراف بعض أفراده . فان كان ضـمير الشعب الاجتماعى واعيا يقظا لقهر الرأى العام هذه الشرذمة المنحرفةولنجى الشعب جميعه من مهالك الانحراف والبوار . أما ان تساهـل الناس وتهاونوا فى أمر المخطئين ولم يضربوا على أيديهم ، واعطوهم الحـرية ليمارسوا أخطاءهم فى كيان المجتمع ، لاتسع بالتدريج نطاق الفساد ــ الذى كان قاصرا على دائرة محدودة تضم أفرادا قلائل ــ ليعم المجتمع بأسره وينتشر فى دمـه وعروقه ، وهذا ما كان سببا فى انفراط عقـد بنى اسرائيل .

(هـ) ((**وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون**)) .

المائدة ٣٥

الحق أن لفظ ((جاهدوا)) المستخدم فى هذه الآية لا يتضح معناه تماما من بذل الجهد المجرد وحده ، اذ الجهاد يقتضى الحرب والمواجهة فالمعنى الصحيح لهذااللفظ أن جاهدوا واصرعوا بكل قواكم الممكنة تلك القوى التى

تعوق الطريق الى الله ، وتمنعكم من العمـــل بما يرضيه تعالى ، وتحاول ارجاعكم عن سبيله ، ولا تبقى عليكم عبيدا له وحده بل تكرهكم على ان تصبحوا عبيدا لها من دون الله او عبيدا لأحد آخر غيره تعالى . ونجاحكم وتوفيقكم وتقربكم الى الله يعتمد فى اساسه على هذا الجهاد .

هكذا تقرر هذه الآية للعبد المؤمن القتال على جبهـات أربع ، فابليس اللعين وجيشه الشيطانى فى جبهة ، ونفس الانسان ورغبـــاته الشريرة وشهواته الجامحة فى جبهة اخرى ، وكثير من البشر الخـــارجين على الله والعاصين اوامره الذين يرتبط الانسان بهم فى كل قسم من العـــلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى جبهة ثالثة، وفى الجبهة الرابعة كل النظم الدينية والاجتماعية والسياسية العفنة الخاطئة التى تقوم على أساس عصيان الله وتجبر الانسـان على عبادة الباطل بدلا من الحق .

واسلحة كل هذه القوات والجيوش متباينة الطرز مختلفة التشكيلات لكن هدفها واحدوجهدهاواحد أساسهجعل الانسان طائعا لهم خلافا للمحور الأساسى لرقى الانسان ورفعته وتقربه الى الله وهو كونه مطيعا لله وحده ظاهرا وباطنا . ومن ثم فوصول الانسان الى هدفه وغايته لا يمكن تحققه دون ان يقاتل كافة القوى المضادة فى آن واحد ويصرعها جميعها فى كل حين وفى اى حال وظرف ، ويسحق كل ما يقيمونه فى وجهه من عوائق وموانع ويتقدم لمواصلة المسيرة فى طريق الله .

(٢)

مزاج الحكومة الاسلامية

والحكومة الاسلامية ذات مزاج خاص ، فهى « داعية » تحاول اقامة الدين فى دائرة سلطتها كما انها تجتهد فى عرض رسالة الاسلام على الأمم الأخرى وامام اعينهم . اذن فهى « مبلغ » و « معلم » تنجز مهامها وتؤدى عملها على اسس المحبة والاخوة والشورى والرحمة والمشاركة الوجدانية . وهذا هو مزاجها الخاص .

(أ) « **ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما انت عليهم بوكيل ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم** » .

الانعام ١٠٧ ــ ١٠٨

معنى هذا انكم قد جعلتم داعين مبلغين ، لا متسلطين مسيطرين . ومهمتكم ان تضعوا هذا النور امام الناس ، ولا تألوا جهدا فى اداء واجبكم

تكلفوا بجعل الناس على الحق اجمعين ، ولم تنص المسئولية التى انيطت بكم الا يبقى فى دائرة دعوتكم احد على الباطل . فلاتجشموا انفسكم عناء فى اظهار الحق وتبليغه . فان رفضه احد ولم يقبله فله ذلك ، لانكم لم النفكير فى ان تردوا العميان مبصرين ، او ان تجعلوا من لهم عيون ولا يريدون النظر ينظرون . فلو كانت حكمة الله تبغى الا يبقى على الأرض انسان واحد على الباطل ، فأى ضرورة دعته ــ سبحانه وتعالى ــ ان يوكل اليكم انتم القيام بهذه المهمة ؟ اما كان فى مقدوره تعالى ان يجعل الناس على الحق اجمعين فى لمح البصر ؟ ولما لم يكن هذا هو المراد فى الحقيقة ، اذن فالمقصود ان ينال الانسان حرية الاختيار بين الحق والباطل ، فيوضع أمامه نور الحق ويمنحن اى الأمرين يختار ، ومن ثم فأسلوب عملكم الصحيح ان تسيروا فى هدى ما حبيتم من نور على صراطه المضىء المستقيم ، وان تدعوا الآخرين اليه . فمن يقبلوا دعوتكم اكتنفوهم وحبوهم ولا تتركوهم وتتخلوا عنهم مهما كانوا حقراء الشأن ضئال القدر فى الدنيــا . ومن لم يقبلوها فلا تكرهوهم على قبولها بل دعوهم يتبعوا ما ارادوا من سبل ضالة تقودهم الى اسوا المقاصد والأهداف .

ان النصيحة الهامة التى اسديت الى اتباع النبى عليه افضل الصــلاة والسلام الا يكونوا ضعافا فى طريق دعوتهم بحيث يتطور الأمر من المناظرة والجدل والنقاش ليصل بهم الى الهجوم على معتقدات غيرهم هجوما عنيفا والسخرية من معبوداتهم والحط من قدر ائمتهم والاستهزاء بزعمائهم ، لأن مثل هذا السلوك يقصيهم بعيدا عن الحق بدلا من ان يقربهم منه ويحببهم فيه .

(ب) ((**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتــــوكل على الله ان الله يحب المتوكلين**)) .

آل عمران ١٥٩

(جـ) ((**ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم**)) .

العنكبوت ٤٦

يعنى لابد وان يكون الجــدل بالأدلة والحجج والبراهين العقليــة ، وباللغة والالفاظ المناسبة المهذبة ، وفى روح التفهيم والتوضيح كى تستقيم أفكار من تجادلونهم . فعلى الداعية ان يفتح بفكره واسلوبه مغاليق قلب من يخاطبه ويقر فيه الحق ويستدرجه الى سبيل الحق . فهو لا يلزمه ان يكون مصارعا هدفه ان يصرع خصمه ويلقى به تحت اقدامه ، بل يجب ان

يكون كالطبيب الآسى الذى يصنع الدواء ويراعى فى كل لحظة الا يتسبب بخطأ منه فى ازدياد المريض مرضا، ويحاول جاهدا ان يطيب المريض بلا ادنى صعوبة ومشقة .

هذه القاعدة وان كانت تقررت بخصوص جدال اهل الكتاب ومناظرتهم، الا انها لا تقتصر على امر اهل الكتاب دون غيرهم وانما هى قاعدة عامة فى مجال الدعوة الى الدين ذكرت فى القرآن فى مواضع عدة مثل :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى احسن »

النحل ١٢٥

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم »

فصلت ٣٤

« ادفع بالتى هى احسن السيئة نحن أعلم بما يصفون »

المؤمنون ٩٦

« خذ العفو وامر بالمعروف واعرض عن الجاهلين واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله »

الاعراف ١٩٩ — ٢٠٠

يعنى ان فى امكاننا ان نسلك مع من يختارون منهاج الظلم وطريقه مسلكا ونهجا يختلف ونوعية ظلمهم . بمعنى انه لا ينبغى ان نسلك معهم وامثالهم سبيل الرقة واللطف واللين فى كل وقت وحال حتى لا يفهموا دماثة خلق دعاة الحق وليونتهم ورقتهم ضعفا ووهنا ومسكنة .

ان الاسلام لا بد وان يعلم اتباعه حسن الخلق والتهذيب والاتزان ، ولكنه لا يعلمهم بأى حال من الاحوال العجز والتخاذل والمسكنة فيصبحوا ضعاف الجانب فى نظر كل ظالم .

(د) **« ان فرعون علا فى الأرض وجعل اهلها شيعا »**

القصص ٤

يعنى ان اساس حكومته وعمادها لم يكن مساواة الشعب كله امام القانون او فى الحقوق وانما اختار اسلوب تفريق وتقسيم المجتمع الى جماعات ، فهؤلاء تراعى خواطرهم ويحسب لهم حساب ويعطون مزايا ويعترف بهم قادة وينصبون حكاما ، واولئك يبقون محكومين وتفمط حقوقهم وتنتهك آدميتهم وتبتلع اموالهم .

ولا يظن أحدكم ان الحكومة الاسلامية تفرق بين المسلم والذمى وانهما لا يتساويان فى ظلها فى كافة الحقوق ، لأن أساس التفريق فى الحكومة الإسلامية هو المبدأ والمنهج وليس كأساس فرعون فى التفريق الذى يعتمد على الجنس واللون واللغة والطبقة . فالمسلم والذمى فى الدولة الاسلامية لا فرق بينهما فى الحقوق القانونية على الاطلاق ، انما الفرق الوحيد بينهما هو فى الحقوق السياسية فقط . وسببه الوحيد ان الحكام فى الدولة التى تقوم على المبادىء لابد وان يكونوا ممن يؤمنون بمبادئها ويحمون قواعدها واسسها . هذه الجماعة الحاكمة يدخل تحتها كل من يؤمن بمبادئها ، ويخرج منها كل من يرفض هذه المبادىء . فأى وجه ثم لتشبيه هذا التفريق بالتفريق الفرعونى الذى يستحيل على اساسه ان ينضم اى فرد من زمرة المحكومين الى الجماعة الحاكمة ، والذى لا يحصل فيه المحكومون على حقوقهم السياسية والقانونية ولا حتى حقوق الانسان الأساسية ، والذى يخلو مما يضمن للمحكومين اى حق من حقوقهم ، وتقتصر فيه كافة المزايا والفوائد والمنافع والدرجات والمناصب والامتيازات على طبقة الحكام وحدها، ولا يحصل على هذه الحقوق والمزايا الخاصة سوى من يولد فى هذه الطبقة وينتسب اليها ؟

(هـ) **« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .**

النساء ١

لما كان الله سيوضح فيما بعد حقوق الآدميين فيما بينهم ويذكر على الخصوص القوانين الأساسية الضرورية لرقى نظام الأسرة واستحكامه ومتانته ، لذا نراه قد مهد لهذا بأمرين :

الأول التأكيد على خشية الله واتقاء غضبه ، والثانى اقرار حقيقة هامة فى ذهن الانسان وهى اتحاد كافة البشر فى أصل ودم واحد .

« خلقكم من نفس واحدة » يعنى انه خلق البشر أجمعهم من فردواحد ويشرح القرآن فى موضع آخر ان آدم كان أول انسان تفرع منه الجنس البشرى على وجه الأرض .

« وخلق منها زوجها » نحن لا نعلم تفصيل هذا الامر . وما يذكره المفسرون بوجه عام ، وما ذكر فى التوراة أيضا ان حواء خلقت من ضلع آدم . بيد ان كتاب الله قد سكت عن بيان هذا وما ورد من حديث فى تأييد هذا ليس معناه ما فهمه الناس . لهذا فمن الأفضل ان يؤخذ الآمر على اجماله الذى ذكره الله تعالى دون اضاعة الوقت فى تحديد تفاصيله التى تم عليها .

المـراد بالدين هنا تلك العقيـدة التى وردت فى حق الله فى الآية التى سبقت هذه الآية وهى آية الكرسى وما يقوم عليها من نظام كامل للحياة .

ومعنى الآية « **لا اكراه فى الدين** » ان هذا النظام العقائدى والأخلاقى والعملى لا يمكن فرضه على اى انسان بالقوة والجبر فهو ليس بالشىء الذى يحشر فى ذهن الانسان حشرا .

هكذا يتضح من الآيات السابقة وشرحها مزاج الحكومة الاسلامية الخاص فهى متفردة فى نوعها تستخدم القوة القاهرة الى جانب الرحمة والشفقة والمودة ، فليس الجبر والاكراه مزاجها ولا شأن لنظامها بالتعصب والتسلط ، فهى رحمة للعالمين اجمعين وتعد الشورى مقتضى أساسيا لمثل هذا المزاج .

(٣)

الشـــورى

يقول تعالى :

« وامرهم شورى بينهم »

الشورى ٣٨

تعد الشورى فى هذه الآية من افضل صفات المؤمنين ، على حين جاءت الشورى فى سورة آل عمران بصيغة الأمر « **وشاورهم فى الأمر** » ١٥٩ . وعلى هذا فالشورى واحد من الدعامات الهامة التى يتأسس عليها طراز الحياة الاسلامية . وادارة دفة امور المجتمع بلا شورى ليست طريقة الجاهلية فحسب ، بل هى خلاف صريح لقاعدة وقانون قرره الله وشرعه . فلماذا تحظى الشورى بكل هذه الأهمية فى الاسلام ؟

اننا لو تدبرنا اسباب ذلك لاتضحت امامنا امور ثلاثة :

١ ـ ان فصل اى انسان برايه الشخصى ـ دون اعتبار للآخرين ـ فى مسألة تتعلق بشخصية او اكثر ظلم واجحاف . فلا حق لأحد ان يدبر الأمور المشتركة ويقضى فيها بطريقته الخاصة ورايه الفردى فالانصاف يقتضى للفصل فى امر ما ان يؤخذ راى جميع من يتعلق بهم هذا الأمر ، وان كان يتعلق بقطاع عريض من النـاس فلابد من التشـاور مع ممثليهم الحقيقيين .

٢ ـ ان محاولة الانسان الفصل فى الامور المشتركة وتصريفها وفق ما يراه هو ، والتعدى على حق الآخرين فى سبيل الأغراض الشخصية ،

وتعظيم النفس واحتقار الآخرين كلها صفات اخلاقية قبيحة لا يمكن ان توجد فى المؤمن ادنى ذرة منها . فالمؤمن ليس بالذى فى نفسه غرض يتعدى من اجله على حقوق الآخرين لينال فائدة غير مشروعة ، ولا بالمتكبر المغرور الذى يعتبر نفسه العقل المدبر والعليم الخبير .

٢ ـ ان الفصل فى المسائل التى تتعلق بحقوق الآخرين مسئولية جسيمة . فمن يخشى الله ويعرف كم سيكون حسابه وعبؤه عظيما ثقيلا امام ربه لا يمكن أن يجترىء على حمـل هذا العبء الثقيل القاصم بمفرده . ومن لا يخاف الله ولا يؤمن بالآخرة هو وحده الذى يجرؤ على فعل هذا أمامن يستشعر خشية الله وحساب الآخرة فلا مفـر له من ان يشاور الناس أو ممثليهم بشأن الفصل فيمـا يتعلق بهم من امور ، حتى يتسنى له الحكم فيها حكما سليما أساسه الانصاف دون تحيز وحتى لا يتحمل وحده مسئولية اى خطأ يقع جهلا او سهوا .

هذه الأسباب الثلاثة اذا تأملها الانسان لعلم علم اليقين ان الشورى هى المقتضى الحتمى لما يعلمه الاسلام للانسان من اخلاق وشمائل ، وأن الحيدة والانحراف عنها خلق جد ذميم لا يقره الاسلام او يبيحه ابدا . ان اتباع الشورى فى كل صغيرة وكبيرة هو الطراز المميز للحياة الاسلامية ، ففى امور المنزل وشئونه يتشاور الرجل مع امراته ، فاذا ما كبر اطفاله وصاروا شبابا اشركهم فى المشورة . وكذلك الأمر فى شئون العائلة حيث يتشاور عقلاؤها البالغون ، فان تعسرت مشاورة كافة الأفراد فى قبيلة او عشيرة أو مدينة ، بشكل منهم ـ بطريقة يتفق عليها ـ مجلس يضم كافة الممثلين الثقة الذين ينيبون عمن يهمهم الأمر للفصل فيما يعن لهم من مشاكل . وكذا الأمر فى المسـائل التى تتعلق بشعب بأكمله اذ يولى عليهم رئيس او قائد برضـاهم جميعا ، فيشاور فى امورهم اهل الراى ممن يثق الشعب بهم ، ويبقى قائدا رئيسا طالما اراده الشعب كذلك .

ان الانسان المؤمن لا يرغب او يحاول ان يكون رئيسا بالقوة والجبر ، او ان يفرض نفسه على الشعب فرضا ثم يطلب منهم رضاهم كرها وغصبا ، او الا يتشاور مع من ارادهم الشعب ينوبون عنه برغبته وارادته الحرة ، وينتقى هو بنفسه ممثلين يشيرون بما يرغبه ويوافقون على كل امر يتخذه واى من هذه الرغبات لا تظهر الا فى النفس التى تلوثت بخراب الضمير والذمة ومن لا يتورع عن خداع الله والناس هو وحده الذى يحاول التمثيل والظهور على الناس بأنه يطبق ((**وامرهم شورى بينهم**)) فى شكلها الخارجى الظاهر ، بينما يطمس فى الواقع حقيقتها وجوهرها بالرغم من استحالة انطلاء خدعته هذه على الله ، وبالرغم من ان الناس ليسوا عميانا الى درجة يستطيع معها اى شخص ان يخدعهم فى وضح النهار ومع هذا يستمرون ـ بسذاجة وطيب

وتعظيم النفس واحتقار الآخرين كلها صفات اخلاقية قبيحة لا يمكن ان توجد فى المؤمن ادنى ذرة منها . فالمؤمن ليس بالذى فى نفسه غرض يتعدى من اجله على حقوق الآخرين لينال فائدة غير مشروعة ، ولا بالمتكبر المغرور الذى يعتبر نفسه العقل المدبر والعليم الخبير .

٣ ـ ان الفصل فى المسائل التى تتعلق بحقوق الآخرين مسئولية جسيمة . فمن يخشى الله ويعرف كم سيكون حسابه وعبؤه عظيما ثقيلا امام ربه لا يمكن ان يجترىء على حمـل هذا العبء الثقيل القاصم بمفرده . ومن لا يخاف الله ولا يؤمن بالآخرة هو وحده الذى يجرؤ على فعل هذا امامن يستشعر خشية الله وحساب الآخرة فلا مفـر له من ان يشاور الناس او ممثليهم بشأن الفصل فيمـا يتعلق بهم من امور ، حتى يتسنى له الحكم فيها حكما سليما اساسه الانصاف دون تحيز وحتى لا يتحمل وحده مسئولية اى خطا يقع جهلا او سهوا .

هذه الأسباب الثلاثة اذا تأملها الانسان لعلم علم اليقين ان الشورى هى المقتضى الحتمى لما يعلمه الاسلام للانسان من اخلاق وشمائل ، وان الحيدة والانحراف عنها خلق جد ذميم لا يقره الاسلام او يبيحه ابدا . ان اتباع الشورى فى كل صغيرة وكبيرة هو الطراز المميز للحياة الاسلامية ، ففى امور المنزل وشئونه يتشاور الرجل مع امراته ، فاذا ما كبر اطفاله وصاروا شبابا اشركهم فى المشورة . وكذلك الأمر فى شئون العائلة حيث يتشاور عقلاؤها البالغون ، فان تعسرت مشاورة كافة الأفراد فى قبيلة او عشيرة او مدينة ، يشكل منهم ـ بطريقة يتفق عليها ـ مجلس يضم كافة الممثلين الثقة الذين ينبون عمن يهمهم الأمر للفصل فيما يعن لهم من مشاكل . وكذا الأمر فى المسـائل التى تتعلق بشعب بأكمله اذ يولى عليهم رئيس او قائد برضـاهم جميعا ، فيشاور فى امورهم اهل الراى ممن يثق الشعب بهم ، ويبقى قائدا رئيسا طالما اراده الشعب كذلك .

أن الانسان المؤمن لا يرغب او يحاول ان يكون رئيسا بالقوة والجبر ، او ان يفرض نفسه على الشعب فرضا ثم يطلب منهم رضاهم كرها وغصبا ، او الا يتشاور مع من ارادهم الشعب ينوبون عنه برغبته وارادته الحرة ، وينتقى هو بنفسه ممثلين يشيرون بما يرغبه ويوافقون على كل امر يتخذه واى من هذه الرغبات لا تظهر الا فى النفس التى تلوثت بخراب الضمير والذمة ومن لا يتورع عن خداع الله والناس هو وحده الذى يحاول التمثيل والظهور على الناس بأنه يطبق ((**وامرهم شورى بينهم**)) فى شكلها الخارجى الظاهر ، بينما يطمس فى الواقع حقيقتها وجوهرها بالرغم من استحالة انطلاء خدعته هذه على الله ، وبالرغم من ان الناس ليسوا عميانا الى درجة يستطيع معها اى شخص ان يخدعهم فى وضح النهار ومع هذا يستمرون ـ بسذاجة وطيب

قلب – فى اعتباره خادما لهم ساهرا على مصلحتهم وليس دجالا مخادعا افاقا

ان قاعدة ((**وامرهم شورى بينهم**)) تتطلب بذاتها خمسة امور :

اولها ان ينال الناس الحرية الكاملة فى التعبير عن آرائهم فى امور المجتمع التى تتعلق بهم وبحقوقهم ومصلحتهم ويعلموا تمام العلم كيف يجرى تصريف هذه الامور ، وان ينالوا الحق الكامل فى ان يزعوا ما يصدر عن اولى امرهم من خطأ وتقصير ويحتجوا عليه ، فان رأوا الخطأ لا يصلح ويستقيم عزلوا قادتهم واولى امرهم واستبدلوا غيرهم . لأن تصريف امور الناس مع سد افواههم وتكبيلهم وتركهم دون علم بها انما هو كفر صريح لا يمكن ان يقبله اى انسان يؤمن بالآية ((**وامرهم شورى بينهم**)) ويتبعها .

ثانيها ان مسئولية تصريف امور المجتمع لابد وأن تلقى على كاهل من يتم تعيينه واختياره برضا الناس ، وهذا الرضا لابد وأن يكون حرا . اما الرضا الناتج عن الارهاب والتخويف ، او المشترى بالطمع والحرص ، او المتحقق بالتزوير والخداع والدجل فليس رضا فى حقيقته . ان القائد الشرعى الصحيح لأى شعب من الشعوب ليس من يسلك كل سبيل ويفعل اى شىء ليتولى القيادة والزعامة بل من يوليه الشعب قيادته برغبته ورضاه.

ثالثها ان يختار للتشاور مع القائد اولئك الذين يحصلون على ثقة الشعب . وبالطبع يخرج عن المعنى الحقيقى للحصول على ثقة الشعب من يفوزون بتمثيل الشعب عن طريق الضغط والاكراه والنفوذ وشراء الثقة والأصوات بالمال والرشاوى او بالتزوير والخديعة والمكر والتحايل .

رابعها ان يشير هؤلاء الممثلون بما يمليه عليهم علمهم وايمانهم وضميرهم، وان ينالوا حرية الراى كاملة تامة . والا فسوف يشيرون بما يخالف ضميرهم وايمانهم وعلمهم خوفا او طمعا او تحيزا او مراعاة لمصلحة جماعة ما ، فيصبح الأمر خيانة وغدرا لا اتباعا وتنفيذا لقاعدة ، ((**وامرهم شورى بينهم**)) .

خامسها التسليم بما يجمع عليه اهل الشورى او اكثريتهم ، اما ان يستمع ولى الامر الى آراء جميع اهل الشورى ثم يختار ما يراه هو نفسه بحرية تامة فان الشورى فى هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها . فالله لم يقل ((تؤخذ آراؤهم ومشورتهم فى امورهم)) وانما قال ((**وامرهم شورى بينهم**)) يعنى ان تسير امورهم بتشاورهم فيما بينهم ، وتطبيق هذا القول الالهى لا يتم بأخذ الراى فقط وانما من الضرورى لتنفيذه وتطبيقه ان تجرى الامور وفق ما يتقرر بالاجماع او – بالاكثرية .

ولا بد لنا من ان نضع فى اعتبارنا – بالاضافة الى ما سبق ايضاحه من مبادىء الشورى فى الاسلام – ان هذه الشورى ليست طليقة العنان فى

تصريف شئون المسلمين بل محددة بحدود الدين التى قررها الله تعالى فى شريعته ، وتابعة خاضعة للقاعدة الأساسية ((**فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول**)) النساء ٥٩ وفى ضوء هذه القاعدة العامة يستطيع المسلمون التشاور فى مجال التشريع بخصوص توضيح المعنى الصحيح لأى نص من النصوص او كيفية تطبيقه واخراجه الى حيز التنفيذ حتى يتحقق مطلبه تحققا تاما . لكنهم لا يستطيعون التشاور فيما أصدره الله ورسوله من حكم فى امر من الأمور ، أو أن يصدروا اى حكم تلقائى حر .

(٤)

العدل والاحسان

((ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى))

النحل ٩٠

فى هذه الآية المختصرة يأمر الله بثلاثة اشياء يتوقف عليها صلاح المجتمع الانسانى واستقامته . **الأول هو العدل الذى يتركب من حقيقتين دائمتين** اولاهما ان يتحقق التوازن والتناسب فى الحقوق بين الناس ، والثانية أن ينال كل ذى حق حقه بطريقة عادلة منصفة . وليس معنى هذا تقسيم الحقوق مناصفة بين الانسان والانسان بالتساوى مما يختلف واساس الفطرة . فالعدل يقتضى فى الحقيقة التوازن والتناسب لا المساواة التامة ، كما يتطلب ولا شك المساواة بين أفراد المجتمع فى بعض الوجوه كحقوق المواطنة مثلا (١) ، لكنه لا يتطلب المساواة فى بعض الوجوه الأخرى كالمساواة الاجتماعية والأخلاقية بين الوالدين والأولاد ، أو المساواة فى الأجور بين كبار الموظفين وصغارهم لأن المساواة التامة فى هذه الأمور تخالف العدل وتجافيه. فما امر به الله هو تحقيق التوازن والتناسب لا المساواة الكاملة وتحقيق التوازن والتناسب يتطلب اعطاء كل انسان حقوقه الاجتماعية والسياسية والقانونية والاقتصادية والأخلاقية بأمانة تامة .

الثانى هو الاحسان ومعناه المعاملة الحسنة والسلوك الكريم ، والمشاركة الوجدانية والتسامح وحسن الخلق والعفو والاحترام المتبادل بين الانسان واخيه الانسان وهذا شىء أكثر من الانصاف ، وتفوق أهميته فى حياة

(١) للتعرف على بعض هذه الحقوق انظر ما ورد فى الفصل الخاص بحقوق الانسان الاساسية ـ الترجم .

المجتمع اهمية العدل . فان كان العدل اساس المجتمع فالاحسان كماله
وجماله . ولو ان العدل يقى المجتمع الآلام والأحقاد والمرارات فان الاحسان
يخلق فيه الافراح والسعادات العظام . ان اى مجتمع لا يمكنه البقاء واقفا
ليرى كل فرد ينال معاملة حسنة كل لحظة فيسرع الى هذا ليؤدى له حقه ،
ويتحول الى ذلك لينصفه او يقتص منه وحسب ، فمثل هذا المجتمع
البارد الجاف وان خلا من التطاحن والصراعات ، الا انه يظل محروما من
قوى الحب والتعاطف والمودة والايثار والاخلاص وحب الخير وهى التى
تبث الحلاوة واللذة فى الحياة ، وتثرى المجتمع بالخيرات وتنميها فيه .

الثالث هو صلة الرحم التى تعد صورة خاصة من صور الاحسان فيما
يتعلق بذوى القربى . وليس معناها ان يعامل الانسان أقرباءه معاملة حسنة
ويشاركهم حلو الحياة ومرها ويحميهم ويساعدهم فى اطار الحدود الشرعية
وكفى ، بل معناها ايضا ان يؤدى الموسر حقوق ذوى قرباه فى ماله كما يؤدى
حقوق نفسه واولاده فيه .

ان الشريعة الالهية تجعل الميسورين فى كل عائلة مسئولين عن أفرادها
فلا يدعونهم جياعا عرايا . وليس فى نظر هذه الشريعة أسوأ من حال مجتمع
يحيا فيه الانسان رغدا مترفا على حين يعيش أفراد عائلته واقاربه فى حاجة
الى الطعام والكساء . فهى تجعل الأسرة عنصرا هاما ولبنة أساسية فى
تركيب المجتمع وبنائه ، وتنص مبادؤها على ان اول حق على الأغنياء فى كل
عائلة واسرة ان يؤدى هو حق اقاربهم المعوزين المحتاجين ثم تليه حقوق
الآخرين . وهذا ما اوضحه النبى عليه الصلاة والسلام فى مختلف احاديثه
اذ يصرح فى العديد منها ان الوالدين والزوجة والأولاد والأخوة والأخوات
هم أول من يجب على الانسان ان يؤدى لهم حقوقهم عليه ، ثم من يلونهم فى
درجة القرابة ثم من يلونهم وهكذا . وهذه المبادىء هى التى جعلت سيدنا
عمر بن الخطاب رضى الله عنه يلزم ابناء عم أحد الأطفال اليتامى بمسئولية
تربيته ، كما جعلته يقضى فى امر يتيم بقوله « لو ان ابعد اقربائه حى
لألزمته بتربيته » (۱) .

ولنا ان نرى ـ لو تكفلت كل وحدة من وحدات المجتمع بأفرادها ـ كم
من اليسر والرخاء يتحقق فيها اقتصاديا ، وكم من السعادة تظلها اجتماعيا،
وكم من الطهر والعفة يكتنف افرادها اخلاقيا .

وفى مقابل هذه العناصر الخيرة الثلاثة التى سبق الحديث عنها ينهى

(۱) نص مترجم ــ المترجم .

الله عن ثلاثة شرور تدمر الأفراد من الناحية الشخصية والفردية وتحطم المجتمع كله من الناحية الجماعية .

اولها الفحشاء وتطلق على كافة الأفعال المخجلة الفاضحة ـ فكل سوء جد قبيح فى ذاته هو فحش كالبخل والزنا والتعرى واللواط ونكاح المحرمات والسرقة وشرب المسكرات والتسول والسب والشتم وغيره كما يعد القيام بالأفعال الفاضحة علانية على الملأ ، ونشر الآثام والشرور والمفاسد فحشاء كذلك كالدعاية الكاذبة ، وتلفيق التهم والتشهير بالجرائم الخفية ، والقصص والمسرحيات والافلام التى تدفع الى البغاء وتساعد على الفساد ، والصور العارية وتبرج النساء علانية وعلى الملأ والاختلاط العام بين الرجال والنساء، ورقص النساء وهزهن الأعطاف والبطون واظهارهن مفاتن الأجساد وحركات الدلال والاغراء وما الى ذلك بسبيل .

وثانيها المنكر وهو كل سوء يعرف كافة الناس انه سوء ويسمونه على الدوام سوءا وتمنعه الشرائع الالهية كلها .

وثالثها البغى ومعناه التجاوز عن الحد والتعدى على حقوق الآخرين ، سواء كانت حقوق الخالق أم المخلوق .

(٥)

مبادىء انتخابات القيادات

ان المبادىء التى يتم على اساسها انتخابات القيادات فى الحكومة الاسلامية تخالف الى حد كبير المبادىء التى تتبعها الحكومات الأخرى فى هذا الصدد لأن أساسها فى الحكومة الاسلامية الأهلية والأمانة والدين والتقوى وحسن الخلق والسلوك .

(ا) ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا .

النساء ٥٨

يعنى اجتنبوا تلك الآثام التى وقع فيها بنو اسرائيل . لأن من بين أخطائهم الأساسية انهم كانوا وقت انحطاطهم يعطون الأمانات اى المناصب القيادية والزعامات الدينية والشعبية (١) الى من لا يصلحون لها ، ومن هم على خلق وسلوك ودين سىء فنجم عن ذلك ان حل الخراب والدمار فى

(١) ورد لفظ الأمانة فى أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام للتعبير عن القيادة والرئاسة وقد رأيت ان انوه الى هذا كيلا يأخذ البعض لفظ الأمانة على معناه المعروف بين العامة ، ومثال الاحاديث التى ورد فيها لفظ الأمانة للدلالة على هذا المعنى قول رسول الله « يا أبا ذر انك ضعيف وانها (اى الولاية والقيادة) امانه وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من اخذها بحقها وادى الذى عليه فيها » والحديث الذى رواه أبو هريرة عن النبى أنه قال « اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قيل يا رسول الله وما أضاعتها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » ـ المترجم .

الشعب باسره فى ظل تلك القيادات السيئة المنحرفة . والآية تحذر المسلمين الا يفعلوا ذلك وانما ادوا الأمانات الى اهلها اى من يصلحون لحمل اعبائها والقيام بها.

والخطأ الثانى الذى تسبب فى ضعف بنى اسرائيل وخوارهم انهم فقدوا روح العدل والانصاف وكانوا يطوعون الايمان لخدمة اغراضهم الشخصية والقومية ، ويصرون على التنكب والنكوص والعصيان ، ولا يتورعون عن ذبح العدل والقضاء عليه . ولقد عانى المسلمون اسوا تجربة لظلم اليهود حين كانت حياة محمد عليه الصلاة والسلام الطاهرة العفيفة وحياة من آمنوا به فى كفة ، وحياة من بقوا على عبادة الأصنام ووأد البنات ونكاح الأمهات والمحرمات والطواف بالكعبة عريا كما ولدتهم امهاتهم فى كفة أخرى فما كان من اليهود وهم اهل الكتاب اسما لا حقيقة ــ الا ان رجحوا الكفة الثانية على الأولى ، واعلنوا دون خجل او حياء ان الفريق الثانى يسير على الحق والصواب .

وبعد ان نبه الله المسلمين الى هذا الظلم امرهم الا يقترفوا مثله مع صديق او عدو . فان قلتم فقولوا الصدق والحق والعدل دائما ، واذا حكمتم فاحكموا بالعدل والانصاف والقسطاس المستقيم .

(ب) «ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون»

الشعراء ١٥١ ــ ١٥٢

يعنى لا تطيعوا امرائكم ورؤساءكم وحكامكم وقادتكم ممن يفسد نظام حياتكم فى ظل قيادتهم ورئاستهم . فهم قوم مسرفون خلعوا عن حيواتهم ثوب الأخلاق ، وصاروا كالعير الشاردة الطليقة ، ومن ثم لا يمكن ان يتم الاصلاح على يديهم ، ولسوف ينتشر الانحراف والفساد فى النظام الذى يحكمونه ويديرون عجلته ، فان اردتم الخير والفلاح فاتقوا الله واطيعونى ولا تطيعوا المفسدين ، وما اريد عليه من اجر ولا استفيد من الاصلاح فائدة شخصية .

كان هذا هو الاعلان المختصر الذى عرضه سيدنا صالح عليه السلام على قومه فاشتمل على دعوة دينية الى جانب الدعوة الى الثورة السياسية والاصلاحية والأخلاقية والاجتماعية .

(ج) ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا »

الكهف ٢٨

يعنى لا تطيعوا قوله ولا تخضعوا له ولا تنفذوا رغبته ولا تتبعوه . ان لفظ الطاعة فى هذه الآية قد استخدم بمفهومه الواسع العريض .

ومعنى « **كان امره فرطا** » من قامت طريقته على الافراط والتفريط ، وكذا من قعد عن مساندة الحق والسير خلفه ، وحطم قواعد الأخلاق

نوانيها وسار بلا قانون او هداية وهذان الوصفان يتحققان فيمن نسى الله
واصبح عبدا لنفســه ، وغدا الظلم يظهر فى كل افعاله ، وبقى جاهلا شأن
الحدود والقوانين . ان طاعة من هم على شاكلة هـذا الشخص تعنى ان
يجهل المطيع امر القوانين والشرائع ، ويضل فى كل واد تاه فى المطاع وضل .

(٦)

مبادىء الحرب والسلام

من اسس الحكومة الاسلامية ان تكون سليمة متينة من كل ناحية فكما هى قوية متكاملة من الناحية الاجتماعية لا بد وان تكون كذلك من الناحية العسكرية ، فأداؤها لما تحمله من مسئولية لا يتم دون قوة دفاعية .

(ا) **وأعدوا لهم ما استطعتم من قــــوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم .**

الانفال ٦٠

ومعنى هذا حتمية أن تملكوا معدات القتال وجيشا مستعدا دائمــا Standing Army مجهزا ومعدا لخوض القتال فى اى وقت حتى تستطيعوا دخول النزال والحرب فورا اذا دعت الضرورة ، فلا يحدث ان تسرعوا جاهدين فى جمع المعدات والأسلحة بعدفوات الأوان ووقوع الخطر، فينال العدو منكم غرضه وانتم فى شغل باستكمال قواتكم وجمع اسلحتكم ومعداتكم .

(ب) **انماجزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا او تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب اليم .**

المـائدة ٣٣

ويقصد « بالأرض » فى هذه الآية الدولة او الاقليم الذى تقع على عاتق الحكومة الاسلامية مسئولية تحقيق الأمن والانضباط فيه ، كما يقصــد بحرب الله ورسوله الحرب ضد نظام الحكم الصالح الذى تقيمه الحكومة الاسلاميةفى البلاد . فاقامة هذا النظام الصالح الذىيهب الانسان والحيوان والنبات وكل مخلوقعلى ارضه الأمن والراحة والطمأنينة، وتصل الانسانية فى ظله الى كمالهاوتمامها ، وتستخدم كافة منابع ووسائل الأرض تحت اشرافه لرقى الانسان لا لتدميره وافنائه ، هى رغبة الله التى ارسل رسوله

عليه الصلاة والسلام لاتمامها وتحقيقها . فاذاقام هذا النظام فى ارض ما ، فان السعى فى خرابه حرب ضد الله ورسوله سواء كان هذا السعى على نطاق ضيق كالقتل والاغارة وقطع الطرق والسطو ، ام على نطاق واسع كمحاولة قلبه واقامة نظام فاسد فى مكانه كمثل ماينص عليه بعض القوانين الوضعية بان اى انسان يحاول قلب نظام الحكم يؤخذ كمتهم بحرب الملك نفسه حتى ولو كانت هذه المحاولة حركة تمرد عادية فى وحدة من وحدات الجيش فى مكان قصى بعيد عن النيل من الملك .

ولقد ذكرت كافة العقوبات اجمالا فى هذه الآية حتى يقرر القاضى او امام العصر باجتهاده عقوبة كل مجرم حسب نوع جريمته ، والهدف الاصلى من ذكرها هو توضيح ان محاولة اى من رعايا الدولة الاسلامية قلب نظام الحكم الاسلامى تعد ابشع جريمة لا بد وان يعاقب عليها باحدى العقوبات الصارمة التى وردت فى الآية ..

(جـ) **((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورســـوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون))**

التوبة ٢٩

لقد ابيح فى هذه الآية قتال من لا يتخذون هذه الشريعة التى انزلها الله على يد رسوله عليه الصلاة والسلام قانونا يحكم الحيـاة بأسرها ــ وغاية القتال ليست رجوعهم مؤمنين واتباعهم دين الحق ، بل القضاء على نفوذهم وسطوتهم فلا يكونوا حكاما او اولى امر فى الأرض . لأن سلطات الحـــكم والقيادةومقاليد نظام الحياة على وجهالارض يجب ان تكون فى أيدى المؤمنين وحدهم الذين يتبعون دين الحق ، اما من هم دونهم فيعيشون تابعين لهم ومطيعين .

والجزية نظير ما يناله الذميون من امن وحماية فى الدولة الاسلامية ، كما انها دليل على رضاهم باتباع احكام وقوانين الدولة الاسلامية ــ فالمعنى الصحيح لأعطاء الجزية ((**عن يد**)) هو اعطاؤهم اياها «طائعين» و ((**صاغرون**)) تعنى الا يكونوا اكابر فى الأرض اى ذوى مناصب كبرى ، انما ذلك وقف على المؤمنين وحدهم الذين يؤدون واجب الخلافة الالهية . وقد نزل هـذا الحكم فى البداية بخصوص اليهود والنصارى ، ثم ما لبث النبى عليه الصلاة بنفسه ان اخذ الجزية من المجوس بعد ذلك وعاملهم معاملة الذميين ، ثم طبق الصحابة الكرام جميعهم هذا الحكم على عامة الشعوب التى كانت تعيش خارج بلاد العرب .

وقد قدم المسلمون وقت ذلهم وعبوديتهم فى القرن التاسع عشر عديدا

من الاعـذار بشـأن الجزية . وما تفتا بقيـة منهم تحاول خلق المعـاذير والتبريرات ، لكن دين الله أرفع من ان يحتاج الى اصطناع الأعذار واختلاق التبارير امام من يعصون الله عصيانا كبيرا ، ان الأمر الصريح الذى لا شبهة فيه ان الذين يرفضون دين الله ولا يرضـونه ويتبعون قوانينهم او قوانين الآخرين ونظرياتهم الخاطئة السقيمة لهم الحرية فى أن يرتكبوا من الأخطاء ما يحلو لهم ، ولكن لا حق لهم على الاطلاق فى ان تصل الى ايديهم مقاليد الحكم والسلطة .

اما السؤال عما تدفع من أجله الجزية حينئذ فجوابه انها لقاء ماحصلوا عليه من حرية فى البقاء على عقائدهم فى ظل الحكومة الاسلامية . وينبغى أن تنفق هذه الجزية فى تدعيم وتنسيق نظام الحكم الاسلامى الصالح الذى يسمح لهم بممارسة هذه الحرية ويحمى حقوقهم ويحفظها لهم . واعظم تاثير مفيد لهذه الجزية هو تجديد مشاعر واحاسيس الذميين ـ كلما حان وقت دفعها من كل عام بمدى تعاستهم وحرمانهم من شرف دفع الزكاة فى سبيل الله فى الوقت الذى يدفعون فيه قيمة بقائهم على عقائدهم .

(د) « الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » .

المائدة ٣٤

يعنى اذا رجعوا عن السعى فى الفساد ، وتركوا محـاولة بث الفتنة والاضطراب فى النظام الاسلامى ، واثبت سلوكهم بعد ذلك رغبتهم فى الأمان واطاعوا قانون الدولة وخضعوا له ، وسلكو فى ذلك مسلكا حسنا واعترفوا بسابق ذنوبهم ، فلا يطبق عليهم اى قسم من العقوبات التى سلف ذكرها . وبالطبع لا تسقط عنهم عقوبات ما اقترفوه من جرائم ضد حقوق النـاس فان كانوا قتلوا شخصا أو اغتصبوا ماله او ما الى ذلك من جرائم المـال والروح، فتجب محاكمتهم ومعاقبتهم عليه ، ولكنهم لا يعاقبون على مافعلوه من عصيان او عذر أو خيانة أو حرب ضد الله ورسوله .

(٧)

المبادىء العامة للسياسة الاجتماعية والتعليمية

والخط السياسى

(أ) « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقب رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين

غفورا ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السـبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقـدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا ، ولاتقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا ولا تقربوا الزنا انه فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير واحسن تأويلا ولا تقف ما ليس لك به علم أن السـمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة »

الاسراء ٢٣ ـ ٣٩

هذه الآيات توضح عدة مبادىء رئيسية يريد الاسلام بناء صرح الحياة الانسانية كله على أساسها ، فكأنها منشور دعوة محمد صلوات الله وسلامه عليه الذى قدم فى نهاية العهد المكى وبداية العصر المدنى حتى تقف الدنيـا بأسرها على الدعامات التى يتأسس عليها هذا المجتمع الاسلامى الجديد ، وتعرف اسس دولته الفكرية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية والرجوع الى ما ورد فى سورة الانعام يفيدنا أكثر فى هذا .

١ ـ « **وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه** » وتعنى هذه الآية الا تعبدوا الا الله . ولا تطيعوا أحدا طاعة مطلقة دون نقاش سوى الله ، وان اعترفوا بحكمه وحده .. وقانونه وحده ، ولا تقبلوا ان تكون السلطة العليا لأحد غيره . هذه الآية لا تشكل أساس العقيدة الدينية فقط بل هى حجر الزاوية فى بناء نظام كامل للأخلاق والمجتمع والسياسة هو النظام الذى نفذه النبى عليه الصلاة والسلام عمليا بعد ان تشرفت المدينة المنورة بمقدمه . والذى اسس بناءه على نظرية ان الله وحده هو مالك الملك ، وان شريعته فقط هو قانون البلاد .

٢ ـ « **وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل**

من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين . فانه كان للأوابين غفورا)) .

يقول تعالى ان حق الوالدين هو اول حق يجب على الانسان اداؤه بعد حق الله ، فعلى الأبناء ان يطيعوا والديهم وان يكونوا معهم على خلق حميد، تصبح اخلاق المجتمع اخلاقا فاضلة . فلا يصح ان ينفصل الأولاد عن الوالدين فيذهب كل امرىء وشـــأنه ، بل الواجب ان يحسنوا اليهم ويحترموهم ويقوموا على خدمتهم في شيخوختهم وضعفهم وعجزهم كما ربوهم ودللوهم في طفولتهم .

ولم تكن هذه الآية وصية اخلاقية وحسب ، ولكنها كانت الأساس الذي عليه تقررت حقوق الوالدين وسلطتهم الشرعية بتفصيلاتها الموجودة حاليا في كتب الحديث والفقه ، كما نصت على اداء حقوق الوالدين والتأدب معهم وطاعتهم على أساس أن ذلك كله عنصر هام في نظام التربية الأخلاقية والعقلية في المجتمع الاسلامي، وأساس من اسس آداب المسلمين الاجتماعية. لهذا الزمت هذه الآية ومثيلاتها الحكومة الاسلامية بضرورة الحفاظ على نظام الأسرة وتقويته وتدعيمه عن طريق ما [illegible]نه من قوانين واحـكام ، وما تضعه من سياسة تعليمية وتربوية .

٣ ، ٤ ، ٥ ـ ((وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفـورا ، واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا)) .

المراد بهذه المواد الثلاث المتضمنة في هذه الآية الا يستأثر الانسان بثروته وربحه وكسبه ، ويخص به نفسه وحدها ، بل عليـه ان يلبي احتياجاته باعتدال وتوسط ثم يؤدي بعد ذلك حقوق اقاربه وجيرانه وبقية المحتاجين الآخرين . اذ لا بد وان تسري في حياة المجتمع روح التعاون والتعاطف والتراحم واحترام الحقوق وآدائها ، فيساعد الانسان أقاربه ويعينهم ، ويقف القادر الميسور عونا لمن يجاورونه من المعوزين ، واذا ماسافر الانسان الى مدينة وجد بين أهلها حسن الضيافة والاقامة .

ويتسع تصور الحق في المجتمع الاسلامي حتى أن كل شخص يشعر بحقوق كافة من يعيش بينهم في ماله ونفسه ، فيقدم لهم ما يقدمه باعتباره حقا من حقوقهم لا على أساس انه احسان وصدقة يثقل عبؤها على نفوسهم فان عجز عن أداء حق انسان طلب منه العفو والصفح ، وسأل الله سعة الرزق حتى يستطيع أداء ما عليه من حقوق لعباد الله .

وما كانت هذه البنود من المنشور الاسلامي نصائح اخلاقية تؤخذ وتتبع

بشكل فردي وانما تقررت عليها فيما بعد احكام الصدقات الواجبة والنافلة حينما قامت الدولة الاسلاميه فى مجتمع المدينة ، كما نظمت على هديها قواعد الوقف والوراثة والوصية ، وتاسست عليها قوانين حفظ حقوق اليتامى وحمايتها ، وعليها اصبح لكل مسافر حقه فى ان يستضاف فى المدينة التى يمر عليها او ينزل بها ما لا يقل عن ثلاثة ايام . والى جانب هذا كله قام نظام الأخلاق بشكل عملى فى المجتمع فيما بعد على روح التعاون والود والتعاطف والتراحم والمشاركة الوجدانية فى المحيط الاجتماعى ، حتى ان الناس آنذاك اعتبروا ما هو دون الحقوق القانونية حقوقا أخلاقية وشرعوا يؤدونها بالرغم من ان القانون لم يلزمهم آداءها .

٦ ـ « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا .. ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا » .

وغل اليد كناية عن البخل ، وبسطها يعنى التبذير فى الانفاق . ولو قرانا المادة رقم ٤ مع المادة رقم ٦ لأتضحت لنا ضرورة اعتدال الناس فى حياتهم وتعاملهم ، فلا يكونون بخلاء .. يحبسون المال عن التداول والاستخدام ، ولا مسرفين يبددون قدرتهم الاقتصادية هباء ، بل ينبغى ان يوجد بينهم حسن الاعتدال والتوازن ، فلا يمتنعون عن الانفاق فى محله ولا ينفقون المال فى غير موضعه . ان الانفاق فى التفاخر والرياء والمظاهر والملذات والفسق والفجور ، وتبديد الأموال فى مجالات غير مفيدة بدلا من صرفها فى تلبية حوائج الانسان الحقيقية ومايعود عليه بالنفع والخير ، كفر بنعمة الله وجحود ومن ينفق أمواله هكذا فهو اخ الشيطان وقرينه .

ولم تكن هذه المواد ايضا من قبيل النصائح الأخلاقية الفردية وانما حوت فى داخلها اشارة صريحه الى ضرورة منع انفاق المال فى غير مواضعه داخل المجتمع الصالح عن طريق القوانين واللوائح والتربية الخلقية ، لذا فقد ترجمت معانى هذه الآية ترجمة عملية سليمة بطرق مختلفة فى الدولة الاسلامية التى قامت فى المدينة ، فحرمت كافة صور التبذير وأشكال الانفاق فى الملذات تحريما قانونيا ، كما اتخذت اجراءات قانونية فعلية لمنعه ، وتم القضاء على الرسوم والعادات السيئة نتيجة ماحدث فى المجتمع من اصلاح، وخولت الحكومة سلطات واسعة فى منع كافة حالات الاسراف عن طريق ما تسنه من أحكام وقوانين ، كذلك كسرت أحكام الزكاة والصدقات حدة البخل وعنفوانه ، ولم تترك للناس فرصة اكتناز الذهب والثروة وحبسها. هذا بالاضافة الى ظهور راى عام فى المجتمع يعرف الفرق بين الكرم والاسراف ويميز بين البخل والاعتدال . فحط من منزلة البخلاء واعز قدر المعتدلين ولام المبذرين ورفع شان الكرماء واجلهم . ولايزال تأثير هذه التربية الذهنية والأخلاقية باقيا فى المجتمعات التى يسودها دين الاسلام الى اليوم حتى انك

نرى الناس ينظرون الى البخلاء نظرة احتقار وازدراء على حين يحترمون الكرماء ويعزونهم .

وقد فهم الناس آنذاك ان ما جعله الله من فرق فى سعة الرزق وضيقه بين عباده ليس فى وسع الانسان ان يعرف حكمته ، ومن ثم يتحتم على الانسان الا يتطاول بتدخله فى نظام تقسيم الرزق الفطرى عن طريق مايسنه من اجراءات وضعية . فتحويل التفاوت الطبيعى الفطرى الى مساواة تامة مصطنعة ،وازكاء التفاوت الفطرى بحيث يتجاوز حدوده الفطرية ويصل الى حد الظلم والتعسف خطآن كبيران فاحشان . اما النظام الاقتصادى الصحيح فهو ما يكون اقرب الى النظام الفطرى فى الرزق الذى قرره الله تعالى .

وتضم هذه الآية توجيها الى قانون الفطرة وما تاسس عليه من قواعد لم تظهر بسببها فى برنامج الاصلاح فى المدينة الفكرة التى تزعم ان القضاء على التفاوت الفطرى فى الرزق وخلق مجتمع يتساوى افراده تمام المساواة امر مطلوب باية درجة ، بل أن ما حدث هو العكس فأسلوب العمل الذى اتخذ لاقامة وتشييد بناء المجتمع الانسانى فى المدينة على اسس صالحة هو ترك الناس على ما خلقهم الله عليه من تفاوت فطرى ، وتم اصلاح قوانين العمل واخلاق المجتمع وفق المبادىء السابقة بحيث لم يصبح التفاوت فى المستوى الاقتصادى سببا فى الظلم والجور ، بل اضحى مصدرا للفوائد والبركات الاخلاقية والروحية والاجتماعية التى تفوق العد والاحصاء ، والتى من اجلها جعل خالق الكون هذا التفاوت بين عباده .

٧ـ ((ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطا كبيرا)) .

هذه الآية تهدم الاسس والحجج الاقتصادية التى قامت عليها حركة تحديد النسل منذ اقدم العصور الى يومنا هـذا . فقد كان الخوف من الفقر والافلاس فى العصور القديمة دافعا اساسيا وراء قتل الأطفال واسقاط الحمل ، وها هو اليوم يدفع العالم الى سلوك طريق آخر هو منع الحمل . لكن هذه المادة من المنشور الاسلامى تأمر الانسان ان يترك محاولته التخريبية لانقاص عدد المستهلكين ، ويصرف قواه وامكاناته فى جهود بناءة لزيد من مصادر الرزق طبقا لما يقضى به قانون الفطرة الذى وضعه الخالق ، ولتعتبر محاولة الانسان ايقاف تزايد النسل خوفا من ضيق مصادر الثروة وبالتالى سوء الأحوال الاقتصادية واحدا من اخطاء الانسان الكبرى ، وتنبه الى ان تدبير الرزق وتنظيمه ليس فى يديك ومقدورك بل فى يد الخالق الذى وهب لك الحياة على وجه الارض . فكما كان تعالى يرزق اول مخلوق من بنى البشر على الارض كذلك سيرزق من لم يولد بعد . ولعل تجربة التاريخ الموسعة توضح لنا وتثبت ان مصادر الرزق تزداد سعة بقدر تزايد المستهلكين

في العالم بل واحيانا تفوق تعدادهم ، ومن ثم فتدخل الانسان في شئون خلق الله ان هو الا حماقة . ولقد كان من نتائج هـذه النصيحة الالهية ان قتل النسل لم يلق قبولا بين المسلمين في اية حقبة تاريخية منذ نزول القرآن الى يومنا هذا .

٨ ـ « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا »

هذا الأمر صادر الى كل من الانسان بوصفه فردا والمجتمع بوصفه جماعة . ومعناه بالنسبة للأفراد ان لا يكتفوا بعدم ارتكابهم هذا الجرم ، بل يلزم عليهم البعد عن مسبباته وممهداته التي تقربهم وتجذبهم اليه . اما معناه بالنسبة للمجتمع فهو ضرورة ان يقضي عليه وعلى اسبابه ومحركاته في حياة المجتمع ، وان تتخذ لأجل هذا كافة التدابير والاجراءات سواء في ميدان القانون او التربية والتعليم او ما من شانه اصلاح المناخ الاجتماعي وتكوين البنية الاجتماعية تكوينا مناسبا معقولا .

وقد اصبحت هذه المادة في الدولة الاسلامية أساسا لقطاع عريض من نظام الحياة الاسلامي فوضعت على اساسها عقوبات ارتكاب جريمة الزنا ، ونفذت احكام الحجاب ، وحرمت اشاعةالفواحش ، وفرضت القيود على الشراب والرقص وغيره ، كذلك سنت قوانين الزواج التي سهلته ويسرته، واستؤصلت مسببات الزنا من حياة المجتمع بأسره .

٩ ـ « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا » .

ومعنى قتل النفس قتل الآخرين وكذلك الانتحار لان نفس الانسان تدخل كغيرها من نفوس الآخرين تحت تعريف « النفس » بوجه عام وهي ما اقر الله بحرمتها فجريمة قتل الانسان تتساوى في فداحتها وجريمة الانتحار . ان اعتبار الانسان نفسه مالك روحه وان له الحق في اتلاف هذه الملكية بارادته ورغبته واختياره يعد حماقة كبرى وخطا فاحشا ، اذ الروح ملك لله ولا حق لنا في اتلافها او استعمالها في غير ما خلقت له . واختبار الله لنا في « معمل الحياة الدنيا» لابد وان يبقى حتى آخر وقتسواء كانت ظروف هذا الامتحان واحواله سيئة أم حسنة . اما محاولة انهاء الوقت الذي قرره الله لنا عمدا وقصدا ، والهرب من مكان الاختبار ومعمله فهي خطا كبير في ذاتها ، لأن هذا الهروب سيتحقق عن طريق جرم عظيم حرم الله ارتكابه تحريما قاطعا صريحا ، ومعناه ان الانسان يريد تجنب مصاعب الدنيا الصغيرة المؤقتة فيهرب الى مصاعب ومذلات كبيرة ابدية فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار .

لقد حدد القانون الاسلامي القتـــل بالحق في خمس حالات : الأولى

القصاص من مجرم ارتكب القتل عمدا ، والثانية قتال من عاق طريق دين الحق ، والثالثة عقوبة من حاول قلب نظام الحكم الاسلامى ، والرابعة رجم الزانى والزانية من المتزوجين والخامسة عقوبة الردة . هذه الحالات فقط هى التى ترتفع فيهاعن الروح حرمتها ويسمح بقتلها .

وعبارة « فقد جعلنا لوليه سلطانا » تقرر مبدا من مبادىء القانون الاسلامى وهو ان المدعى الحقيقى فى قضايا القتل ليس الحكومة بل اولياء المقتول ، فهم الذين يقبلون العفو أو الدية بدلا عن القصاص .

والاسراف فى القتل له صور واشكال عديدة كلها ممنوع محرم مثل قتل غير المجرم أثناء ثورة الثار والانتقام ، اوتعذيب المجرم قبل قتله ، او التمثيل بجثته بعد قتله ، أو قتله بعد اخذ الدية .

وكان تصور الطريقة التى يتم بها تمكين ولى القاتل او مساعدته غامضا غير معروف الى ان قامت الحكومة الاسلامية فيما بعد فتقرر ان يسند ذلك الى الحكومة ونظام قضائها لا الى قبيلة المقتول وحلفائه . فليس لأحد ان يثار بالقتل من تلقاء ذاته ، وانما الحكومة الاسلامية هى التى تطالب بذلك وتنفذه تحقيقا للعدالة .

١٠ ـ « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده »

لم تنزل هذه الآية على سبيل المواعظ الاخلاقية بل ان الحكومة الاسلامية وضعتها نصب عينيها كأساس لتشريع الاجراءات والقوانين التى تحفظ حقوق اليتامى مما نجد له تفصيلا فى كتب الفقه والحديث ، ثم استمدت الحكومة منها فيما بعد مبدأها العام فى حماية مصالح رعاياها العاجزين عن حمايتها بأنفسهم . وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام « انا ولى من لا ولى له » يشير الى هذا ويشكل نواة ميدان وباب واسع من ابواب القانون الاسلامى .

١١ ـ « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا »

كذلك لم تؤخذ هذه الآية كمادة من مواد الاخلاق الفردية والسلوك الشخصى وانما صارت حجر الأساس فى بناء السياسة الخارجية والداخلية للشعب جميعه حين قامت الحكومة الاسلامية فى مجتمع المدينة المنورة .

١٢ ـ « واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير واحسن تاويلا » .

لم تقتصر اهمية هذه الآية على توجيه تعاملات الأشخاص فيما بينهم ، لكنها أضحت بعد قيام الدولة الاسلامية من بين الواجبات المفروضة على الدولة ، حيث فرض عليها الاشراف على المكاييل والموازين فى المحال الخاصة

والأسواق العامة ومنع لتطفيف كذلك تقررت على هذه الآية فيما بعد واجبات الحكومة حول منع الغش واضاعة الحقوق فى سائر اقسام المعاملات التجارية والاقتصادية .

١٣ ـ « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا »

تعنى هذه المادة ضرورة ان يتحرى الناس العلم والدقة فى حياتهم الفردية والجماعية بدلا من السير وراء الأوهام والظنون . وقد ترجم هذا المعنى فى المجتمع الاسلامى على نطاق واسع فى مجال الأخلاق والسياسة والقانون وادارة البلاد والعلوم والفنون ونظام التعليم وما الى ذلك من قطاعات الحياة ، فتم حفظ الفكر والعمل من تلك المساوىء والانهيارات التى تدب فى الحياة الانسانية نتيجة اتباع الظنون والأوهام وعلى أساس هذه الآية تقرر ـ فى ميدان الأخلاق ـ اجتناب الظن السيء واتهام الآخرين دون تثبت وتأكد ، كما تقرر طبها فى ميدان القانون عدم اتخاذ اى اجراء ضد احد على اساس مجرد الشبهة والظن المحض ، اما فى ميدان البحث عن الجرائم فتقرر عدم القاء القبض على الانسان او تعذيبه وايذائه على أساس الحدس والتخمين ، وفيما يختص بمعاملة الأجانب تأسست على هذه الآية سياسة تقوم على عدم اتخاذ اجراء ضدهم دون تحقيق وتنص على عدم نشر الاشاعات بناء على الشبهات المجردة ، اما فى قطاع التعليم ونظامه فقد رفضت العلوم المزعومة المبنية على الحدس والتخمين والقياسات العميقة . واهم من هذا كله ما تقرر فى مجال العقائد من قطع دابر عبادة الاوهام والخزعبلات واستئصالها، وتلقين المؤمنين قبول ما هو ثابت من العلم الذى أعطاه الله ورسوله فقط .

١٤ ـ « ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

تأمرنا هذه الآية الا تسلكوا سلوك المتكبرين الجبابرة . وتضم فى سياقها منهج عمل فرديا وجماعيا . وكان من فيض هذه الهداية ان خلت حياة حكام وامراء وقادة الحكومة التى قامت على أساس هذا الميثاق فى المدينة المنورة من ادنى ذرات الكبرياء والتعالى والتجبر ، ولم تلفظ السنتهم اقل كلمة تشتم منها رائحة فخر او غرور حتى فى نشوات الحرب والانتصارات . فكانوا فى قيامهم وقعودهم وحياتهم الخاصة والعامة ولباسهم ومنازلهم ودوابهم متواضعين فقراء متقشفين ، وكانوا اذا دخلوا قرية او مدينة فاتحين لم يحاولوا بث الرعب فى قلوب أهلها بتجوالهم بين ارجائها فى زهو وخيلاء وتبختر .

وتقرر هذه الآيات فى آخرها ان الله لا يحب ارتكاب كل امر ممنوع محرم او بعبارة اخرى كل امر يعصى ولا ينفذ فهو مكروه غير مستحب .

(ب) يقرر القرآن الكريم فيما يتعلق بسياسة الدولة التعليمية :

((وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون))

التوبة ١٢٢

ولفهم هذه الآية ينبغى ان نضع امامنا الآية التالية :

((الأعراب أشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ماانزل الله على رسوله)) .

التوبة ٩٧

حيث اكتفى القرآن بأن ذكر ان اغلب سكان مدن وقرى دار الاسلام مريض بالنفاق لجهلهم وعدم ارتباطهم بمركز العلم ، وانهم يجهلون حدود دين الله لعدم تيسر جلوسهم الى أهل العلم .

ثم ذكر فيما بعد أن المدن والقرى لاتترك سادرة فى جهلها وانما لا بد من محو جهالة أهلها وخلق الشعور الاسلامى فى داخل نفوسهم . وهذا لا يستلزم ان يغادر أهل القرى منازلهم ، ويتوجهوا الى المدينة لطلب العلم بل ينبغى أن تخرج من كل قرية او مدينة أو قبيلة فئة من اهلها تقصد مراكز العلم كالمدينة المنورة ومكة وغيرها بغية التفقه فى الدين وفهمه، ثم يعودوا الى اقاليمهم ومدنهم لينشروا فى الناس وعيا وتفتحا ويقظة .

ولقد كانت هذه هى القاعدة الهامة التى مكنت الحركة الاسلامية من الاستتباب والاستحكام ــ ولما كان الاسلام اول أمره جديدا على العرب، وظل فترة ينتشر انتشارا بطيئا فى جو مخالف وتيار معاكس مضاد ، لم تكن ثمة ضرورة تدعو لتقرير مثل هذه القاعدة لأن من كان يفهم الاسلام تمام الفهم ويطمئن اليه ويقتنع بمفاهيمه من كل زاوية هو وحده الذى كان يخاطر بقبوله آنذاك . ولكن حين اشتد ساعد الحركة الاسلامية ، وقامت سلطتها وتشكلت حكومتها بدأ الناس يدخلون فيها أفواجا . فكان من بينهم القليل ممن آمنوا بالاسلام عن اقتناع وفهم واستيعاب ، اما أكثرهم فكانوا يتدفقون على قبوله بطريقة لا شعورية ، فأصبح هذا الانتشار السريع سببا ظاهريا فى قوة الاسلام لأنه زاد من تعداد اتباعه ، لكن هذا التعداد المتزايد فى الحقيقة لم يسفر عن شىء فى صالح النظام الاسلامى بل على العكس غدا سببا فى خلو الكثرة من الشعور الاسلامى العميق، فلم يكونوا على استعداد لتنفيذ وتلبية كافة مطالبه الاخلاقية . وقد بدأ العيب جليا وقت الاستعداد

لغزوة تبوك فانزل الله هديه وامره بضرورة اتخاذ خطوات وتدابير استحكام الحركة الاسلامية جنبا الى جنب مع توسعها وانتشارها ، وذلك بان تخرج جماعة من كل فرقة كي تتعلم وتتفقه ثم ترجع الى مواطنها ليؤدى افرادها واجب تعليم الناس وتنويرهم من اجل ان يعم الشعور الاسلامى كافة المسلمين ، ويعرفوا حدود الله وقوانينه وشريعته .

ولا يفوتنا ان ننوه الى ان ماصدر عن الله بشان تنظيم التعليم العام الجماعى ليس الهدف منه محو امية العامة وجعلهم قادرين على القراءة والكتابة فى ذاتها ، بل هدفه الحقيقى المحدد ان يفهم الناس دينهم ويعوه كى يجتنبوا نظم الحياة غير المسلمة .

هذا هو هدف تعليم المسلمين الذى قرره الله تعالى . وكل نظام تعليمى يقاس بالنظر الى مدى ما حققه من هذا الهدف . وليس معنى هذا ان الاسلام لا يريد ان تنتشر بين المسلمين الكتابة والقراءة ومعرفة العلوم الدنيوية انما معناه ان الاسلام يريد ان ينتشر بين الناس التعليم الذى يؤدى بهم الى الهدف الحقيقى الذى ذكرناه . اما ان يتعلم الانسان ليصبح « اينشتين » عصره أو « فرويد » زمانه ولا يدرى من أمر دينه شيئا ، ويتيه فى نظام حياة غير اسلامى فهذا ليس بالتعليم الذى يحقق الفرض المطلوب بل ان الاسلام يلعن هذا النوع من التعليم .

وقد فهم الناس فيما بعد عبارة « ليتفقهوا فى الدين » فهما غريبا خاطئا طفت اثاره السامة على نظام التعليم الدينى عند المسلمين ، بل وعلى حياتهم الدينية باسرها منذ زمن . فما قصده الله تعالى من التفقه فى الدين هو فهمه والتبصر والدراية بنظامه والعلم بروحه ومزاجه ووقوف الانسان على اى الطرق العلمية والفكرية تنطبق وروح الاسلام فى سائر ميادين حياته . غير انه لما سمى علم القانون اصطلاحا باسم « الفقه » وتحول الى علم يتعلق بتفاصيل شكل الحياة الاسلامية لا روحهاومزاجها ، فهم الناس أن هذا هو الغرض النهائى المقصود من التعليم طبقا لما أمر به الله . على حين هذا ليس المقصود الكلى وانما جزء منه .

ان دراسة العيوب التى لحقت بالدين واتباعه من جراء هذا الخطأ الكبير يلزم لذكرها كتاب كامل ويكفى فى هذا المقام ان اشير اشارة عاجلة الى أن هذا الخطأ هو ما جعل التعليم الدينى عند المسلمين خاليا من روح الدين مرتكزا على تشريح جسمه وهيكله الخارجى كما جعل حياة المسلمين جسدا لا روح فيه وجعل التدين يهوى الى اعماق الانحطاط .

(٨)

السياسة الداخلية والخارجية

(ا) « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم

فى سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء
بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء
حتى يهاجروا وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر
الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير »

الانفال ٧٢

تعتبر هذه الآية بحق مادة هامة من مواد القانون الدستورى فى الاسلام ،
التى تنص على ان « الولاية لا تكون الا بين المسلمين داخل دار الاسلام
وهم اما سكان اصليون او مهاجرون نزحوا اليها ، اما بقية المسلمين ممن
يعيشون خارج حدود الدولة الاسلامية فلا بد من ان تظل بيننا وبينهم اخوة
دينية ، ولكن لا تكون بيننا وبينهم ولاية . كذلك لا ولاية بين المسلمين فى
دار الاسلام والمسلمين الذين لم يأتوا مهاجرين اليها وانما جاءوا بوصفهم
رعايا دار الكفر .

ولفظ « الولاية » فى اللغة العربية يطلق على الحماية والنصرة
والعون والمساندة والصداقة والقرابة وتولى الأمر والاشراف وما ينشعب
عن ذلك من معان . أما معناه الصريح الواضح من سياق الآية فهو تلك
العلاقة بين الدولة الاسلامية ورعاياها أو بين الرعايا والدولة الاسلامية أو بين
الرعايا وبعضهم . وتقصر هذه الآية « الولاية الدستورية والسياسية » على
حدود الدولة الجغرافيه ، وتخرج من عاش خارج هذه الحدود عن نطاق
الولاية .

ان النتائج القانونية المترتبة على « عدم الولاية » كثيرة متسعة لا مجال
هنا لذكر دقائقها واشير على سبيل المثال الى عجالة منها كعدم التوارث بين
المسلمين فى دار الكفر ودار الاسلام ، كما ان احدهم لا يمكن ان يصبح وصيا
قانونيا على الآخر ، ولا زواج فيما بينهم ومناصب الدولة لا توكل الى مثل
هؤلاء المسلمين رعايا دار الكفر .

اضف الى ذلك ان هذه الآية تؤثر تأثيرا بالغا على السياسة الخارجية
للدولة الاسلامية فهى تجعل مسئوليتها قاصرة على من يعيشون داخل
حدودها . أما من هم خارجها فتسقط مسئوليتهم من على كاهلها . وهذا
ما ذكره الرسول فى حديثه « انا برىء من كل مسلم بين ظهرانى المشركين » .
وبذا يقضى الاسلام على بذور الخلاف الذى يسبب كثيرا من الاضطرابات
الدولية ، فحينما لا تتحمل اية حكومة مسئولية الأقليات التى تعيش
خارج حدودها فان كافة المشاكل التى تنجم عن هذا السبب تجد طريقها
الى الحل ، وتخمد نيران الحروب التى قد توجهها هذه المشاكل .

والجزء الاول من الآية يذكر ان من يقطن خارج حدود الدولة الاسلامية
يخرج عن دائرة « الولاية السياسية » . اما الجزء الثانى فيوضح دخولهم

فى دائرة الاخـــوة الدينية على الرغم من خروجهم عن نطاق دائرة الولاية السياسية . فان وقع عليهم ظلم فى مكان ما وناشدوا حكومة دار الاسلام واهلها تقديم العون والمساعدة بما تقتضيه وشيجة الأخوة الاسلامية التى تربط بينهم ، فعلى دار الاسلام وشعبها معاونتهم والوقوف الى جوارهم كاخوة مظلومين . ثم ما لبثت الآية ان اوضحت ان مساعدة اخوة الدين لا تقدم اعتباطا دون ضبط ولا ربط ، وانما يجب تقديمها فى اطار المسئوليات الأخلاقية والقوانين الدولية . واذا كانت بين الحكومة التى نالت هؤلاء المسلمين بالظلم وبين حكومة دار الاسلام مواثيق ومعاهـدات فلن تتمكن دار الاسلام من تقديم عون اليهم يخالف المسئوليات الأخلاقية الدولية .

وقد استخدم لفظ « ميثاق » فى الآية للدلالة على المعاهدات . وهو لفظ مشتق من الثقة . وكل ما يحق على اســاسه لأى شعب ان يثق بطريقة معروفة فى الا تكون بيننا وبينه حرب يسمى ميثاقا . بصرف النظر عما اذا كان بيننا وبينه عهد صريح ينص على عدم الحرب والقتال أم لم يكن .

وتعبير القرآن « بينكم وبينهم ميثاق » الذى جاء فى هذه الآية يدل على ان ما تبرمه حكومة دار الاسلام من مواثيق ومعاهدات مع أية حكومة غير مسلمة لا يكون بين الحكومتين فحسب وانما هو مبرم بين الشعبين كذلك . ويتحمل مسئولياته الأخلاقية كل من الحكومة الاسلامية والشعب المسلم على سواء . فالشريعة لا تسمح بالا يتحمل الشعب الاسلامى مسئولية ما تتخذه وتقرره الحكومة الاسلامية . كما ان نصوص المعاهدات التى توقعها الحكومة الاسلامية تطبق على المسلمين الذين يعيشون داخل حدودها فقط ، أما المقيمون خارجها فلا مسئولية عليهم ولا الزام باتباعها وتنفيذها . وعلى هذا الأسـاس لم تطبق بنود صلح الحديبيـة الذى عقده الرسـول عليه الصلاة والسـلام مع كفار مكة على ابى بصير وأبى جنـدل اللذين لم يكونا من رعايا دار الاسلام .

(ب) « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء »

الانفال ٥٨

تقول هذه الآية اننا لو راينا من جانب شخص او جماعة او دولة بيننا وبينها معاهدة تقصيرا فى تنفيذ مانصت عليه المعاهدة ؛ او توقعنا احتمال خيانتها ما بيننا من عهد اذا سنحت لها فرصة مناسبة ، فلا يصح ان نلغى ما بيننا وبينها ونشرع فى القيام بمالم يكن اتخاذه والقيام به ممكنا فى حال صلاحية المعاهدة وسريانها . بل علينا ــ عكس ذلك ــ أن نعلم الطرف الثانى ونخبره بالغاء المعاهدة قبل اتخاذنا اى اجراء مضـاد ، كى يعلم هو الآخر ببطلان المعاهدة والغائها ولا يظل يحسبها نافذة صالحة . وطبقا لما امرنا به الله تعالى قرر رسوله عليه الصلاة والسلام مبدأ دائما تقوم عليه سياسة الاسلام الدولية فقال : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقده حتى ينقض عهدها او ينبذ اليهم على سواء » . ثم طبق هذه القاعدة على نطاق

واسع واقر فى كافة الأمور مبدأ عاما هو « لا تخن من خانك » . وما كان هذا المبدأ ضربا من المواعظ او زينة القول والالفاظ ، لكنه نفذ فى الحيـاة العملية بشكل جاد . فحين جمع معاوية آن حكمه جيوشه على حدود بلاد الروم بقصد نقض ما بينه وبينهم من عهد ومهاجمتهم ، احتج على مسلكه الصحابى عمرو بن عنبة وروى له حديث رسول الله السابق وأعلن ان القيام بهذا السـلوك العدائى وقت سريان المعاهدة غـدر وخيانة . فمـا كان من معاوية الا أن خضع اخيرا لهذا المبدأ وعدل عن موقفه .

ان شن الهجوم دون الغاء المعاهدة واعلان الحرب كان من اساليب الجاهلية قديما كما انه يروج الآن فى عصر الجاهلية المتحضرة ، وحـدث ما بناظره فى الحرب العالمية الثانية حين رأينا هجوم المانيا على روسيا ، وكذا العمليات الحربية التى قامت بها روسيا وبريطانيا ضد ايران .

وقد يتعلل من يسلك هذا السلوك بأن اعلامه الطرف الآخر ببدء الهجوم يجعله يستعد ويتخذ احتياطاته فيدخل الحرب على علم واستعداد مما قد يفيده وينفعه . فاذا كانت مثل هذه الأعذار كافية لاسقاط ما يرتكب ضد المسئوليات الأخلاقية ، فان العقوبة تسقط عن كل جريمة يختلق لها عذر، ويصبح يسيرا على اى سارق أو قاطع طريق أو زان أو قاتل او مزور أن يذكر مصلحة وفائدة يتخذها عذرا لما اقترفه من جرائم . والعجيب حقا أن هؤلاء الذين يعترفون بشرعية ما يقومون به ضد الشعوب فى المجتمع الدولى يعدون نفس السلوك انتهاكا وجرما محرما اذا ما ارتكب ضدهم من قبـل الأفراد فى مجتمعاتهم المحلية الخاصة .

وعلينا أن نعلم أن القانون الاسلامى يبيح الهجوم دون اعلان واخبار فى حالة واحدة هى أن يكون الطرف الثانى قد أخل بالمعـاهدة على الملأ وسلك معنا مسلكا عدوانيا صريحا . حينئذ لا يصبح فرضا علينا اعلامه بالحرب كما تنص الآية على ذلك ، وانما يصبح لنا الحق فى حربه وقتاله دون أن نخبره سلفا .

وقد استخرج الفقهاء هذا الاجراء الاستثنائى مما نهجه الرسول عليه افضل الصلاة وازكى السلام عندما انتهكت قريش نصوص صلح الحديبية علانية فيما يتعلق ببنى خزاعة ، فلم يخبرهم الرسول بالغاء المعاهدة بل هاجم مكة دون اخبارهم . وليكن معلوما اذا أردنا الاستفادة من هـــذا الاستثناء ،أن علينا أن نضع نصب عيوننا كل الظروف التى اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم فيها حتى يكون اتباعنا لسلوكه اتباعا كاملا لا أن ننتقى منه ما يفيدنا ونهمل ما لا نراه فى صالحنا .

والثابت من كتب الحديث والسيرة فى هذا الموضوع :

اولا : ان ما سلكته قريش من مخالفة لنصوص هذا العهد كان بمعنى بصراحة نقضها اياه نقضا تاما مؤكدا ، بل ان افرادها انفسهم اعترفوا بأن هذه المعاهدة قد الغيت فأرسلوا ابا سفيان الى المدينة لتجديد المعاهدة مما يوضح انهم ما كانوا يحسبونها صالحة سارية المفعول . فليس من الضرورى اعتراف ناقض العهد بلسانه بل الضرورى اللازم أن يكون نقضه صريحا لا يحتمل الشك والارتياب .

ثانيا : لم يصدر عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ بعد نقضهم العهد اى تصريح أو تلميح يفهم منه انه كان لا يزال يعتبرهم معاهدين ، او ان روابط العهد لا زالت باقية بينهم بالرغم مما فعلوه . اذ تؤكد كافة الروايات ان ابا سفيان حين قدم المدينة لتجديد العهد قابل النبى مطلبه بالرفض .

ثالثا : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قام بالعمليات الحربية ضد قريش بنفسه وعلى الملأ وليس فى سلوكه الشريف ادنى شائبة تثير الريب فى انه استخدم أسلوبا ظاهره السلام وباطنه الحرب والقتال .

تلك كانت اسوة الرسول الحسنة فى هذا السبيل ، وعلى هذا فترك الحكم العام الذى قررته الآية المذكورة واتخاذ اى اجراء آخر لابد وأن يتخذ فى مثل ما أوضحته سنة الرسول الطاهرة على ان ينفذ بالوسائل السليمة الشريفة التى اتبعها صلى الله عليه وسلم .

اضف الى هذا اننا لو اختلفنا مع قوم بيننا وبينهم ميثاق ، ورأينا عدم امكان تصفية مابيننا عن طريق النقاش أو عن طريق لجنة دولية ، أو كان الطرف الآخر مصرا على حله وتصفيته بالقوة فلنا الحق فى استخدام القوة فى فضه . غير ان الآية المذكورة تفرض علينا واجبا ومسئولية أخلاقية تتمثل فى ضرورة اعلام خصمنا باستخدامنا القوة فى حل ما بيننا من خلاف لأن اتخاذ الاجراءات الحربية دون اعلاننا عنهاواعترافنا بها كالسرقة فى الخفاء تماما . وهو خلق مشين لم يأمرنا الاسلام بالتحلى به .

(ح) **« فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون »**

الانفال ٥٧

يعنى ان لو عقدت بيننا وبين قوم معاهدة ، ثم القوا بمسئوليات عهدنا وميثاقنا ظهريا وشاركوا فى حرب شنت علينا ، فلنا أن نسقط مسئوليات المعاهدة ونقاتلهم . كذلك لو نشبت بيننا وبين قوم حرب واشترك فيها أفراد قوم بيننا وبينهم عهد وميثاق فلنا الا نتوانى فى قتلهم ومعاملتهم معاملة الأعداء لأنهم نقضوا ما بيننا وبين شعبهم من عهد فلا حق لهم علينا فى احترام نصوصه وبنوده الخاصة بأرواحهم وأموالهم .

(د) « وان جنحوا للسلم فاجنح لهاوتوكل على الله انه هـــو السميع العليم وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله »

الانفال ٦١ ــ ٦٢

يعنى يجب الا تقوم سياستكم فى المسائل الدولية على الجبن والخسة والصفاقة بل ينبغى أن تكون سياسة بطولية شجاعة اعتمادا على الله وثقة فيه . فان أراد الأعداء التفاوض من أجل الصلح والسلام فتأهبوا واستعدوا له ، ولا ترفضوه زعما بأنهم لا يريدون السلام حقا وبنية خالصة بل يبغون الغدر والخيانة . لأن النيــة لا يمكن العلم بها ومعرفتها على وجه اليقين .

فان كان العدو يجنح للسلم فعلا فليس ثمة ما يدعوكم لاهراق مزيد من الدماء مهما كان ريبكم فى نيته وقصده . وان كان ينوى الخيانة فلا بد من ان تكونوا شجعانا واثقين فى الله ، ومدوا يدكم بالصلح والسلام الى من يرغب فيه كى تثبتوا حسن أخلاقكم ورفعتها . أما من ابتغى الحرب والقتـــال فدمروه بقوتكم واعملوا سيوفكم فى رقابه كيلا يتجرأ الخونة ويحسبوكم ضعافا فى وهن .

ان الآيات التى شرحناها على الصفحات الماضــــية لتوضح جزءا من المبادىء الأساسية للحكومة الاسلامية وتلقى الضوء على بعض تصورات القرآن السياسية . فكتاب الله قد وضع قوانين بينة فى هذا المجال ، وفرض على المسلمين أن يسيروا فى أمورهم وفقها . وباتباعهم هذه القوانين فقط يستطيعون تلبية متطلبات دينهم ومقتضيات ايمانهم .

الفصل الثانى

التشريع والاجتهاد فى الاسلام

يتحتم علينا لفهم نطاق التشريع الانسانى ومنزلة الاجتهاد فى الاسلام ان نتنبه لأمرين : الاول ان الحاكمية فى الاسلام خالصة لله وحده . فالقرآن يشرح عقيدة التوحيد شرحا يبين ان الله وحـده لا شريك له ، ليس بالمعنى الدينى فحسب بل بالمعنى السياسى والقانونى كذلك . فهو الحاكم والمطاع وصاحب الامر والنهى والمشرع الذى لا شريك له .

ويوضـح القـرآن توضـيحا تامـا الحـاكمية القانونيـة لله Legal Sovereignty ويقدمها جنبا الى جنب مع عقيدة « معبوديته » الدينية ، ويؤكد على ان هاتين الحيثتين هما المقتضيات اللازمة لالوهيته تعالى ، وان كلتيهما لاتنفصم عن الاخرى، وانكار احداهما يستلزم بالضرورة انكار الوهية الله . ولم يدع القرآن مجالا يظن منـه احتمـال فهم القانون الالهى على انه قانون الفطرة ، بل على العكس اقام دعوته على اساس حتمية تسليم الانسـان بقانون الله الشرعى فى حياته الاخلاقيـة والمجتمعية وهو القانون الذى بعثه الله على يد الانبياء . وقد سمى قبول هذا القانون الشرعى والتخلى امامه عن الحرية الشخصية « اسلاما » Surrender ورفض فى عبارات والفاظ واضحة حق الانسان فى ان يفصل برايه فى الامور التى اصدر الله ورسوله فيها حكما وفصلا .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا »

الاحزاب ٣٦

والامر الثانى الذى يتساوى وتوحيد الله فى الاسلام هو ان محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء . والحق ان هذا الامر هـو ما جعل عقيـدة التوحيد تتحول من مجرد فكر نظرى وتخيل بحت الى نظام عملى محقق فى الواقع الفعلى ، وعليه قام نظام الحيـاة الاسلامى كله . وهذه العقيدة الثانية تعنى ان كافة تعاليم انبياء الله السابقين قد جمعت واضيفت اليها كثيرا من التعاليم الهامة فيما قدمه محمد عليه الصلاة والسلام . ومن ثم فمصدر قانون الله وشرعته الآن واحد فقط ، ولن تنزل اية شرائع او قوانين اخرى يلزم الانسان الرجوع اليها مستقبلا . فهذه الشريعة المحمدية هى القانون الاعلى الذى يمثل رضا الحاكم الاعلى ويعبر عن رغبته .

وقد تلقينا هذا القانون من محمد صلوات الله وسلامه عليه في شكلين : اولهما القرآن الذى يحوى احكام وقوانين اله العالم بالفاظه تعالى مباشرة ، وثانيهما اسوة محمد صلى الله عليه وسلم الحسنة وسنته الطاهرة الشريفة التي توضح القرآن وتشرحه . فلم يكن عليه الصلاة والسلام مجرد حامل رسالة Messenger من الله ، ولا مهمة له سوى تبليغ كتاب الله وكفى ، وانما كان القائد والحاكم والمعلم المعين من لدنه تعالى ، فكانت مهمته شرح القانون الالهى باقواله وافعاله وتفهيم الناس معناه الصحيح ، وتربية الافراد وفق نظريته ومنهجه ثم تجميع من تربوا على معانيه ومبادئه وتنظيمهم في شكل جماعة للجهاد من اجل اصلاح المجتمع ثم تكوين حكومة صالحة ومصلحة له ليريهم كيف يقوم نظام الحياة باسره على مبادىء الاسلام .

هذا العمل الكامل الذى اتمه عليه الصلاة والسلام في ثلاثة وعشرين عاما هي فترة حياته النبوية هو السنة التي تكون جنبا الى جنب مع القرآن الكريم القانون الاعلى الصادر من الحاكم الاعلى وتكمله . وهذا القانون يسمى بالاصطلاح الاسلامى « الشريعة » .

نطاق التشريع :

قد يظن البعض حين يسمع هذه الحقائق الرئيسية ان الدولة الاسلامية بهذه الصورة لا مجال فيها امام الانسان على الاطلاق لقيامه بالتشريع والتقنين . لان الله في هذه الدولة هو المشرع الوحيد ، ولا عمل للمسلمين سوى اتباع قانونه وتشريعاته التي قدمها لهم الرسول عليه الصلاة والسلام

غير ان الاسلام في الواقع لم يغلق باب التشريع تماما في وجه الانسان ، وانما حدده وضيق اطاره بان جعل الحاكمية والسيادة للقانون الالهى . فما هي الدائرة التي يقوم الانسان فيها بالتشريع في ظل هذا القانون الاعلى ؟ هذا ما ساوضحه باختصار فيما يلى :

توضيح الاحكام :

ثمة قسم من امور الحياة الانسانية اصدر القرآن والسنة فيه حكما قاطعا ، او وضعا له قاعدة خاصة ، وفي مثل هذه الامور لا يستطيع اى فقيه او قاض او مشرع ان يغير ما صدر فيها من احكام او ما تقرر لها من قواعد. لكن هذا لا يعنى ان الانسان لايستطيع التحرك في ميدان التشريع في هذه الامور ، فدائرة عمله فيها ان يعرف جيدا الحكم الصادر ثم يحدد ويعين مفهومه واصله ، ويتحقق من الظروف والحالات التي يختص بها هذا الحكم ، ثم يستخرج بالفعل الاشكال والصور التي ينطبق فيها هذا الحكم على مايقع من المسائل مستقبلا ويقوم بوضع الدقائق والتفاصيل الجزئية لمجمل الاحكام

ثم يحدد فى كل هذه الأمور مدى تعطيل هذه الأحكام والقواعد فى الحالات الاستثنائية .

القيـــاس :

كما تضم حياة الانسان قسما آخر يشمل المسائل التى لم تدل الشريعة فيها بحكم ، لكنها اصدرت حكما فى أمور تشابهها وممارسة التشريع فى هذا القسم تكون بفهم اسباب الأحكام وعللها فهما دقيقا ، وتنفيذها فى الأمور التى تكمن فيها نفس العلل والدواعى . وتحديد ما هو مستثنى من هـذه الأمور وما يخلو حقيقة من اسباب الحكم ودواعيه .

الاستنباط :

كما أن هناك قسما ثالثا لم تبين فيه الشريعة أحكاما بعينها ، وانما أعطت فى شأنه بعض المبادىء العامة الجامعة ، أو بين فيه الشارع المستحب المطلوب فعله والمكروه الذى ينبغى منعه وازالته . ومهمة التشريع فى هذه الدائرة فهم مبادىء الشريعة وأصولها فى هذه المسائل ، وكذلك قصد الشارع مما قرره من مبادىء ثم وضع القوانين فى الأمور الواقعيـة الفعليـة بحيث تبنى على ما أوضحته الشريعة من أصول ومبادىء ، وبحيث يتحقق منها قصد الشارع وهدفه .

دائرة التشريع الحر :

كذلك ثمة قسم من حياة الانسان سكتت الشريعة عنه تماما فليس فيه حكم صريح أو قياسى أو مستنبط . وهذا السكوت فى حد ذاته دليل على أن الحاكم الاعلى أعطى الانسان حق ابداء رأيه فى امور ومسائل هذا القسم .
ومن ثم يمارس الانسان التشريع فيها بحرية تامة شريطة أن يتطابق ما يشرعه ويتلاءم مع روح الاسلام ومبادئه العامة ، ولا يشذ فى مزاجه عن مزاج الاسلام العام الذى يكسو نظام الحياة الاسلامى ويسوده .

الاجتهاد :

ان التشريع الذى يحرك نظام الاسلام القانونى وينميه ويضيف اليه بمرور ظروف الزمن وحالاته وتجددها انما يتم عن طريق بحث علمى خالص وتحقيق عقلى دقيق . ويسمى بالاصطلاح الاسلامى « الاجتهـاد » . والمعنى اللغوى لهذا اللفظ « بذل قصارى الجهد فى انجاز عمل ما » ، ولكن معناه الاصطلاحى « بذل قصارى الجهد لمعرفة حكم الاسلام وهدفه فى مسألة معينة » .

وقد استعمل البعض اصطلاح « الاجتهاد » خطأ فى معنى حرية استخدام

الراى ، بيد ان اى انسان يقف على نوعية القانون الاسلامى هيهات ان يقع فى
خطا القول بان مثل هذا النظام القانونى يتسع لاى نوع من الاجتهـاد الحر
تماما ، اذ يشكل القران والسنة نواة هذا النظام واصله . ولا بد لمن يمارس
التشريع اما ان يتخذ هذا الاصل (الكتاب والسنة) اساسا للتشريع او ان
يظل داخل اطار تلك الحدود التى تتاح له فيها حرية اعمـال رايه . اما ما
يحدث من اجتهاد بعد الاستغناء عن هذا الاصل فهو ليس اجتهادا اسلاميا
ولا مكان له فى نظام الاسلام القانونى .

مؤهلات الاجتهاد :

وبما ان الغرض من الاجتهاد ليس استبدال القـانون البشرى الوضعى
بالقانون الالهى وانما فهم القانون الالهى وتحريك لنظام الاسلام القانونى تحت
ظله ليواكب مسيرة الزمان ، لذا فان اى اجتهـاد لا يصح دون أن تتوافر فى
مشرعينا الصفات التاليـة :

١ ـ الايمان بالشريعة الالهية وبأنها على الحق ، والرغبة المخلصة فى اتباعها
واستمداد الأهداف والمبادىء والمعـايير منها دون سواها ، مع عـدم
وجود الرغبة فى التحرر منها .

٢ ـ العلم باللغة العربية وقواعدها وادابها لأن القرآن منزل بها ومصـادر
التعريف بالسنة مكتوبة بها ايضا .

٣ ـ العلم بالقرآن والسنة بحيث يقف المجتهد على تفاصيـل الشريعـة
واحكامها الجزئية ، واصـولها ومبادئها الكلية على السـواء ، وفهم
الأصول والتفاصيل ، وفهم اغراضها فهما صحيحا سليما . كذلك
لا بد من العلم بخطة الشريعة الكاملة فى اصلاح الحياة الانسانية ومنزلة
كل شعبة فى الحياة وموضعها من الخطة العامة ، والخطـوط التى
ترسمها الشريعة لتشكيلها ، والمصالح التى تراها فى هذا التشكيل .
وبعبارة اخرى لا بد للمجتهد من العلم بالقرآن والسنة علما يصل الى
لب الشريعة وجوهرها .

٤ ـ العلم باعمال المجتهدين السابقين فى الأمـة والذى لا تقف ضرورته
واهميته عند حد تعليم الاجتهاد وتمرسه ، وانما هو مهم لاستمرار
وتسلسل الارتقاء القانونى ايضا . اذ أن معنى الاجتهاد ـ على اى حال
ـ ليس بل ينبغى الا يكون اعراض كل جيـل عن منجزات الأجيـال
السابقة المتروكة وشروعه فى البناء من جديد .

٥ ـ العلم بظروف الحياة العملية ومشاكلها لأن الغـاية المطلوبة هى تطبيق
احكام الشريعة ومبادئها وقواعدها عليها .

٦ - حسن السيرة والسلوك من وجهة نظر الأخلاق الاسلامية لأن الناس لا يثقون فى اى اجتهاد بدون ذلك ، كما ان الناس لا يكنون احتراما لهذا القانون الذى يصدر عن اجتهاد اناس غير صالحين .

وليس القصد من ذكر هذه الأوصاف ضرورة ان يثبت المجتهد توافرها فيه اولا ، بل الغرض منه توضيح انه لو امكن لبناء القانون الاسلامى - عن طريق الاجتهاد - ان يكون على اسس سليمة ، فهو فقط عندما يبدأ نظام التربية والتعليم القانونى فى اعداد علماء بهذه الصفات . أما ما يتم من تشريع فى غيبة هذه المواصفات فلا يمكن ان ينسجم مع النظام القانونى الاسلامى او ان يستسيغه المجتمع المسلم ويهضمه .

الاجتهاد الصحيح :

يتوقف الاجتهاد - وبالتالى قبول التشريع - على ان تتوفر فى المجتهدين الأهلية التى تحدثنا عنها ، كما يتوقف ايضا على ان يكون اجتهادا بالطريقة الصحيحة . سواء كان المجتهد يعمل فى مجال توضيح الأحكام وتفصيلها ، ام فى ميدان القياس او الاستنباط - فعلى اية حال - لابد من أن يكون القرآن والسنة وحدهما دليله فى ذلك واساس عمله بل ان من يمارس التشريع الحر فى دائرة الأمور المباحة لابد له من الاستدلال بأن القرآن والسنة لم ياتيا بحكم أو قاعدة فى الأمر الفلانى ، وأن ليس ثم أصل يمكن القياس عليه . ثم ينبغى ان يكون ما توصل اليه من استدلال من الكتاب والسنة قد تم بالطرق المعترف بها بين اهل العلم . فمن الضرورى - للاستدلال بالقرآن - الوقوف على معانى الآية من وجهة نظر معاجم اللغة العربية وقواعدها واستعمالاتها ، ومفاهيمها التى تتضح من سياق القرآن وبيانه ولا تتناقض مع تعاليمه الأخرى فى هذا الموضوع . كذلك يجب للاستدلال بالسنة - بالاضافة الى مراعاة اللغة وقواعدها وسياقها - معرفة سند الروايات فى الموضوع الفلانى ومدى صحته من ناحية علم الرواية واصوله . كذلك الاهتمام بالروايات الأخرى الموثوق بها فى هذا الموضوع ولا ، يستنتج من اية رواية ما يخالف السنة الثابتة فى المصادر الثقة المعتمدة .

ان الاجتهاد الصادر عن تأويلات وتفاسير عشوائية دون مراعاة لهذه الاحتياطات والشروط من المستحيل أن يقبله ضمير المسلمين الاجتماعى أو أن يصبح جزءا حقيقيا من نظام الاسلام القانونى حتى ولو صار فى منزلة القانون عن طريق القوة السياسية ، وسرعان ما يلقى به فى سلة المهملات بمجرد الاطاحة بالقوة السياسية التى نفذته .

كيف تصبح للاجتهاد منزلة القانون :

توجد فى نظام القانون الاسلامى عدة حالات صارت لبعض الاجتهادات

فيها منزلة القانون الاولى ما يجمع عليه كافة أهل العلم فى الامة . والثانية الاجتهادات الشخصية او الجماعية التى يبدأ الناس من انفسهم فى اتباعها بعد ان تلقى بينهم قبولا عاما ، ومثال ذلك اتخاذ بعض المدن الاسلامية الكبرى الفقه الحنفى أو الشافعى او المالكى او الحنبلى قانونا لهـا . والثالثة : الاجتهادات التى اعترفت بها اية حكومة اسلامية واقرتها قانونا لها ، مثلما اتخذت الدولة العثمانية الفقه الحنفى قانونا لها . والرابعة : الاجتهادات التى تقوم بها اية مؤسسة اسلامية ذات صفة دستورية فى مجال السياسة . اما ما يقوم به العلماء من اجتهادات ـ عدا هذه الحالات ـ فلا يتعدى منزلة الفتاوى .

اما الأحكام التى يصدرها القضاة فلابد من تنفيذها كقوانين فى قضايا خاصة ، ولها صفة السوابق النمطية Precedents لكنها ليست قوانين بالمعنى الكامل الصحيح . وحتى أحكام واوامر الخلفاء الراشدين التى كانوا يصدرونها بوصفهم قضاة لم يكن يعترف بها فى الاسـلام كقوانين لأن نظام القانون الاسلامى يخلو من وجود قوانين من صنع القضاة Judge Made Law

بعض الاعتراضات والرد عليها :

سأحاول فى السطور التالية الرد بايجاز شديد على ما اثير من اعتراضات حول ما كتبته آنفا عن التشريع والاجتهاد فى الاسلام .

وقد اثير الاعتراض الأول حول المنزلة والمكانة التى اعطيت للسنة النبوية الى جانب القرآن . وسأرد عليه فى عدة نقاط كى تتضح المسالة امامكم دون ما غموض أو لبس .

١ ـ ان الحقيقة التاريخية التى لا تقبل الانكار او الشك ان محمد صلى الله عليه وسلم بعد تشريفه بالنبوة لم يقصر عمله على تبليغ القرآن من عند الله وكفى ، انما كان يقود حركة عامة شاملة نتج عنها قيام مجتمع مسلم . فبأى صفة كان هذا العمل الثانى ـ غير تبليغ القرآن ـ يصدر عنه صلى الله عليه وسلم ؟ اكان يصدر عنه بوصفه نبيا ومن ثم كان يعبر فيه عن رضا الله كما عبر القرآن عن هذا الرضا ؟ أم ان صفة نبوته انتهت بانتهاء تبليغ القرآن وبقى بعد ذلك مسلما كعامة المسلمين لايحمل قوله او فعله اى سند او حجة قانونية ؟ فان سلمنا بالقول الأول فلا محيص من قبول السنة مصدرا قانونيا الى جانب القرآن . وبالطبع لا داعى لاعتبارها كذلك فى الحالة الثانية .

٢ ـ ومن ناحية القرآن فهو واضح تمام الوضوح فى ان محمدا عليـه الصلاة والسلام لم يكن مجرد رسول من الله بل كان ايضا زعيما معينا من قبله تعالى ، وحاكما ومعلما يجب على المسلمين اتباعه وطاعته ، وان حياته

نموذج على المسلمين ان يحتذوه . واما من ناحية العقل فهو يرفض الاقتناع بان يبقى اى نبى نبيا حلال فترة تلاوته وتبليغه كلام الله فقط حتى اذا ما انتهى هذا العمل تحول الى مجرد انسان عادى كعامة النـــاس . واما من ناحية المسلمين فهم يسلمون منذ بداية الاسلام حتى اليوم فى اى زمان واى مكان بان محمدا عليه صلوات الله وسلامه نموذج واجب الاتباع ، وان اوامره ونواهيه واجبة الطاعة حتى ان اى عالم غير مسلم لا يستطيع ان ينكر قبول المسلمين حيثية محمد صلى الله عليه وسلم هذه . وعلى هذا قبلت السنة مصدرا تشريعيا قانونيا الى جانب القرآن فى نظام القانون الاسلامى . ولا ادرى كيف يمكن لأى انسان ان يعارض صفة السنة القانونية هذه ، ولا يكون قد صرح بان محمد كان نبيا فى فترة تلاوته القرآن وتبليغه اياه فقط ، وان نبوته انتهت بانتهاء هذه المهمة . فان ادعى ذلك فليقل لنا هل أعطى محمد عليه الصلاة والسلام هذه المنزلة لنفسه ام ان القرآن أعطاها له ؟ فان كانت الأولى فلا سند ولا أساس لها فى الاسلام ، وان كانت الثانية فاثباتها لن يكون الا بآيات القرآن .

٣ ـ بعد ان سلمنا بان السنة فى ذاتها مصدر قانونى ، يظهر سؤال آخر هو : ما هى وسيلة توضيحها ؟ واجيب عليه باننا اليوم وبعد مرور حوالى اربعة عشر قرنا لم تظهر امامنا مشكلة الاستفسار عن السنة التى تركتها هذه النبوة التى بعثت قبل الف ونصف الف من الأعوام . ان ثمة حقيقتين تاريخيتين لاتقبلان الرفض: أولاهما ان ذلك المجتمع الذى كان قائما فى الأيام الأولى من بداية الاسلام على تعاليم القرآن والسنة لا يزال حيا الى اليوم ، ولم يحدث ان انقطع تسلسل حياته يوما واحدا ، ولا زالت كل نظمه تتواتر طيلة هذه المدة . فثمة تشابه كبير الى أقصى حد بين المسلمين فى العالم كله من ناحية العقائد وأسلوب التفكير والأخلاق والقيم والعبادات والمعاملات ونظرية الحياة وطريقة العيش . هذا التشابه تزداد فيه نسبة التوافق على نسبة الاختلاف ، ويشكل اول وامتن أساس فى جعلهم أمة واحدة بالرغم من تفرقهم وتبعثرهم على وجه المسكونة . وهذا دليل واضح جلى لاثبـات ان هذا المجتمع كان مبنيا على سنة واحدة ، وان هذه السنة لا تزال مستمرة عبر هذه القرون الطويلة ، وانها ليست شيئا مفقودا ضائعا نتحسس اثره فى الظلام بحثا عنه .

ثانيتهما ان المسلمين فى كل زمن بعـد النبى عليه الصـلاة والسـلام مستمرون فى القيام بمحاولات متتالية متصلة لتوضيح ما هى السنة الثابتة وما هو الجديد المستحدث الذى ابتدع واقحم فى نظام حياتهم . وبمـا ان السنة كانت عندهم ذات صفة قانونية ، وكانت محاكمهم تفصل فى قضاياهم على اساسها ، وكانت أمور حياتهم اجمعهـا من شئون المنازل الى مهام الحكومات تسير وفق هديهـا ، لذا لم يكن فى مقدورهم اهمـال تحقيقهـا

ومعرفتها . وطرق هذا التحقيق ونتائجه نجدها متوارثة منذ عصر الخلافة الاسلامية الأولى حتى اليوم جيلا بعد جيل ، وما جريات كل جيل محفوظة بلا انقطاع ولو فهم أى انسان هاتين الحقيقتين فهما جيدا ودرس مصادر توضيح السنة دراسة علمية متصلة ، لما اصابه الشك فى ان هذا لغز محير قد وقع فيه .

٤ ـ ما من شك فى ان تحقيق السنة وتعيينها قد حدثت فيه اختلافات كثيرة وقد تحدث فى العصور المقبلة ايضا ، وكذا الحال بالنسبة لتحديد معانى احكام القرآن وآياته فاذا كانت هذه الاختلافات لم تتخذ حجة لالقاء القرآن خلف الظهور ، فكيف يمكن أن تتخذ حجة لترك السنة واغفالها ؟ ان اى شخص يدعى أن حكم القرآن او السنة فى مسالة ما هو كذا وكذا لابد له من البرهنة على دعواه فان كان ما يزعمه سليما معقولا فسيجبر اهل العلم فى الأمة أو اكثريتهم على اقراره والتسليم به والا فمن المحال قبوله والاعتراف به وهذا المبدأ قبل واعترف به فيما مضى ولا مفر اليوم من قبوله والتسليم به ، وعلى أساسه التفت عشرات الملايين من المسلمين فى أجزاء مختلفة من العالم حول أحد المذاهب الفقهية ، وبناء عليه أقامت كبريات مدنهم نظامها الاجتماعى على أحد تفسيرات احكام القرآن واحدى مجموعات السنة الثابتة .

اما الاعتراض الثانى الذى أخذ على مقالى السابق فهو أن كلامى يناقض بعضه بعضا ، يعنى القول بأن ليس لأحد سلطة تبديل الأحكام الصريحة القطعية الواردة فى الكتاب والسنة يتناقض فى راى صاحب الاعتراض مع القول بامكانية التراجع فى هذه الأحكام فى ظروف وأوضاع استثنائية ، وأن هذه الحالات والظروف يمكن ان تتعين عن طريق الاجتهاد .

وانا لا ارى اى تناقض فى هذا ، فالاستثناء من القاعدة العامة فى ظروف تجريبية خاصة امر موجود فى كل قانون فى العالم . وفى القرآن نفسه أمثلة كثيرة لهذا الترخيص . وقد عين الفقهاء عن طريقها تلك المبادىء التي يجب وضعها فى الاعتبار عند الترخيص بالاستثناء وحالاته ، مثل قولهم «الضرورات تبيح المحظورات » و « المشقة تجلب التيسير » .

اما الاعتراض الثالث فعلى اولئك الذين ذكروا فى كتاباتهم بعض شروط للاجتهاد . ولما كنت واحدا منهم فان الرد على هذا الاعتراض يقع على عاتقى ايضا . فأقول : فلتتكرموا باعادة النظر فى هذه الشروط التى بينتها ، ثم قولوا لنا اى شرط تريدون حذفه واسقاطه . هل شرط ضرورة وجود الرغبة الخالصة لدى المجتهدين فى اتباع الشريعة وعدم الخروج عن حدودها ؟ أم شرط ضرورة العلم بلغة القرآن والسنة اى اللغة العربية ؟ أم دراسة القرآن

والسنة بعمق لفهم نظام الشريعة فهما جيدا ؟ ام الاهتمام بأعمال المجتهدين السابقين ؟ ام العلم بمشاكل الحياة وامورها ام الا يكون المجتهدون ممن هم على سلوك سيىء واخلاق ساقطة من وجهة نظر ميزان الأخلاق الاسلامى؟

ارجو ان تحددوا من هذه الشروط ما ترونه غير ضرورى . اما زعمكم اننا لن نلقى فى العالم الاسلامى كله اكثر من عشرة اواحد عشر شخصا تنطبق عليهم هذه الشروط ، فهو فى نظرى زعم يسىء الى مسلمى العالم اجمعين. ان اعداءنا ومخالفينا انفسهم لا يعتبروننا الآن على درجة من الانحطاط لا يزيد معها تعداد من تتوافر فيهم هذه الصفات فينا على بضعة اشخاص او يزيدون من بين اربعمائة او خمسمائة مليون مسلم . وان اردتم ان نفتح باب الاجتهاد على مصراعيه امام كل من هب ودب فلكم منا ذلك ، ولكن اخبرونى بالله عليكم كيف تجعلون جمهور المسلمين يستسيغ ويهضم هذا الاجتهاد الذى يقوم به اناس لا علم لديهم ولا خلاق ، ويخالط الشك نيتهم واخلاصهم ؟

التشريع والشورى والاجماع :

كتب الى احد الأصدقاء حول مسالة التشريع الاسلامى يقول :

« يتناول الناس موضوع « التشريع فى الاسلام وتحديد دائرته » بطريقة بين الافراط والتفريط . فبينما يقال الا مجال لممارسة الانسان التشريع فى الاسلام ، وان القانون قد وضعه الله ورسوله ومهمة المسلمين اتباعه وتنفيذه ، اذا بنا نرى ابعض يقول ان دائرة قيام الانسان بالتشريع واسعة فى الاسلام حتى ان اعطى الحكام المسلمون الحق فى ادخال التغيير والنسخ على التفاصيل التى اقرها الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بالعبادات ففى استطاعتهم مثلا الحذف والاضافة فى الأشكال العملية للصلاة والصيام .

ونرجو ان تتكرموا بتوضيح حدود التشريع واقسامه المختلفة فى الاسلام، وما هى الصفة القانونية لاحكام الخلفاء الفردية وآراء ائمة الفقهاء والمجتهدين ومن الأفضل القاء الضوء على حقيقة الشورى والاجماع .

الجـواب

(١) مبادىء التشريع :

ليس فى دائرة العبادات فى الاسلام اى مجال لممارسة الانسان التشريع على الاطلاق لكن ثمة بالطبع امكانية ممارسته فى الأمور والمسائل التى سكت الكتاب والسنة عن تبيانها . ان مبادىء التشريع الأساسية فى الاسلام هى

، ان ادوا ما ذكر من العبادات ، ولا تبتدعوا طريقة جديدة للعبادة ، اما فى مجال المعاملات فما صدر فيه حكم فاطيعوه ونفذوه ، وما نهيتم عنه فانتهوا، وما اختار الشارع (لله ورسوله) الصمت ازاءه فانتم احرار فى أمره بما يتفق ونظرتكم الصائبة على الا تشذوا فيه عن روح الاسلام العامة .

وقد اوضح الامام الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » هذه المبادىء فقال :

« وحكم الامور العادية يختلف عن حكم العبادات . فقاعدة الأمور العادية ان ما اختير الصمت ازاءه كأنه قد صدر فيه الاذن بعمل ما هو مستصوب ، خلافا للعبادات التى لا يمكن فيها استنباط ما لم يوجد فى اصل الشريعة بشأنها . لأن مصدر العبادات على عكس الأمور العادية يرتبط بالحكم الصريح . وسبب هذا الاختلاف ان عقولنا تستطيع ادراك الصواب فى الأمور العادية ، لكننا لا نستطيع ان ندرك بهذه العقول طريق التقرب الى الله » (١)

(٢) شعاب التشريع الأربع :

هناك اربع شعب للتشريع فى مجال المعاملات :

(أ) توضيح الأحكام وتفسيرها ، ويعنى تحديد معانى ومقاصد النصوص التى صرح الشارع فيها بالأمر أو النهى بالنسبة للمعاملات .

(ب) القياس ، ويعنى أن ما لا يوجد فيه من هذه الأمور حكم صريح مباشر من الشارع ولكن ثمة أمور أخرى متفرقة متشابهة ، فعمل القياس فيه هو تشخيص علل هذه الاحكام فى وقائع مماثلة .

(ج) الاستنباط والاجتهاد ، ويعنى مطابقة مبادىء الشريعة واصولها الواسعة المذكورة على المسائل الجزئية ، وفهم اشارات النصوص ودلالاتها ومقتضياتها وايضاح الشكل الذى يريد الشارع أن يضع فيه أمور حياتنا .

(د) وضع القوانين التى يجب تنفيذها بالنسبة للمسائل التى لم يعط الشارع فيها اية قاعدة بما يتفق واهداف الاسلام العريضة بحيث لاتتعارض مع روح نظام الاسلام الكلى ومزاجه العام . وقد سمى الفقهاء هذا « بالمصالح المرسلة » و « الاستحسان » وغيره . وتعنى « المصالح المرسلة » المنافع العامة التى نستصوبها ، اما « الاستحسان » فيعنى اذا صدر حكم فى مسألة ما عن طريق القياس الا ان المصالح الدينية الأعظم تتطلب حكما آخر فان الحكم الثانى ينفذ لأفضليته على الحكم الأول .

---

(١) نص مترجم — المترجم .

(٣) المصالح المرسلة والاستحسان :

وارى من الضرورى القاء مزيد من الضوء على موضوع المصالح المرسلة والاستحسان . وقد كتب الامام الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » بابا مستقلا عن هذا الموضوع وشرحه شرحا ممتعا وافيا ليس ثم ما يفضله فى اى كتاب من كتب اصول الفقه الأخرى ، وهو يثبت فيه بعد تفصيل الأدلة والبراهين ان المراد بالمصالح المرسلة ليس الحرية التـامة فى التشريع كمـا فهم بعض الناس ولكن لابد لها من شروط ثلاثة :

الأول : ان ما يوضع من قوانين بهـذه الطريقة تتحتم مطابقته لمقاصـد الشريعة لا مخالفته لها .

الثانى : انتقبله عامة العقول التى يقدم اليها .

الثالث : ان يكون لسد ضرورة حقيقية أو لرفع مشكلة أساسية .

ثم يقول فى بحثه عن الاستحسان :

« اذا صدر حكم قياسى فى مسألة ما بناء على حجة ودليل لكن الفقيه رآه مخالفا للمصلحة ، أو لزمه عيب أو حرج يستحسن رفعـه من وجهة النظر الاسلامية ، أوكان مخالفا للعرف فان العدول عنه الى حكم آخر مناسب هو الاستحسان . وعموما يشترط للاستحسان ضرورة وجود سبب أقوى ثابت بالادلة المعقولة للعدول عن الحكم القياسى واصدار حكم مغاير » (١) .

(٤) الفرق بين احكام القضاء والقانون :

قد يكون الراى الشخصى الذى يدلى به اى امام أو مجتهد ، أو التحقيق والبحث الذى يقوم به فيما يتعلق بتلك الشعاب الأربع راى وتحقيق خبير ماهر يتفق ووزن الشخصية العلمية التى صدر عنها ، الا انه لا يمكن أن يكون قانونا بأى حال من الأحوال . اذ لابد لوضع القانون من شـورى أهل الحل والعقد فى الدولة الاسلامية . ومن الضرورى أن يختاروا اى تفسير أو قياس او استنباط أو اجتهاد أو استحسان أو مصلحة مرسلة ليقـروه ويجعلوه قانونا باجماع منهم أو موافقـة أغلبيتهم ، وقد كان هـذا ديدن التشريع فى الخلافة الراشدة . وسأورد بعض الأمثلة التى توضح كيف كان التشريع فيما يعرض للخلافة الراشدة من ضرورات قومية ودينية ، والفرق بين «القانون» واحكام القضاء فى ذلك العصر :

(أ) حرم القرآن الخمر ، لكنه لم يقرر حدا وعقوبة لشربها ، ولم يقرد الرسول بشأن ذلك حدا خاصا فى زمنه ، بل كان يوقع من العقوبات ما يراه

---

(١) نص مترجم ــ المترجم .

مناسبا . اما ابو بكر وعمر رضى الله عنهما فكانا يعاقبان على ذلك بأربعين جلدة لكنهما لم يضعا قانونا دائما يختص بعقوبة شرب الخمر . ولما زادت الشكوى من شرب الخمر فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه « تشاور » مع مجلس شورى الصحابة فاقترح على رضى الله عنه أن يكون العقاب ثمانين جلدة ، فوافق مجلس الشورى على ما اقترحه ، وتقرر ذلك قانونا « بالاجماع » ليطبق على ما يحدث مستقبلا .

(ب) حدث فى زمن الخلفاء الراشدين أن وضع قانون يقضى بأن لو اعطى الصانع شيئا لصنعه (مثل القماش لخياطته أو الحلى لصنعته) ، وضاع منه ، فعليه أن يؤدى قيمته لصاحبه . وهذا ما تقرر بناء على راى سيدنا على رضى الله عنه بأن الصانع اذا فقد منه الشيء سهوا وغفلة . واخذنا بظاهر الامر ولم يؤخذ بذلك ، فقد يتهاون الصناع فى حفظ اشياء الناس . لذا تقتضى المصلحة أن يكون الصانع ضامنا لما يعطى له . وتمت الموافقة على هذا بالاجماع .

(ج) قضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه اذا اشترك عدة اشخاص فى قتل احد ، يؤخذ القصاص منهم جميعا . وقبل الامام الشافعى ومالك هذا الحكم ، لكنه لم يعترف به قانونا لأنه كان حكما قضائيا لم تتم الموافقة عليه بالشورى والاجماع .

(د) اذا تزوجت امراة المفقود من آخر بتصريح من المحكمة ، ثم ظهر زوجها الغائب المفقود فهل تعود الى زوجها الأول أم تظل عند الثانى ؟ وقد اصدر الخلفاء الراشدون فى هذه القضية احكاما مختلفة ، لكن احدها لم ينل صفة القانون لأن هذه المسألة لم تعرض على مجلس الشورى ويوافق عليها بالاجماع أو بالاغلبية .

نقف مما ذكرناه على ان احكام القضاء فى الاسلام ليست لها الصفة القانونية التى تنالها هذه الاحكام فى القانون الانجليزى ، فالسوابق النمطية Precedents لأحكام القضاة فى القانون الانجليزى لها سلطة القانون بينما فى القانون الاسلامى — على الرغم من ضرورة نفاذ ما يصدره القاضى من أحكام بناء على توضيحه وتفسيره لنص ما ، أو بناء على قياسه او اجتهاده — الا انها لا تكون لها صفة القانون الدائم ، بل ان القاضى نفسه قد لا يكرر بشكل دائم ما اصدره من حكم فى قضية ما فى القضايا المماثلة ، اذ من الممكن ان يفصل فى قضايا أخرى مشابهة بأحكام تختلف عن حكمه الصادر فى القضية الأولى اذا ما اتضح له خطأ رأيه السابق .

ولما اضطرب نظام الشورى بعد الخلافة الراشدة اصبحت لمختلف نظم الفقه — التى أعدها ورتبها ائمة المجتهدين — صفة نصف قانونية على اساس

ان الاغلبية العظمى من اهل اقليم اوبلد ما اختارت السير على فقه امام بعينه، مثل فقه الامام ابى حنيفة فى العراق ، وفقه الامام مالك فى الأندلس ، وفقه الامام الشافعى فى مصر وهكذا . لكن هذا القبول العام لم يجعل اى فقه منها فى منزلة القانون بالمعنى الصحيح ، ولم يصبح قانونا الا على أساس اعتراف حكومة البلاد به قانونا لها .

الاجمـــاع :

اختلفت اقوال العلماء فى تعريف الاجماع . فهو عند الامام الشافعى رحمه الله ما يتفق عليه كافة اهل العلم فى مسألة ما ولا يختلف عليه احد ، وعند ابن جرير الطبرى وابى بكر الرازى راى الأكثرية اجماع . وعندما يقول الامام احمد رضى الله عنه فى مسألة ما « وليس فى علمنا قول يخالف هذا » فمعناه فى رايه ان عليها اجماعا .

والمسلم به عند الجميع ان الاجماع حجة . يعنى ان ما اجمعت عليه الامة من تفسير لنص او قياس او اجتهاد او قانون مصلحة يجب اتباعه. لكن اختلاف الأئمة والعلماء ليس فى ان الاجماع حجة أم لا وانما فى حدوث الاجماع وثبوته . ولما كان نظام المجتمع الاسلامى قائمافى عصر الخلافة الراشدة وكان يسير على الشورى ، فاناحكام الاجماع ثابتة عن طريق الروايات المعروفة الصحيحة اما حينما اضطرب نظام المجتمع فى عصر ما بعـد الخلافة الراشدة ، وانتهى الاخذ بنظام الشورى لم تعد هناك وسـيلة لمعرفة اى الأمور عليها اجماع فى الحقيقة وايها ليس عليها اجماع . وعلى هـذا ينبغى التسليم باجماع عصر الخلافة الراشدة اجماعا لا يقبل الرفض او الشكوك . فاذا ادعى شخص ان الأمر كيت وكيت كان عليه اجماع فى عصر ما بعد الخلافة الراشدة ، فعلى المحققين رد هذه الدعوى ورفضها .

وما اشتهر بوجه عام عن الامام الشافعى او الامام احمد بن حنبل رضى الله عنهما او غيرهما من انكار للاجماع من أساسه انما هو ناتج عن عـدم فهم ما ذكر آنفا . واصل الحكاية انه حين كان يدعى بعض الناس فى بحث مسألة ما ان آراءهم واقوالهم عليها اجماع ، بينما ليس ثم دليل على ثبوت ادعاءاتهم وصحتها ، كان هؤلاء الائمـة يرفضون قبولها . وقد بحث الامام الشافعى هذا فى كتابه « جماع العلم » بحثا مفصلا بين فيه إنه أصبح من العسير معرفة راى العلماء كافة فيما يتعلق بالمسائل الجزئية بعد ان تفرق اهل العلم فى ارجاء الدنيا ، وتفكك واضطراب نظام الجماعة . ومن هنا فان ادعاء الاجماع بشأن الجزئيات ادعاء خاطىء . وبالطبع لا بد من القـول بالاجماع فيما يخص مبادىء الاسلام واركانه واسسه ومسائله الكبرى كالصلاة وعدد اوقاتها وركعاتها ، والصيام وحدوده وما يتصل به وما الى ذلك .. ويوضح الامام ابن تيمية هذا فى « الفتاوى » فيقول :

« والاجماع يعنى اتفاق علماء المسلمين كافة على حكم ما ، فان
ثبت اجماع الأمة كلهاعلى امر . فلاحق لاحدفى الخروج عليه .
اذ الأمة لا تتفق كلها على الضلال . لكن ثم كثير من الأمور يظن
الناس أن عليها اجماعا وما هى بذلك فعلا ، بل يرجع فيها
فى اكثر الأحيان قول آخر » (١) .

يتبين مما سبق انه لو اجمع الآن اهل الحل والعقد او اكثرهم بالفعل
على توضيح وتفسير نص شرعى ، أو قياس او اجتهاد او استنباط او اجراء
او مصلحة فى مسألة ما ، فلابد من أن يصير اجماعهم حجة ويعترف به قانونا.
وعلى هذا فلو اجمع أهل الحل والعقد فى العالم الاسلامى كله على امر ما فان
اجماعهم يصبح قانوناللعالم الاسلامى اجمع ، وان اجمع اهل الحل والعقد
عليه فى بلد فلا بدوان يصير قانونا لهذاالبلد .

الفصل فى المنازعات فى النظام الاسلامى :

كتب الى احد القراء يقول :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »

النساء ٥٩

« قلتم فى تفسير هــذه الآية فى كتابكم « تفهيم القرآن » ان ما تقرر
نبهاكمبادىء دائمة قطعية هو ان حكم الله وسنة الرسول هما القانون الأساسى
والصدر الأول والأخير فى النظام الاسلامى . فما يحــدث من نزاع بين
المسلمين وبعضهم أو بين الحكومة والرعايا ينبغى الرجوع الى القرآن والسنة
للفصل فيه ، فان صدر عنهما فيه حكم فلابد من اذعان الجميع له وتسليمهم
به . ومن ثم فالتسليم بالكتاب والسنة مصدرا ومرجعا اساسيا وحيدا فى
كافة مشاكل الحياة هو الخاصة الأساسية فى النظام الاسلامى والتى تميزه
عن نظام الحياة الكافرة .

ويتضح من شرحكم هذاان احكام الله والرســول هى الفيصل فى كل
المنازعات . ولقد كان الرجوع الى الرسول عليه الصلاة والسلام ســهلا
ميسورا اثناء حياته فكيف الآن وهــو ليس بين ظهرانينا وليس لدينا
الا اقواله وتعاليمــه ؟ واذا بدت لنا الآن مشكلة توضيح حــكم من احكام

(١) نص مترجم — المترجم .

الاسلام فأى شخص أو هيئة فى النظام الاسلامى تكون لها السلطة الأخيرة للفصل وتحديد قصد الشريعة فيها ؟

نامل ان توضحوا لنا حقيقة هذا الأمر .

الجـواب :

ان هذه المشكلة التى ذكرهاصاحب السؤال سيعيننا على حلها كل من القرآن والسنة ، ونهج الصحابة الكرام والعقل العام ، وأسلوب العــالم المعاصر ولننظر – قبل كل شىء – الى القرآن .

ان القرآن يقرر لنا فى هذا الأمر ثلاث قواعد أساسية :

اولا : « **فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** » النحل ٤٣ ، الأنبياء ٧ وتعبير « **اهل الذكر** » فى هذه الآية يوضح المعنى بجـلاء فقط « **الذكر** » فى اصطلاح القرآن استعمل بوجه خاص للدلالة على الدرس الذى لقنه الله ورسوله أمة من الامم ، واهل الذكر هم فقط أولئك الذين يذكرون هذا الدرس . ومن ثم لا يفهم منه معنى العلم knowledge فقط وانما يتحتم ان يكون اطلاقه مقصورا على علم الكتاب والسنة وحده . وعلى هــذا تقرر الآية أن درجة « المرجعية » ومرتبتها لا تكــون الا للعارفين بكتاب الله والطريقة التى اوضح رسول الله كيفية السير عليها .

ثانيا : « **واذا جاءهم امر من الأمن أو الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمــه الذين يستنبطونه منهم** »

النســاء ٨٣

ويبين من هذه الآية ان « المرجع » فيما يعرض للمجتمع من أمور هامة تتعلق بالسلم أو الحرب هم أولو الأمر بين المسلمين . اى من تقع على كاهلهم مسئولية ادارة امور المجتمع ومن يصلحون للقيام « بالاستنباط » . أو بمعنى آخر من يستطيعون معرفة حقيقة ماوقع من أمور، وادراك ماينبغى عمله فى مثل هذه الحالة من واقع كتاب الله وسنة الرسول .

وتقرر الآية الرجوع الى « أولى الأمر » بدلا من « أهــــل الذكر » فيما يتعلق بالمشاكل الاجتماعية وأمور المجتمع الهامة . ولكن لا بد من كونهم من « أهل الذكر » حتى يتمكنوا من اصدار الرأى الصواب فى مسألة ما عن طريق رجوعهم الى حكم كتاب الله وسنة رسوله القولية والعملية فى سابقة تماثلها .

ثالثا : « **وامرهم شورى بينهم** »

الشورى ٣٨

وتوضح هذه الآية الطريقة التى يجب ان تكون عليهاامور المسلمين فى مجتمعهم .

وبالنظر الى هذه القواعد الثلاث مجتمعة ، يتضح ان الصورة العملية لتنفيذ معنى قوله تعالى « **فردوه الى الله والرسول** » فى كل المنازعات ، هى ان يرجع الناس فيما يعن لهم من امور فى سائر ميادين حياتهم الى « **اهل الذكر** » فيما بينهم ، ويستفسروا منهم عن حكم الله والرسول فى هذه الامور . اما المسائل ذات الاهمية بالنسبة لمصير البلد والمجتمع فيجب ان يرفعوها الى اولى الأمر ، ويحاولوا ــ عن طريق تشاورهم فيما بينهم ــ الوصول الى اى الآراء والحلول اصوب واحق من وجهة نظر كتاب الله وسنة رسوله .

رفع النزاع فى عصر الرسول :

لقد كان عليه الصلاة والسلام اثناء حياته العطرة يفصل بنفسه فيما كان يرفع اليه بما يرضى الله ورسوله . بيد ان ما كان يطرا على حياة الناس فى كافة المدن العديدة بين ارجاء الدولة الاسلامية ، لم يكن يرفع اليه من اوله الى آخره ليفصل فيه بنفسه مباشرة . فكان صلى الله عليه وسلم يرسل الى مختلف المدن والامصار معلمين ينوبون عنه ليعلموا الناس دينهم . فكان الناس يطلعون عن طريقهم على حكم الله وطريقة الرسول ونهجه فى كل ما يعرض لهم من امور فى حياتهم اليومية . هذا بالاضافة الى وجود امير وعامل وقاض فى كل اقليم ليفصلوا بانفسهم فى اكثر الامور التى تقع فى نطاق دائرتهم . وقد اوضح الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الاسلوب الذى يرضاه لتنفيذ معنى الآية «**فردوه الى الله والرسول**» وهذا جلى واضح فى حديث معاذ بن جبل المشهور « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذا الى اليمن فقال كيف تقضى ؟ قال : اقضى بما فى كتاب الله . قال : فان لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : اجتهد رايى . قال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله » (الترمذى ــ باب الأحكام ــ ابو داود كتاب الأقضية) .

وقد اسس النبى عليه الصلاة والسلام فى عهده المبارك نظام الشورى، فكان ان وقع ما ليس فيه حكم من الله شاور فيه اهل الراى فى المجتمع. ومثال ذلك تشاوره حول ما يختار الناس عمله للتجمع فى اوقات الصلاة ، والذى اقرت فى نهايته طريقة الاذان .

فى عصر الخلافة الراشدة :

كان منهاج عصر الخلافة الراشدة يطابق الى حـد كبير ما كان عليه زمن الرسول . وما بينهما من فرق هو وجود الرسول بشخصه فى العصر الأول، فكانت له السلطة الأخيرة للفصل فى الأمور . اما بعـد وفاته فقد انتقلت هذه السلطة الى احاديثه وما اثر عنـه من سنة حفظت فى صدور النـاس واذهانهم .

ولقد وجدت فى عصر الخلافة ثلاث دوائر مستقلةكانت منزلتها ومكانتها تفسيرا وشرحا لمعنى قول الله « **فردوده الى الله والرسول** » :

اولها : عامـة اهل العلم الذين كانوا يعرفون كتاب الله ، كما كانوا على علم بأحكام رسوله عليه الصلاة والسلام ، او بعبارة اخرى منهجه وسلوكه وما اقره قولا وعملا . ولم يكن عامة الناس وحدهم يقصدونهم طلبا للفتوى فى امور حياتهم بل كان الخلفاء الراشدون انفسهم يرجعون اليهم اذا احتاجوا الى ضرورة العلم بما اذا كان الرسول قـد اصدر فى المسألة كذا وكذا حكما ام لا . وكثيرا ما حدث ان قضى خليفة العصر برايه فى مسألة ما ، ثم رجع عنه وابدله عندما علم أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أصدر فيها حكما آخر .

ولم تكن الفائدة من وجود اهل العلم وقفا على كونهم مصدرا من مصادر العلم لعامة الناس واولى الأمر علىالسواء ، وانما كانت فائدتهم الأعم والأعظم فى ضمانهم عدم اصدار اية محكمة او حكومة أو مجلس شورى حكما يخالف كتاب الله وسنة رسوله فى اى امر من الأمور . فكان رايهم السديد الصواب حاميا ظهر النظام الاسلامى العام وكان انتباههم وتيقظهم لمنع اى حكم غير صواب ضامنا سير نظام المجتمع واتجاهه فى الوجهة القويمة . فاتفاق رايهم فى مسألة ما كان دليلا على أن راى الدين فيها واضح محدد لا يمكن اصدار حكم آخر يغايره . اما اختلاف آرائهم فكان يعنى أن فيها رأيين أو اكثر بالرغم من صدور الحكم على اساس واحد منها . كذلك كان من المستحيل ان تروج اية بدعة بين الأمة فى وجـودهم ، لأنهم كانوا موجودين لمحاصرتها والقضاء عليها من كل ناحية .

ثانيا : القضاء ويعنى المحاكم التى اوضح سيدنا عمر قوانينها وضوابطها فى كتابه الى القاضى شريح حيث قال :

« اقض بما فى كتاب الله فان لم يكن فى كتاب الله فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم فان لم يكن فى كتاب الله ولا سـنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما قضى به الصالحون

فان لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ولم يقض به الصالحون فان شئت فتقدم وان شئت فتاخر ولا ارى التاخر الا خيرا لك والسلام »[1]

(النسائى كتاب آداب القضاة)

وقد أوضح عبد الله بن مسعود رضى الله عنه هذه الضوابط فقال : « قد أتى علينا زمان ولسنا نقضى ولسنا هنالك ثم ان الله عز وجل قدر علينا أن بلغنا ما ترون فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم فليقض بما فى كتاب الله ، فان جاء أمر ليس فى كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان جاء امر ليس فى كتاب الله ولا قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم فليقض بما قضى به الصالحون ، فان جاء امر ليس فى كتاب الله ولا قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه ولا يقول انى أخاف وانى اخاف فان الحلال بين والحرام بين وبين ذلك امور متشابهات فدع ما يريبك الى مالا يريبك » .

(النسائى ـ كتاب آداب القضاة)

ولم تكن لهذه المحكمة سلطة الفصل فى المنازعات التى تنشب بين العامة وحدهم فحسب بل كانت تستمع أيضا الى دعاوى الناس ضد السلطة التنفيذية وتحكم فيها ، ولا يستثنى من المثول أمامها احد حتى ولو كان محافظ الاقليم أو الخليفة نفسه . وكان كبار اعضاء السلطة التنفيذية حتى ولو كان الخليفة نفسه أو الحكومة ذاتها يلجأون اليها ان كان لديهم دعوى شخصية أو رسمية ضد أحد ، فتقضى بالحكم الفاصل الصحيح من وجهة نظر قانون الله ورسوله .

ثالثا : أولو الأمر : يعنى الخليفة ومجلس الشورى ، وهم آخر سلطة كانت تتشاور فيما بينها وتقرر ما هو الحكم القاطع فى كتاب الله وسنة رسوله بصدد ما يعرض للمجتمع من مشاكل وما هو الأسلوب الأمثل والأصوب فى علاج ما لم يرد فيه حكم من الكتاب او السنة من وجهة نظر مبادىء الدين وروحه العامة ومصلحة المسلمين . وقد دون أكثر أحكام هذه الهيئة فى كتب الأحاديث والآثار والفقه نقلا عن مصادر وثيقة ، كما

---

(1) قد يكون المقصود بالتاخر هنا احد امرين : اما ان ينتظر القاضى مدة ليرى ما اذا كانت اية محكمة اخرى قد فصلت فى هذا الامر من قبل ، وان يرفع القاضى هذه المسألة الى الهيئة الثالثة التى سنتحدث عنها بدلا من الحكم فيها بنفسه .

دونت مع اغلبها تلك الابحاث المفصلة التى كانت تدور فى مجلس الصحابة.

ويتبين من دراستها ان القاعدة الأولى التى كانت هذه الهيئة لا تحيد عنها قيد شعرة هى الرجوع الى كتاب الله – قبل كل شىء – فى كل أمر ، ثم معرفة حكم الرسول فيه اذا كان عرض للمسلمين اثناء حياته صلى الله عليه وسلم . اما فقط حين يلتزم هذان المصدران الصمت ازاء أمر من الأمور ، فكانوا يصدرون فيه احكاما نابعة من نظرهم الثاقب ورايهم السديد الصائب . لكنهم ماكانوا يتحولون عن حكم الله ورسوله فى أمر ما ، ويقضون فيه بحكم آخر مطلقا . ولا نجد فى عصر الصحابة بأكمله مثالا واحدا يشذ عن هذه القاعدة . وبالرغم من ان السلطة النهائية الفعلية فى عصر الخلافة الرشيدة كانت لأولى الأمر وحدهم ، الا انهم كانوا يسلمون – من الناحية القانونية – بأن كتاب الله وسنة رسوله هما الفيصل والحكم النهائى ، وكان المجتمع الاسلامى يطيع سلطتهم مطمئنا الى انهم لن يحيدوا فى احكامهم عن اتباع القرآن والسنة . فلم يرد على ذهن أحدهم وهم الحكام فى البلاد ان من حقهم اصدار حكم او وضع قانون يخالف نصا من نصوص القرآن . كذلك لم يدع احد منهم ان الرسول عليه الصلاة والسلام كان ولى الأمر فى زمانه . ونحن اولو الأمر فى زماننا ، فليس فرضا علينا أن نتبع ما اصدره من احكام فى فترة حكومته . وفى أول يوم ولدت فيه الخلافة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام اعلن أول خليفة فى خطبته :

« اطيعونى ما اطعت الله ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

ويتضح تمام الوضوح من هذا الاعلان أن جهاز الحكم فى هذه الخلافة كان قائما على اساس معاهدة تقضى بأن يطيع الخليفة الله ورسوله ، فتطيع الأمة الخليفة . وبعبارة اخرى ان طاعة الأمة للخليفة كانت مشروطة بطاعته لأحكام الله ورسوله . وبالاخلال بهذا الشرط سقطت من على الأمة تلقائيا فريضة طاعة الخليفة .

منطق العقل العام :

ولنتدبر الآن قليلا معنى الآية التى نبحثها من وجهة نظر العقل العام ، وكيف يمكن تنفيذ ما تقتضيه عملا .

هذه الآية تخاطب المجتمع الاسلامى كله ، وتلزمه بثلاثة انواع من الطاعة هى على الترتيب : طاعة الله ثم طاعة الرسول ثم طاعة أولى الأمر وهم من نفس افراد المجتمع . وتامرنا ان ارجعوا الى الله والرسول للفصل فى منازعاتكم . فقصد الآية ومعناها الذى يتضح من هذا هو ان الطاعة الأصلية الواجبة على المجتمع هى طاعة الله والرسول ، اما طاعة اولى الأمر فهى تابعة مشروطة بطاعة الله ورسوله . والمراد بالنزاع ليس ما ينشب

بين العامة وبعضهم فحسب ، بل ماينشب ايضا بين الشعب واولى الامر او الحكومة . وآخر سلطة فاصلة فى كافة صور النزاع ليست سلطة اولى الأمر بل سلطة الله ورسوله التى يجب على عامة الناس واولى الأمر طاعة ما يصدر عنها من احكام . فالسؤال اذن ما معنى الرجوع الى الله والرسول للفصل فى الأمور والمنازعات .

ان الرجوع الى الله بالطبع لا يعنى انيكون الله نفسه موجودا امامنا فنذهب الى حضرته ونقدم له القضية ونحصل منه على حكم فيها ، وانما معناه ان نرجع الى كتاب الله لنرى حكمه فى المسألة التى عليها النزاع والاختلاف . وكذا الحال فى الرجوع الى الرسول ، فهو لا يعنى ان نرجع الى ذات الرسول مباشرة ، بل معناه ان نستمد الحكم من أقواله واعماله. وحتى أثناء حياته لم يكن الرجوع اليه مباشرة سهلا ميسورا على رعايا الدولة كلهم آنذاك ، إذ كان من الصعب على كل قاطن داخل حدودها من عدن جنوبا الى تبوك شمالا ، ومن البحرين شرقا حتى جدة غربا ، أن يرفع قضيته مباشرة الى الرسول ليقضى فيها بشخصه فكان لابد فى ذلك الوقت ايضا من اتخاذ سنة الرسول مصدرا للأحكام .

والسؤال الثانى : كيف نحصل على الحكم من واقع كتاب الله وسنة رسوله ؟

ان الأمر الطبيعى المعروف أن الانسان وحده هو الذى يصدر الحكم ، لأن الكتاب والسنة لا ينطقان بذاتهما . فلا محالة اذن من أن يكون من يصدر الحكم هو الانسان العارف بالكتاب والسنة . ومن يحكم ويفصل فى النزاع على أساس الكتاب والسنة ، لا يمكن بأى حال أن يكون من بين الفريقين المتنازعين . فلا بد اذن من وجود شخص ثالث أو هيئة محايدة للفصل بين طرفى النزاع .

أما السؤال عمن هو أهل للفصل فى المنازعات فاجابته تعتمد على نوعية النزاع . فهناك ضرب من المنازعات يمكن لكل ذى علم أن يفصل فيه . وهناك قسم آخر يتطلب رفعه الى محكمة بالضرورة . كما أن ثمة بعض المسائل يتحتم ــ بالنظر الى نوعيتها ــ الا يفصل فيها احد سوى أولى الأمر انفسهم . غير أن مصدر الحكم فى كل هذه الحالات لا بد وأن يكون كتاب الله وسنة الرسول فحسب .

هذا هو ما يستطيع اى انسان ان يفهمه بالعقل العام اذاما تدبر الفاظ هذه الآية بشرط الا يكون فى عقله خلل أو مرض .

ولننظر الآن الى نظرية معروفة تسود العالم اليوم فهى تقدم لنا عونا فى فهم هذه الآية محل البحث .

ان اغلب الشعوب اليوم تنادى بسيادة القانون وحكومته Rule Of Law ونسمع هنا وهناك بحتمية سيادة القانون من أجل اقامه العدل فى الدنيا وضرورة ان يتساوى الكبير والصغير امام القانون ، وتطبيقه على عامة الناس والحكام بل وعلى الحكومة نفسها دون مجاملة او محاباة أو تخير .

هذا القانون ـ حتى ولو كان من صنع البرلمان ـ الا انه حين يصبح قانونا ، فعلى البرلمان نفسه أن يتبعه ويسير عليه مابقى قانونا .

ومن الضرورى حين نتناول هذه النظرية التى تقول بسيادة القانون وحاكميته أن نضع فى الاعتبار اربعة اشياء :

الأول : المجتمع الذى يحترم القانون ورغبته الحقيقية فى اتباعه .

الثانى : وجود كثير ممن يعرفون القانون فى المجتمع ويستطيعون مساعدة الناس وحثهم على اتباعه ، مع توفر علمهم العام وثباتهم وتأثيرهم الذى يضمن الا يخرج المجتمع عن القانون والا تجرؤ السلطة التنفيذية على تخطيه والنفاذ منه .

الثالث : محكمة منصفة عادلة تفصل فيما بين الشعب وبين الحكام والحكومة من منازعات فصلا ينطبق والقانون تمام الانطباق .

الرابع : هيئة لها اعلى السلطات تقترح الحلول النهائية لما يصادف المجتمع من مشاكل وأمور ، على أن يتم تنفيذ حلولها المقترحة بصفتها قوانين .

فاذا دققتم النظر واضعين هذه الحقائق نصب اعينكم فسترون ان هذه الآية التى نبحثها تقيم فى الحقيقة سيادة القانون فى المجتمع الاسلامى، ولا بد لتنفيذها بشكل عملى من توافر الأشياء الأربعة التى ذكرتها . واذا كان هناك فرق فهو ان ما يقيم حكومة القانون وسيادته فى المجتمع الاسلامى (يعنى الآية) حقيق بها فعلا ، أما كافة القوانين الأخرى التى تطبق فى العالم فلا تستحق هذه السيادة والحاكمية التى تقام لها . لأن الأولى تعترف بقانون الله ورسول الله قانونا اعلى لابد من اذعان الجميع وخضوعهم له والكل امامه سواسية ؛ كما أنها تخاطب مجتمعا يؤمن بهذا القانون، وتجيش فى قلبه وضميره الرغبة فى طاعته والخضوع له . ولا بد لتنفيذه وتحقيق الغرض منه أن يوجد فى المجتمع كثير من اهل الذكر يستمد منهم افراد

المجتمع فى كل زمان ومكان هدى هذا القانون الأعلى ورشده فى أمور حياتهم وعن طريق اهل الذكر هؤلاء يبقى الرأى العام متيقظا على الدوام لحماية نظام القانون الاسلامى ، وهذايتطلب بالتالى وجود نظام محاكم يفصل بين افراد الشعب وبعضهم ، وبين الحكام والشعب بمقتضى القانون الأعلى . كما يستلزم كذلك وجود هيئة من أولى الأمر متبعة هذا القانون الأعلى تستخدم سلطاتها فى تفسيره وتوضيح وممارسة الاجتهاد فى ظله من أجل حل مشاكل المجتمع وضروراته التى تعرض له فى طريق الحياة الطويل .

الباب الرابع

القومية الاسلامية

الفصل الأول

التصور الاسلامى للقومية

ما ان يخطو الانسان اول خطوة تجاه المدنية والعمران حتى تظهر بالضرورة وحدة بين افراده ، ثم تنشأ بينهم أهداف ومصالح مشتركة فيعملون فى تعاون ومشاركة ومع رقى المجتمع وتطوره ، تتسع دائرة هذه الوحدة الاجتماعية لتضم جمعا كبيرا من البشر . هذه المجموعة البشرية تسمى « قوما » .

ومع أن لفظ « قوم » و « قومية » بمعناه الاصطلاحى المخصوص يعد من مخترعات العصر الحديث الان المعنى الذى يطلق عليه هذا اللفظ قديم قدم المجتمع نفسه « فقوم » و « قومية » هو تلك التركيبة التى كانت فى مصر وبابل وبلاد الروم واليونان ، وهى التى فى فرنسا وبريطانيا والمانيا وايطاليا اليوم .

لوازم القومية :

ما من شك فى ان القومية تظهر أول ما تظهر من عاطفة طبيعية ، يعنى ان هدفها الأول ان يعمل أفراد الجماعة خاصة من أجل مصالحهم المشتركة ويصيروا قوما واحدا فى مواجهة ضرورات مجتمعهم . لكن حين تظهر فيهم « القومية » فلا بد وان تصطبغ « بالعصبية » . وعلى قدر شدة « القومية » تكون شدة « العصبية » . فان انتظم قوما ما فى شكل من أشكال الاتحاد فيما بينهم من اجل خدمة مصالحهم والحفاظ عليها او بعبارة اخرى عندما يضربون حول انفسهم حصار « القومية » ، فان ذلك يستلزم بالضرورة ان يفرقوا بين من هم فى داخل نطاق قوميتهم ومن هم خارجه ويميزوا بين اتباعهم وبين سواهم ، ويرجحوهم على غيرهم فى كل امر ، ويحموهم ضد الآخرين ولو تعارضت مصالحهم مع مصالح الغير تراهم يحافظون على مصالحهم ويذودون عنها ، ويضحون بمصالح الغير ويهملونها . ويبقى حد « القومية » هو الفاصل بين الفريقين فى الحرب والسلم على السواء ، وهذه هى العصبية والحمية وهو صنو القومية وخاصتها الضرورية الملازمة .

عناصر تركيب القومية :

ان قيام القومية ينبع من الوحدة والاشتراك فى اتجاه واحد،ايا كان هذا الاتجاه بشرط أن توجد فيه القوة الضابطة الرابطة التى تجمع الناس على تعددهم وكثرتهم على كلمة واحدة وفكر واحد وهدف واحد وعمل واحد ، وتربط مختلف أفراد القوم ربطا محكما ، وتحولهم كتلة صماء واحدة ، وتستولى على البابهم وقلوبهم ليتوحدوا من أجل مصلحة قومية واحدة ، ويصبحوا على استعداد للبذل والتضحية فى سبيلها .

وعلى هذا يمكن أن تتعدد مجالات الوحدة والاشتراك . لكن كافة القوميات التى ظهرت منذ بداية التاريخ حتى اليوم – باستثناء القومية الاسلامية – قامت على أساس اشتراكها فى واحد من الأمور التالية مع وجود عدة عناصر فرعية أخرى مساعدة :

وحدة الجنس : ويقال لها « الجنسية » .

وحدة الحدود : وتسمى « الوطنية » .

وحدة اللغة : وهى ذات أهمية خاصة فى بناء القومية لأنها الوسيلة القوية فى خلق وحدة الفكر وتكوينها .

وحدة اللون : وهى التى تخلق فى أفراد لون واحد احساسا جنسيا واحدا ، ثم يرتقى هذا الاحساس ويزداد فيدفعهم الى اجتناب الأقوام الأخرى .

وحدة الأهداف الاقتصادية : وهى التى تفرق بين من يتبعون نظاما اقتصاديا واحدا وبين غيرهم وهى التى على أساسها يقوم أحد الطرفين فى وجه الآخر ليكافح من أجل حقوقه ومصالحه الاقتصادية (١) .

وحدة نظام الحكم : وهى التى تدفع رعايا دولة ماالى الانخراط فى نظام مشترك ، وتقيم الحدود الفاصلة بينهم وبين رعايا دولة أخرى .

ولو فتشتم فى العناصر الأصلية لكافة القوميات التى ظهرت منذ أقدم عصور التاريخ حتى قرننا هذا ، لوجدتموها لا تخرج عن هذه العناصر . ومنذ الفى عام أو ثلاثة كانت القوميات اليونانية والرومانية والاسرائيلية

---

(١) مثال هذه الوحدة ما يسمى بالكومنولث البريطانى والسوق الاوربية المشتركة وما اليها – المترجم .

والايرانية وغيرها تقوم على نفس هذه الاسس والمبادىء التى تقوم عليها اليوم القوميات الالمانية والايطالية والفرنسية والانجليزية والروسية واليابانية وغيرها .

صحيح ان هذه الاسس التى بنيت عليها كافة القوميات المختلفة ربطت بقوة بين الجماعات البشرية ولمت شعثها ، الا اننا لا نستطيع أن ننكر ان هذا النوع من القوميات ايضا كان مصيبة وكارثة كبيرة على البشرية ، فلقد قسمها الى مئات وآلاف الأقسام والأجزاء يفنى بعضها على حين يستحيل تغيير البعض الآخر وابداله بأى شكل من الأشكال ، فلا يمكن لجنس ان ينقلب جنسا آخر ، ومحال على وطن أن يصبح وطنا آخر ، وكذلك من يتكلمون لغة واحدة هيهات أن يتحول جميعهم الى لغة اخرى ، كما ان لونا ما لا يمكن ان يمسى او يصبح لونا آخر ، وعسير أن تصير الأهداف الاقتصادية لشعب ما اهدافا اقتصاديا بعينها لشعب آخر ، او تنقلب الدولة دولة اخرى . والنتيجة ان هذه القوميات التى تأسست على مثل هذه المبادىء ليس من سبيل الى التوفيق بينها فهى تتصارع وتتسابق وتتناحر وتتنافس فيما بينها بشكل دائم متصل على أساس العصبية القومية كل منها يحاول سحق الآخر فتتنازع وتقتل وتفنى لتقوم محلها قوميات اخرى تشعل نفس الصراعات والمنازعات متخذة نفس المبادىء اساسا لها. انها لينبوع دائم للفساد والذعر والشر فى هذه الدنيا . انها لعنة الله الكبرى .. انها أمضى سلاح فى يد الشيطان يصيب به من ناصبوه وناصبهم العداء منذ الازل .

العصبية الجاهلية :

من الطبيعى ان هذا النوع من القومية يتطلب بالضرورة خلق عصبية جاهلية فى داخل الانسان، فهو يدفع شعبا ما الى معاداة شعب آخر والنفور منه فقط لمجرد انه شعب آخر ، ولا علاقة لهذا النوع من القومية بالصدق او الحق او الدين ، بل انه يحط من قدر الانسان لاتخاذه الدين او الصدق او الحق قانونا له . ومجرد كون الانسان آسيويا كفيل بأن يجعل كراهية الغرب ونفوره واعتداءاته التسلطية الجبرية وسلبه الحقوق وهضمها وقفا عليه وحده ، فكون العالم الكبير « اينشتين » اسرائيليا سبب كاف لازدراء المانيا وكراهيتها له ، ولأن « تشكيدى » (١) كان فقط زنجيا

---

(١) تشكيدى هو زعيم قبلية « بامنج واتو » فى بتسوانالاند . وقد حرمته الحكومة البريطانية من حقوق الرئاسة لارتكابه جريمة تنفيذ العقوبة فى احد الاوربين قام بأعمال النهب والاغارة ، فى الوقت الذى اعترف فيه الحاكم العام البريطانى نفسه بالسلوك المؤسف السيء الذى كان يسلكه هذا الشخص الاوربى مع السكان ، وقد عاد تشكيدى المسكين الى منصبه بعد ذلك عندما تعهد الا ينفذ مثل هذا الحكم فى اى من الاوربيين على حين لم ينص التعهد الذى ابرموه معه على الا يتعرض السادة الاوربيين لارواح واموال وعزة وكرامة سكان تلك المنطقة .

اسود انتزعت منه الرئاسة لتوقيعه العقوبة على احد الاوربيين . وبالطبع حلال للامريكان المتحضرين ان يمسكوا بالزنوج ويزجـوا بهم فى الافران المستعرة احياء لانهم زنوج سود ، ومباح لهم ان يمنعوهم من السكنى فى احيائهم او السير فى الشوارع العامة او تلقى التعليم فى معاهد التعليم العامة، وان يسلبوهم حتى حق التصويت والانتخاب . وكون الالمانى المانيا والفرنسى فرنسيا سبب كاف لاغراء العداوة والبغضاء بينهما فيرى كل منهما محاسن الآخر عيوبا ومثالب . وأفغانية الأفغان الأحرار فى منطقة الحدود ، وعربية اهل دمشق تعطى الانجليز والفرنسيين كل حق فى حصدهم بوابل من القنابل وتنفيذ القتل العام فى كبارهم وصغارهم ولو كانت هذه القنابل سقطت على سكان أوربا الكرام لاعتبرت عملا قمة فى الوحشية .

هذه باختصار شديد الفروق الجنسية التى تغشو نظر الانسان فترميه بعيدا عن الحق والانصاف . وبسببها تقولبت المبادىء والقيم الاخلاقية العامة فى قوالب القوميات فأضحى الظلم هنا عدلا هناك ، وغدا الصدق فى مكان كذبا وزورا فى مكان آخر ، واصبحت العظمة والرفعةفى موطن حطة وخسة ودناءة فى آخر .

فهل للانسان عقل أكثر لا معقولية من هـذا الذى يرجح انسانا سيئا شريرا غير كفء على انسان آخر صالح نفيس الجوهر لمجرد ان الأول ولد فى جنسه والثانى ولد فى جنس آخر ؟ الأول أبيض والثانى زنجى أسود ؟ الأول يتكلم لغته والثانى ينطق بلغة اخرى ؟ الأول من رعايا دولتـه والثانى من رعايا دولة مختلفة ؟ وهل للون البشرة دخل فى صفاء الروح أو كدورتها ، واستقامة النفس أو اعوجاجها ؟ هل يصدق العقل أن للجبال والبحار دخلا وتأثيرا فى فساد أو اصلاح الأخلاق والصفات الانسانية ؟ وهل من عاقل يسلم بأن ما هو حق فى الشرق باطل فى الغرب ؟ وهل يتسع أى قلب سليم لتصور قياس الخير والعظمة والرقى والتحضر وجوهر الانسانية بمقياس دم العروق أو نطق اللسان أو محل الميلاد والسكن ؟ ان العقل ليجيب على هذه الأسئلة بالنفى المؤكد ، لكن الوطنيـة وتوائمها واتباعها يردون عليهـا بالايجاب والاثبات والترجيح .

نقد عناصر القومية :

ولندع هذا الجانب ونبحث جوهر وحقيقة ضروب الوحدة والاشتراك التى تشكل اليوم أساس القوميات المعاصرة ونرى أترتكز على اساس عقلى متين ام انها محض سراب وخيال .

واولها الجنسية او وحدة الجنس – ما معناها ؟ مجرد اشتراك فى الدم ، وبدايتها نطفة الأم والأب التى تخلق بين بعض الأفراد وشيجة دموية وتتسع هذه النقطة لتكون اسرة ثم قبيلة ثم جنسا ، وما ان يصل الانسان الى طورها الاخير – اى الجنس – حتى يكون قد ابتعدتماما عن أبيه الذى يقره جدا ومورثا اعلى لبنى جنسه ، وتصبح ورثته شيئا خياليا ، وتدخل فى بحر هذا الجنس « المزعوم » روافد خارجية أخرى . وما من عاقل عالم يدعى ما يدعيه الانسان من أن مياه هذا البحر مياه نقية خالصة ، وأنها نفس المياه التى كانت تخرج من منبعه الأصلى . فان اتخذ الانسان من وحدة الدم – بالرغم من هذا الاختلاط والاندماج والتداخل اساسا للاتحاد فى « جنس » واحد ، فلم لا يجعل وحدة الدم الذى توارثته البشرية عن أبويها الأولين اساسا لبناء وحدة شاملة ؟ ولم تنسب الانسانية كلها الى جنس واحد ؟ وهؤلاء الاجداد القدامى المعترف بهم اليوم أجدادا للاجناس المختلفة اذا ارتقينا تدرجا الى نسبهم الأعلى لوجدنا كلا منهم يلتقى بالثانى بشكل او بآخر مما يضطرنا فى النهاية للتسليم بأنهم جميعا روافد متفرعة عن منبع واصل واحد ، فلم تقسم الانسانية الى آرى وسامى وحامى وغيره ؟

اما وحدة الحدود والوطن فهى اكثر وهما لأن الانسان يولد فى موضع لا تزيد مساحته ابداعن ذراع مربعة واحدة ، فان اقر بهذه المساحة وطنا له فقد لا يستطيع أن يسمى اى بلد من البلاد وطنه ، ولكنه يخط حدودا تمتد الى كيلوات واميال ، بل وفى اكثر الأحيان الى مئات وآلاف الأميال ثم يقول : ان وطنى يمتد الى هذه الحدود ولا علاقة لى بما هو خارجها فلعمرالحق ان ضيق الأفق هو ما يعزى اليه هذا الزعم . فليس ثمة ما يمنعه من القول بأن الكرة الأرضية بأسرها وطنى وبلدى ، لأن الدليل الذى على اساسه قام بتوسيع مساحة قدرها ذراع مربعة حتى صارت آلاف الأميال كان يمكن على أساسه ايضا أن تتسع هذه المساحة لتشمل الأرض بأسرها . ولو تخلص الانسان من ضيق النظر والأفق لاستطاع أن يرى هذه البحار والجبال والمحيطات – التى اقرها فى خياله حدودا فاصلة وفرق على اساسها بين ارض واخرى – اجزاء ارض واحدة فى حقيقتها . فعلى اى اساس خول البحار والجبال والمحيطات حق حصره وتقييده داخل رقعة خاصة بعينها؟ ولم لا يقول اننى ساكن الأرض ، وأن الكرة الأرضية كلها وطنى وبلدتى ، وان كل انسان يعيش على وجهها هو ابن وطنى وشريكى فيه ، وان حقوقى التى انالها فوق تلك الذراع التىولدت فيها هى نفس حقوقى التى احصل عليها فوق هذا الكوكب بأكمله ؟.

اما وحدة اللغة ففائدتها ان ابناء اللغة الواحدة – يجدون فرصة اوسع واكبر فى التفاهم وتبادل الافكار فيما بينهم مما يزيل عنهم الغربة

والاستوحاش الى حد كبير . وان ابناء اللغة الواحدة اقرب فى الشعور والاحساس ببعضهم البعض .

بيد ان الاشتراك فى وسيلة التعبير عن الفكر لا يستلزم الاشتراك فى الفكر ذاته فقد يمكن التعبير عن فكرة واحدة بعشرات اللغات ، ويتحد عليها جميع من يتكلمون هذه اللغات . وبالعكس فقد يتم التعبير عن عشرات الأفكار بلغة واحد ، ولا يستبعد أن يكون المشتركون فى هذه اللغة مؤمنين بأفكارمختلفة فيما بينهم . ولهذا فوحدة الفكر التى تشكل فى الحقيقة روح القومية وجوهرها لا حاجة بها الى وحدة اللغة ، كماان وحدة اللغة لا تنتج عنها بالضرورة وحدة فكرية . فمادخل لغة الانسان فى آدميته وحسنه وقبحه الذاتى ؟ وهل يمكن تفضيل شخص يتكلم الالمانية على آخر يتكلم الفرنسية فقط على اساس انه يتكلم الألمانية ؟ ان الانسان يقاس بذاته وجوهره لا بلغته ولسانه .

وان بقى لنا شىء نقوله فهو أن من يتكلم لغة بلد ما أكثر افادة فى شئونها واعمالها لكن هذا ليس أساسا صحيحا للتفرقة القومية وتقسيم الانسانية.

اما التفريق بين الجماعات الانسانية على أساس اللون فهو هراء ولغو باطل ، لأن اللون خاصية جسدية وصفة بدنية لا اكثر ولا أقل . وتشريف الانسان بانسانيته ليس أساسه اللون وانما الروح والنفس الناطقة التى التى لا لون لها، فكيف يفرق بين الانسان وأخيه الانسان لصفرة جلده او حمرته أو سواد بشرته او بياضها ؟ ونحن لا نفرق بين لبن البقرة الصفراء او الحمراء لأن المراد لبنها لا لونها ، لكن سواة الانقياد فى طريق العقل المعوج المسدود ان صرفنا نظرنا عن صفات الانسان الذاتية النفسية ، ونظرنا الى لون بشرته وجلده .

ووحدة الأهداف الاقتصادية ابن غير شرعى لأنانية الانسان ومصالحه الذاتية لم تخلقه القدرة الالهية أبدا . فالانسان ماان يولد حتى يحصل على طاقات العمل ، ويجد أمامه ميدانا واسعا للكدح وتستقبله وسائل الحياة التى لا حصر لها ، غير انه لا يكتفى بمجرد انفتاح ابواب الرزق امامه فى معيشته بل يريدها توصد فى وجوه الآخرين . وتنتج عن اشتراك مجموعة كبيرة من البشر فى مثل هذه الأنانية تلك الوحدة التى تساعدهم على خلق « قوم » واحد . فظاهر الأمر انهم ــ بهذا السلوك ــ يحمون مصالحهم وحقوقهم عن طريق اقامة حلقة من الأهداف الاقتصادية ، لكن اذا هبت جماعات عديدة تقيم حول نفسها هذا النوع من الحصار ، فان الانسان سيضيق على نفسه فترة حياته بيديه ، وتصبح انانيته قيدا وغلا يكبله ، وتضيع فرص رزقه وامكاناته اثناء محاولته ايصاد ابواب الرزق فى وجوه الآخرين . وامام اعيننا هذه الأيام ما تقوم به اوربا وامريكا واليابان

ولا يخطر ببالهم انهم بصنيعهم هذا ينخرون فى دعائم هذه القلاع الاقتصادية التى بنوها بانفسهم ظنا منهم بانها افضل وسيلة لحمايتهم . فكيف بعد ذلك لا نعتبر تقسيم دوائر الرزق وكسب العيش واقامة فروق وامتيازات قومية على اساسه عملا غير عقلى ؟ واى عيب فى منح الانسان الحرية فى ان يبتغى من فضل ربه فوق ارض الله الواسعة ؟

اماالاشتراك فى نظام حكم واحد فهو امر واه ضعيف البنيان ، وهيهات ان تقوم على اساسه قومية . وفكرة تكوين « قوم » واحد من رعايا دولة ما على اساس اشتراكهم فى طاعة هذه الدولة فكرة فاشلة . لان قبضة هذه الدولة سوف تظل قوية محكمة على رعاياها ما دامت قوية قاهرة مسيطرة ، اما اذا وهنت قبضتها وتراخت فسرعان ما تتبعثر اجزاؤها وتتطاير . فحين دب الضعف فى قلب الدولة المغولية ، لم يحل اى شىء دون قيـام قوميات سياسية فى مختلف اقاليم الهند ومناطقها كل على حدة ، وكذا الحال فى الدولة العثمانية ايضا . وقد استجمع الترك فى العصر المتأخر بعضا من قواهم من اجل بناء صرح القوميه العثمانية من جديد ، لكنه ما ان تعرض لصفعة واحدة حتى تفتت بناؤه وتطايرت لبناته . واحدث مثال لهذه القوميـة النمسا والمجر . والتاريخ يقدم لنا امثلة عديدة ونماذج وافرة من هـذه القوميات يجدر بنا بعد رؤيتها أن نهنىء من يزعمون امكان قيام قومية على اسس سياسية تهنئة حارة على خصوبة خيالهم واتساعه .

تبين من هذا النقد مقدار ما وضع من فروق بين أبناء الجنس البشرى وهى لا تقوم على اى اساس عقلى وانما هى فروق مادية حسية تتحطم دائرة كل منها باتساع النظر والأفق ويرتكز قيامها وبقاؤها على انتشار ظلمة الجهل وضيق العقل والقلب . وعلى قدر ازدياد العلم والمعرفة وتفتح البصيرة واتساع القلب تماط هذه النقب المادية الحسية وتسقط ، وتضطر « الجنسية » وقتئذ لان تترك مكانها « للانسانية » وتتخلى « الوطنية » عن مقعدها « للاممية » أو « الآفاقية » .

ان اختلاف اللون واللسان يعد مجلى ومظهرا للوحدة الانسانية ، وفى ارض الله اهداف اقتصادية مشتركة لكل عباده ، اما دوائر النظر السياسية وحدودها فهى محض ظلال تتغير على وجه الأرض بتحرك شمس مواتاة الزمن والحظ ، فتظل متأرجحة تنتقل من مكان الى آخر بين انحطاط وسقوط وارتفاع وسمو .

نظرية الاسلام الشمولية :

ما اصدق ما ينادى به الاسلام الذى يرفض التفريق بين الانسان واخيه على اسس مادية حسية . فهو يعرفنا ان اصل الانسان واحد :

« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »

النساء ١

ويقول ان اختلاف الحدود ومحال الميلاد والمدفن ليس شيئا جوهريا فيما بينكم لأنكم أبناء أصل واحد :

« هو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع »

الانعام ٩٨

ثم ينبهنا الى حقيقة اختلاف الجنس والأسر :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

الحجرات ١٣

يعنى ان هذا الاختلاف فى الشعوب والقبائل هو للتعارف فقط وليس البغضاء والشحناء والتفاخر والتعالى . ولا تنسوا مع هذا الاختلاف وحدة الأصل الانسانى . ولو أن بينكم من فرق فهو على اساس حسن الأخلاق والأعمال أو سوئها .

ثم قال ان التفريق بين الجماعات والأمم هو عذاب الله الذى يذيقكم عداوة ما بينكم .

« أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض »

الانعام ٦٥

وجعل التفريق بين الناس من جملة الجرائم التى استحق فرعون بسببها اللعنة والعذاب .

« ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا »

القصص ٤

ثم اوضح ان الأرض لله الذى شرف الانسان بخلافته فيها وسخر له كل شىء ، وان ليس من الضرورى بقاء الانسان عبدا مرتبطا بمساحة معينة لأن هذه الأرض الواسعة مفتوحة له اذا ضاق عليه مكان منها رحل عنه الى آخر ، وأينما ذهب فثم نعم الله .

البقرة ٣٠

« انى جاعل فى الأرض خليفة »

« الم تر ان الله سخر لكم مافى الأرض »

الحج ٦٥

« الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها » النساء ٩٧

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » النساء ١٠٠

فتأملوا القرآن .. لن تجدوا فيه لفظا واحدا يؤيد « الجنسية » او « الوطنية » . فدعوته موجهة الى الانسانية جمعاء ، وهو يبغى ويطلب الخير والصلاح للمخلوقات الانسانية طرا على وجه الأرض ، وما فيه تفضيل لقوم أو لأرض ، وان ابدى علاقة خاصة بأرض ما فبأرض مكة وحدها لكنه قال فى شأنها « **سواء العاكف فيه والباد** » الحج ٢٥ — يعنى ان سكان مكة الأصليين يتساوون وغيرهم من المسلمين فيها (١) . أما من كان مشركا من سكانها فهو نجس عليكم اخراجه منها :

« انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا »

التوبة ٢٨

وبهذا التصريح تستأصل « الوطنية » من الاسلام استئصالا تاما . ان المسلم يستطيع فى الحقيقة ان يقول :

« كل البلاد بلادى لأنها ارض ربى » (٢) .

العصبية وعداؤها للاسلام :

كانت الفروق والعصبيات الوطنية والجنسية هى أكبر العقبات فى طريق الاسلام آن ظهوره . كما كانت عريقة بعيدة الغور فى قوم الرسول عليه الصلاة والسلام . ومنها التفاخر بالنسب والعائلات والوجاهات الشخصية وهى ما كانت تشكل حائلا وسدا منيعا بينهم وبين قبول

---

(١) لهذا لم يسلم بعض فقهاء المسلمين بحق احد فى ملكية ارض مكة . وكان عمر رضى الله عنه يمنع اهل مكة من اغلاق ابواب منازلهم حتى ينزل الحجاج والزائرون منها حيث يشاوون وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز يمنع اخذ اجرة مساكنها ، وكتب الى امير مكة يأمره ان يمنع الناس ، من فعل ذلك . وقال بعض الفقهاء ان من بنى مسكنا على نفقته فليأخذ اجره الا الميادين والخرابات وصحون المنازل فهى حق للجميع . وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام « مكة حرام لا يحل بيع رباعها و اجور بيوتها » وقال فى موضع آخر « انما هى مناخ من سبق » . هذا هو حال الارض التى خصها الاسلام ذكرا .

(٢) بيت شعر تمت ترجمته من الفارسية — المترجم .

الاسلام . فكانوا يقولون لو أن هذا القرآن منزل من عند الله فعلا لنزل على رجل عظيم من رجال مكة او الطائف :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »

الزخرف ٣١

وكان ابو جهل يحسب ان محمدا صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة ليضيف فخرا الى مفاخر قبيلته فكان قوله :

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فاطعمنا وحملوا
فحملنا واعطوا فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب وكنا
كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك
هذه ؟ والله لن نؤمن بمحمد »

ولم تكن هذه أفكار أبى جهل وحده بل كان جميع مشركى قريش يرون ان العيب فى هذا الدين الذى أتى به محمد أن :

- دينه يقطع شرف الملك والنسب عن قريش وينكر فضل العرب .
- ويتساوى لديه الشريف والوضيع ويأكل السيد مع عبده على مائدة واحدة .
- ولا يعترف بقدر احرار العرب ومنزلتهم بينما يهتم بالاماء والعبيد
- ويخلط بين الحمر والسود ولا يأبه بكرامة القبائل ووجاهتها (٢)

وعلى هذا الأساس شاحت كافة عائلات قريش بوجهها عن بنى هاشم وتخلوا عنهم ، وذب بنو هاشم عن رسول الله بدافع من العصبية القومية على الرغم من ان اكثرهم ماكانوا مسلمين ، ولهذاانحصر بنو هاشم فى شعب ابى طالب فقاطعتهم قريش كلها . فمن كانت أسرهم ضعيفة مغلوبة تعرضوا لمظالم شديدة وضاقت عليهم الجزيرة بما رحبت فاضطروا للهجرة الى الجبشة ، أما من كانوا من أسر قوية فقد ظلوا الى حد ما فى مأمن عن اضطهاد قريش وظلمها اعتمادا على قوة أسرهم ونفوذها .

وكان يهود العرب ينتظرون منذ امد بعيد ظهور نبى فى تلك البقاع طبقا لنبوّات انبياء بنى اسرائيل ، فما ان شاع فى المدينة خبر دعوة محمد صلى الله عليه وسلم حتى دخل كثير من سكانها فى الاسلام ، لكن عصبية اليهود

---

(١) تم تعريب هذه الابيات عن اللغة الفارسية . ـ المترجم .

الجنسية منعتهم من تصديقها والايمان بها ، فاعترضوا كيف يكون هذا النبى من بنى اسماعيل وليس من بنى اسرائيل وقد اخذ هـذا التعصب بعقولهم واعماها حتى ان تركوا الموحدين وانضموا الى المشركين .

اما النصارى فكانوا ينتظرون كذلك ظهور نبى . لكنهم كانوا يتوقعون ظهوره فى الشام فلم يكونوا على استعداد لتصديق اى نبى يظهر بين العرب . ولما وصل امر الرسول الى هرقل اخبر تجار قريش انه كان يتـوقع ظهور نبى بالفعل لكنه لم يكن يأمل ان يظهر من بينهم كذلك حين وصـل مكتوب دعوة الاسلام الى مقوقس مصر قال انه كان على علم بظهور نبى لكنـه كان يأمل ان يكون فى ارض الشـام .

وكان هذا التعصب ذاته يسيطر على عقول العجم فمـا اغضب خسرو برويز(١) حين وصله كتاب الدعوة المبارك ان يخاطب احد العبيـد امبراطور العجم وشعبه هكذا ، لانه كان يعتبر العرب اذلاء حقراء فى منزلة دنيا لا تصل الى منزلة العجم ورتبتهم وبالتالى لم يكن مستعدا لتصديق ظهور داعية الى الحق فى مثل هؤلاء القوم .

ولقد كانت العصبية القبلية بين العرب أمضى سلاح فى يد اليهود مصوب الى صدر الاسلام وبسبب هذه العصبية تواطأ معهم المنافقون من أهل المدينة وحدث ذات مرة ان ذكرت حرب البغاث فانتهزوا الفرصة وأججوا نيران العصبية بين قبيلتى الأوس والخزرج من انصار المدينة حتى شـهرت كل منهما السيف فى وجه الأخرى فنزلت الآية :

« يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقـا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » .

آل عمران ١٠٠

كماان هذا التعصب للجنس والوطن هو الذى اضرم المنـافقون نيرانه حين رأوا نبى قريش حاكما عليهم ، ورأوا المهـاجرين يتجولون فى حدائق الانصـار ، فقال عبد الله بن ابى رأس المنـافقين : « أقد فعلوها ونافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما مثلنا ومثل جلابيب (٢) قريش هذه الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل » .

---

(١) كسرى الفرس آنذاك ــ المترجم .

(٢) كان المنافقون فى المدينة يسمون المهاجرين « الجلابيب » ــ المترجم .

وكان يقول للأنصار : « هـذا ما فعلتم بانفسكم احللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، اما والله لو امسكتم عنهم ما بايديكم لتحولوا الى غير بلادكم » .

فرد القرآن على هذا بقوله :

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

المنافقون ٧ ــ ٨

كما أن ثورة العصبية أيضا هى التى جعلت عبد الله بن ابى يلصق التهمة بالسيدة عائشة رضى الله عنها ، وحالت حماية أهل الخزرج لعدو الله ورسوله هذا دون أن ينال عقابه .

جهاد الاسلام ضد العصبية :

يتضح مما تقدم أن لو ثمة عدو لدعوة الاسلام ــ بعد الكفر والشرك ــ فهو شيطان الجنس والوطن ، حتى أن كانت عصبية الجاهلية أكثر الأشياء التى جاهدها النبى عليه الصلاة والسلام بعد الكفر طيلة حياته النبوية التى استغرقت ثلاثا وعشرين سنة . ولو تصفحنا كتب الحديث والسيرة لعلمنا كيف أذاب صلى الله عليه وسلم فروق الألوان واختلافات الألسنة وساوى بين وضاعة المنشأ ورفعه المحتد وهدم كافة الفوارق غير الفطرية بين الانسان والانسان ، وسوى بين بنى آدم من حيث آدميتهم .. فقال :

« ليس منا من مات على العصبية . ليس منا من دعا الى العصبية . ليس منا من قاتل على العصبية » .

ليس منا من مات على العصبية . ليس منا من دعا الى العصبية . من تراب » .

وللقضاء على اختلافات الجنس والوطن واللغة واللون قال :

« لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى كلكم ابناء آدم »
(البخارى ومسلم)

« لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأبيض على اسود ولا لاسود على ابيض الا بالتقوى » .

(زاد المعاد)

« اسمعوا واطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كأن راسه زبيبـة »
(البخارى)

وحين اخضعت قوة السيف رؤوس قريش الشامخة بعد فتح مكة ، وقف الرسول عليه الصلاة والسلام واعلن بكل قوة :

« الا كل مأثرة او دم او مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين »

« ياأهل قريش إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها الآباء »

« ايها الناس كلكم من آدم وآدم من تراب لا فخر للأنساب لا فخر للعربى على العجمى ولا للعجمى على العربى ان أكرمكم عند الله اتقاكم »

وكان عليه الصلاة والسلام بعد تأدية فروض العبادة لله يشهد ثلاث شهادات ان الله وحده لا شريك له « وان محمدا عبده ورسوله » ، « وان العباد كلهم اخوة » .

اساس القومية الاسلامية :

هكذا قوض الله ورسوله أسس الجاهلية المادية والحسية والوهمية التى كانت تبنى عليها مختلف القوميات فى العالم ، ومحوا ما بين البشر من فروق اساسها اللون او الجنس أو الوطن أو اللغة أو الاقتصاد أو السياسة أو ما اليها من الأسس التى لا تستند الى عقل ، والتى اتخذها الانسان جهلا وحماقة ـ ذريعة لتقسيم الانسانية وتفريق البشرية .

ومع تقويض هذه الدعائم كلها بنى الاسلام قومية جديدة على أسس عقلية تعتمد فى اصلها على الاختلاف الروحى الجوهرى لا على الفرق المادى الأرضى ، فوضع امام الانسان حقيقة فطرية صادقة اسمها « الاسلام » ، ودعا سائر البشرية لعبادة الله وطاعته وطهارة النفس ونظافتها وحسن العمل والتقوى ، وقال من يؤمنوا بهذه الدعوة يشكلوا قوما مستقلا بذاته ، ومن يرفضوها ينتظموا فى قوم آخر . الأول قوم الايمان والاسلام وافراده أمة واحدة « **وكذلك جعلناكم امة وسطا** » البقرة ١٤٣ ، والثانى قوم الكفر والضلال وافراده ومن تبعهم ـ على اختلافهم ـ امة واحدة « **والله لا يهدى القوم الكافرين** » التوبة ٣٧

والفرق بين هذين القومين لا يقوم على الجنس والنسب بل على الايمان والعمل ، فقد يولد اثنان من اب واحد ثم ينفصلان هذا مسلم وذلك كافر . وقد يتحد شخصان اجنبيان غريبان عن بعضهما فى الاسلام ، ويشتركان بسبب هذا الاتحاد فى قومية واحدة .

واختلاف الوطن بين هذين القومين ليس سببا فى التفريق بينهما لان الفرق بينهما قائم على أساس الحق والباطل الذى ليس له وطن محدد . وقد يختلف اثنان يعيشان فى مدينة واحدة وحى واحد ومنزل واحد لاختلاف قوميتهما بين الاسلام والكفر ، وقد يتحد زنجى اسود مع مراكشى داخل قومية واحدة لأن كليهما مسلم .

واختلاف اللون أيضا لا دخل له فى التفرقة القومية . فلا اعتبار بلون الوجه وانما الأساس لون الله وصبغته وهو أفضل الألوان وازهاها ((**صبغة الله ومن احسن من الله صبغة**)) البقرة ١٣٨ ، والأبيض والأسود يجتمعان فى قوم واحد على أساس اسلامهما بينما يتفرق اثنان ذوا لون واحد كل فى قومية مغايرة على أساس اسلام احدهما وكفر الآخر .

كذلك اللغة فلا تأثير لاختلافها ولا أهمية للغة الفم واللسان فى التفريق بين الناس وانما الأهمية الأولى للغة القلب فقط التى يتكلمها ويفهمها العالم اجمع ، فقد يتكلم عربى وأفريقى لغة واحدة وقد يتكلم عربيان لغتين مختلفتين .

اما اختلاف النظم السياسية والاقتصادية فلا اصل له لأن الفرق ليس فى ثروة الذهب بل فى ثروة الايمان ، وليس فى نوعية الدولة البشرية وانما فى دولة الله وسيادته .. والذين يطيعون الحكومة الالهية ويبيعون ارواحهم لله يدخلون جميعا فى قوم واحد سواء اكانوا فى الهند أم تركيا أم غيرها ، والذين يثورون ويتمردون على حكومة الله ويبيعون ارواحهم واموالهم للشيطان هم قوم واحد ، ولا يلزمنا ان نبحث اى دولة هم رعاياها أواى نظام اقتصادى يرتبطون به .

فالدائرة التى رسمها الاسلام للقومية ليست دائرة حسية مادية ، انما هى دائرة عقلية خالصة ، فرب أخين فى بيت واحد ينفصلان احدهما داخل هذه الدائرة والآخر خارجها ، ورب مقيم فى الشرق يتحد مع مقيم فى الغرب ويدخلان فى اطارها .

ومحيط هذه الدائرة كلمة واحدة هى « لا اله الا الله » عليها يصادق الانسان اخاه الانسان ، وعليها يختصم الأخان ويعادى كلاهما الآخر . من اقربها ضمته الدائرة ومن انكرها اخرجته من محيطها ، ومن تخرجهم وتلفظهم فهيهات ان تجمع بينهم صلة الدم او الأرض او اللغة او اللون او الخبز والعيش او الحكومة ، ومن تضمهم وتجمع شملهم فمحال على اى بحر او جبل او محيط او لغة او جنس او لون او ثروة ان ينال الحق فى رسم خطوط التفريق بين المسلم والمسلم داخل هذه الدائرة . واى مسلم سواء كان فى الصين او مراكش ، او كان ابيض ام اسود ، او كان يتكلم

الهندية ام العربية ، ساميا كان ام آريا ، من رعايا هذه الحكومة أم تلك يستحق ان يكون فردا من افراد « القوم » الاسلامى وركنا فى مجتمع الاسلام واحد رعايا الدولة الاسلامية وجنديا فى الجيش الاسلامى ، كما يستحق حماية القانون الاسلامى له . ولم يحدث ابدا ان أعطت الشريعة مسلما حقوقا اكثر او اقل من الآخرين فى العبادات أو المعاملات أو الاقتصاد او السياسة او فى اى ميدان فى الحياة على اساس جنسيته أو لغته او وطنه (١) .

طريقة الاسلام فى الجمع والتفريق :

لا يجوز الفهم خطأ ان الاسلام يقطع الصلات الانسانية والمادية .. ابدا ان الاسلام يأمر بصلة الرحم وينهى عن قطع الأرحام ، ويؤكد على طاعة الوالدين ، ويجعل الوراثة بين صلات الدم ، ويرجح ذوى القربى على غيرهم فى الخير والصدقات والبذل والعطاء ، ويأمر الانسان بالدفاع عن أهله وعياله ومنزله وماله ضد الأعداء ، كما يأمره بقتال الظالم ويجعل من يموتون اثناء هذا القتال شهداء . كذلك يعلم الاسلام الانسان اظهار المحبة والود وحسن السلوك تجاه كل انسان دون تفريق فى الدين والمذهب ، ولم يأمره بما قد يعوقه عن خدمة وحماية البلاد والوطن ، أو يمنعه من مصالحة الجار غير

---

(١) تجدر بنا الاشارة هنا الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن « من ولى من امر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو اصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمسلمين » وفى هذا قال عمر رضى الله عنه « من ولى من امر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين .

وتعقيبا على هذا يقول الامام ابن تيمية فى كتابه السياسة الشرعية : « ان من واجب الوالى ان يبحث عن المستحقين للولاية فى كل شأن وامر من نواب السلطان الى حراس الصحون والعساكر .... فان عدل الحاكم عن الاحق الاصلح الى غيره لاجل قرابة بينهما او ولاء عتاقة او صداقة فى بلد او مذهب او طريقة او جنس كالعربية والتركية والفارسية والرومية او لرشوة ياخذها من مال او منفعة او غير ذلك من الاسباب او لضغن فى قلبه على الاحق او عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه فى قوله « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون » الانفال ٢٧ ثم قال تعالى « **واعلموا ان اموالكم واولادكم فتنة وان الله عنده اجر عظيم** » الانفال ٢٨ . فان الرجل لحبه لولده او لعتيقه قد يؤثره فى بعض الولايات او يعطيه ما لا يستحق فيكون قد خان الله والرسول والمؤمنين وخان امانته .

ولعل هذا يوضح ان الاسلام لا يخص احدا بعينه او يميز بين المسلمين على اى اساس واه فى اى موقف او مكان حتى ولو كان ولدا او ذا قربة . ــ المترجم .

المسلم او مسالمته (١) . فهذه كلها عناية ومراعاة شرعية طبيعية للصلات المادية ، لكن الفارق فى مسألة القومية بين مبادىء الاسلام وما سواه ان الآخرين بنوا على هذه الصلات انواعا من القوميات على حين لم يحسب الاسلام أقل حساب فى بناء قوميته التى يرجح فيها علاقة الايمان على سائر العلاقات ، بل ويطالب الانسان بأن يضحى بها جميعا فى سبيل الاسلام .

ويقول :

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده »

الممتحنة ٤

ويقول :

« لا تتخذوا اباءكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون »

التوبة ٢٣

« ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم »

التغابن ١٤

ويقول اذا حدث عداء وتخاصم بين وطنكم ودينكم فاتركوا الوطن فى سبيل الدين ، اما من ضحى بحب الوطن فى سبيل حب الدين ولم يهاجر فهو منافق لا تربطكم به رابطة :

« فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله »

النساء ٨٩

بهذه الطريقة تنقطع وشائج الدم بسبب الاختلاف بين الاسلام والكفر. فالمسلم ينفصل عن امه وأبيه ، ويقاطع أخاه ، ويعادى ابناءه وذويه ، ويهجر قومه وعشيرته اذا كانوا مخالفين للاسلام . والوطن يترك ويهجر اذا حل

---

(١) ينبغى ان نوضح هنا علاقة المسلمين بالاقوام غير المسلمة فهى ذات حيثيتين الاولى اننا متساوون واياهم فى الادمية ، والثانية ان فارق الاسلام والكفر هو الذى يفصل بيننا وبينهم فمن حيث الاولى علينا ان نسلك معهم ما تقتضيه الانسانية من مشاركة وجدانية وتسامح وكرم ومسالمة ومصالحة ومصادقة بل ولا نرفض التعاون معهم من اجل الاهداف المشتركة ما لم يكونوا اعداء للاسلام . لكننا لا نجتمع واياهم فى اى وحدة مادية ودنيوية تجعلنا سويا قوما واحدا ، ونترك القومية الاسلامية لنشترك معهم فى قومية مصرية او هندية او صينية . لان الحيثية الثانية لمنعنا من ذلك ، كما ان اتخاذ الكفر والاسلام فى قوم واحد امر محال .

فيه العداء ضد الايمان ، فالاسلام مفضل على كل شيء فى الدنيا ومقدم على كل من فيهاوما فيها ، ويضحى فى سبيله بكل رخيص وغال ، ولا يضحى به فى سبيل اغلى واثمن شيء .. واذا نظرنا الى من جمعهم الاسلام وجعلهم اخوة ليس بينهم صلة دم او قرابة وطن او رابطة لغة أو وحدة لون ، رأيناه يسميهم جميعا « مسلمين » ثم يقول لهم :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها »

آل عمران ١٠٣

وفيما يتعلق بغير المسلمين يقول :

« فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين »

التوبة ١١

ثم يعرف المسلمين قائلا :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »

الفتح ٢٩

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا الا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ويتقبلوا قبلتنا ويأكلوا ذبيحتنا ويصلوا صلاتنا فان فعلوا ذلك عصموا منى أموالهم ودماءهم الا بالحق ولهم بعد ذلك ما للمسلمين وعليهم ما عليهم »

(أبو داود — كتاب الجهاد)

ثم ان المسلمين لا يتساوون فى الحقـــوق والواجبات دون فروق أو امتيازات فحسب ، بل بالاضافة الى هذا— كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا »

(المشكاة — كتاب الآداب — باب الشفقة والرحمة على الخلق)

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ان اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »

(المصدر السابق)

وقد عبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن الاسم المجسم للقومية الاسلامية بلفظ « الجماعة » وقال فيها :

« يد الله على الجماعة ومن شذ شذ فى النار »

« من فارق الجماعة شبرا خلع ربقة الاسلام من عنقه »

(المصدر السابق ــ كتاب الايمان)

وليس هذا فحسب بل قال :

« من أراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه »

« من اراد ان يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان »

(صحيح مسلم ــ كتاب الامارة)

كيف بنيت القومية الاسلامية :



لم يكن بين افراد هذه الجماعة التى تألفت واجتمعت على الاسلام اى فرق على أساس الدم أو الأرض أو اللون أو اللغة ، فكان فيها سلمان الفارسى الذى كان اذا سئل عن نسبه قال « سلمان بن اسلام » وقال عنه سيدنا على كرم الله وجهه « سلمان منا آل البيت » ، وكان فيها « باذان بن ساسان » وابنه « شهر بن باذان » وكان نسبهما يتصل ببهرام كور ملك الفرس وقد ولى الرسول عليه الصلاة والسلام « باذان » على اليمن وابنه على صنعاء ، كما ضمت هذه الجماعة بلالا الحبشى الذى قال عنه سيدنا عمر بن الخطاب « بلال سيدنا ومولى سيدنا » وكذلك صهيبا الرومى الذى جعله سيدنا عمر يؤم المسلمين فى الصلاة نيابة عنه ، و « سالما » مولى ابى حذيفة الذى قال فيه عمر عند وفاته « لو كان سالم حيا لوليته » وزيدا بن حارثة احد الموالى الذى زوجه الرسول لابنة عمته السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين ، واسامة بن زيد الذى أمره الرسول عليه الصلاة والسلام على الجيش الذى اشترك فيه صحابة أجلاء كأبى بكر وعمر وابى عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنهم والذى قال عنه عمر لابنه عبد الله « كان ابو اسامة احب الى رسول الله من ابيك واسامة احب اليه منك »

أسوة المهاجرين :

هذه الجماعة هشمت بروح الاسلام وقوته كل اصنام العصبية التى تسمت بأسماء كالجنس والوطن واللون واللغة وغيرها ، والتى كانت تعبد فى العالم ابان الجاهلية القديمة وها هى الآن تعبد فى عصر الجاهلية الجديدة المعاصرة .

ان النبى عليه الصلاة والسلام نفسه ترك وطنه مكة وهاجر الى المدينة مع اصحابه ، وليس معنى هذا ان قلبه الشريف وقلوب صحابته كانت خلوا من حب الوطن الفطرى الذى يولد مع كل انسان . فقد قال وقت هجرته مخاطبا مكة « والله انك لأحب البلاد الى ولولا ان أهلك أخرجونى منك ما خرجت » ولما وصل سيدنا بلال الى المدينة الم به المرض وهاجت ذكريات مكة فى خاطره فخرجت من فمه هذه الأبيات المشهورة التى امتلأت لوعة وحسرة :

« ألا ليت شعرى هل ابيتن ليلة
بفخ وحولى أزخر وجليل
وهل اردن يوما مياه مجنة
وهل تبدون لى شامة وطفيل

غير ان حب الوطن لم يكبل هؤلاء العظماء ويعوقهم عن الهجرة من أجل خاطر الاسلام (١)

اسوة الأنصار :

اما اهل المدينة وهم الطرف الآخر – فقد رحبوا بالرسول والمهاجرين ايما ترحيب واكرموا وفادتهم ، وجعلوا ارواحهم وأموالهم رهن تصرفهم وخدمتهم ، ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها « فتحت المدينة بالقرآن » . وقد آخى النبى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والانصار حتى ان ظل المهاجرون يرثون الأنصار الى ان انزل الله قوله **« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض »** الانفال ٧٥ فحرم التوارث فيما بينهم . كذلك قسم الأنصار حقولهم وبساتينهم مع المهاجرين مناصفة ، وحين فتحت ارض بنى النضير عرضوا على الرسول ان اعط هذه الأرض ايضا لأخوتنا المهاجرين وهذا هو الايثار الذى عرفه تعالى بقوله **« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »** الحشر ٩ ، وقد اوخى بين عبد الله بن عوف وسعد بن ربيع الأنصارى فاعطى سعد أخاه فى الدين نصف امواله وطلق احدى زوجاته كى يزوجها له .

وتوالت الخلافة فى المهاجرين بعد انقضاء العصر النبوى فلم يصرخ واحد من الأنصار فى وجههم : لستم ابناء بلدنا فأى حق لكم فى حكمها . وقد اسكن الرسول عليه الصلاة والسلام وعمر بن الخطاب رضى الله عنه قوم

---

(١) افترى الظالمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « حب الوطن من الايمان » بينما هذا ليس حديثا صحيحا مأثورا عنه .

المهاجرين فى أراضى المدينة ولم ينطق اى من الانصار بكلمة واحدة .

فى سبيل الدين :

لقد قاتل مهاجرو مكة عشائرهم وذوى قرباهم فى وقعتى بدر واحد من اجل الدين وشهر ابو بكر سيفه فى وجه ابنه عبدالرحمن ، وكر حذيفة على والده ابى حذيفة ، وضرج عمر يديه بدماء خاله ، واسر عقيل ابن عم الرسول نفسه فى موقعة بدر وعومل كعامة الأسرى حتى أوشك عمر ان يقتل كافة الأسرى وهو فيهم .

وكان المجاهدون ابان فتح مكة وفيهم من ليسوا من مكة ولا من قريش يحملون على مدينة الرسول ووطنه ، ويهمون بقتل اهله وبنى وطنه فى الوقت الذى كان فيه جديدا تماما على العرب أن يعلى احد منهم قدر الآخرين على منزلة قبيلته ووطنه لا من اجل ثأر او فى سبيل ذهب أو ارض بل من اجل كلمة الحق فقط وفى سبيلها .

ولما بدأ أوباش قريش يصرعون ويموتون برز أبو سفيان وصاح « يا رسول الله ابيحت خضراء قريش فلا قريش بعد اليوم » فسمعه رحمة العالمين واعطى اهل مكة الأمان ففهم الأنصار أن قلبه رق ومال الى قومه فقالوا : « أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة فى عشيرته » فلما بلغه ما قالوا جمعهم وقال لهم : « أقلتم كذا وكذا » قالوا نعم قال « كلا انى عبد الله ورسوله هاجرت الى الله واليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم ».

وكل حرف قاله الرسول عليه الصلاة والسلام صدق فيه ، فبالرغم من انه لم تبق علة ـ بعد فتح مكة ـ لأن يشرف المدينة بهجرته اليها الا انه لم يقم فى مكة أو يستقر بين ربوعها ، وثبت من سلوكه هذا أنه لم يهاجم مكة تحت تأثير عاطفة وطنية أو انتقامية وانما كان قصده وغرضه اعلاء كلمة الحق .

وحين اغتنمت أموال هوازن وثقيف قسم الرسول الغنائم فأعطى مسلمى قريش الجدد نصيبا أكثر ، فأعتبر بعض شباب الأنصار هذا تحيزا وميلا الى قريش وقالوا : « غفر الله لرسول الله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم » فجمعهم وقال لهم « أوجدتم يا معشر الأنصار فى انفسكم لعاعة (بقلة حمراء ناعمة شبه بها الدنيا ونعيمها) من الدنيا تألفت بها قوما الا ترضون يامعشر الأنصار أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم » .

وفى غزوة بنى المصطلق لطم غفارى عوفيا وكان بنو عوف حلفاء للأنصار

فاستنفرهم المعوفى واستنفر الغفارى حلفاءه المهاجرين وكاد الفريقان يقتتلان فبلغ ذلك رسول الله فقال « ما لكم ولدعوة الجاهلية » قالوا لطم رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الرسول « دعوها فانها منتنة » . وكان عبد الله بن ابى راس المنافقين فى المدينة قد اشترك فى هذه الغزوة فلما علم بذلك قال « والله ما مثلنا وهؤلاء الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك ، والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ثم قال للانصار « هذا ما فعلتم بأنفسكم احللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير بلادكم » فبلغ رسول الله ذلك فدعا عبد الله بن عبد الله بن ابى — وكان مضرب المثل فى البر بوالده حتى ان كان لا يضارعه احد من الخزرج فى حب ابيه — وقال له ان اباك يقول كذا وكذا فقال « يا رسول الله ان والدى يؤذى الله ورسوله فذرنى حتى اقتله » فقال الرسول « لا تقتل اباك » فلما عادوا من الحرب وقدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبى على بابها بالسيف لابيه ثم قال « أنت القائل لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا الا باذن منه» فاجتمع اليه رجال فكلموه فقال « والله لا يدخله الا باذن من الله ورسوله » فأتوا النبى فأخبروه فقال « اذهبوا فقولوا له خله ومسكنه » فأتوه فقال « أما اذا جاء أمر النبى فنعم » .

وحين اغار المسلمون على بنى قنيقاع وكل أمرهم الى عبادة بن الصامت فأمر باجلائهم جميعا عن أرض المدينة وكانوا حلفاء الخزرج قبيلة عبادة ، لكنه لم يأبه بحلفهم على الاطلاق وكذا الحال فى أمر بنى قريظة عندما أسند امرهم الى سعد بن معاذ زعيم الأوس فأمر بقتل رجالهم وسبى نسائهم وأولادهم واغتنام أموالهم ولم يحفل بما كان بين قبيلته وبينهم من حلف قديم فى الوقت الذى كان فيه للحلف بين العرب اهمية ومنزلة يعرفها الجميع ، بالاضافة الى حياة بنى قريظة مع الأنصار قرونا طويلة .

روح الجماعة الاسلامية :

تتضح من تلك الشواهد حقيقة هامة هى أن الجنس أو اللغة أو الوطن او اللون ليس له ادنى اعتبار فى أساس القومية الاسلامية وبنائها قط . وتفكير هذا المهندس الذى وضع أساس هذه القومية وبنى صرحها تفكير منفرد عن الدنيا بأسرها ، فقد اهتم بالمواد الخام الأساسية التى توجد فى العالم الانسانى اجمع ، وانتقى ما وجده من أسس وعمد متينة صحيحة وجمع الأجزاء المتفرقة وشدها الى بعضها وطلاها بطلاء الايمان والعمل الصالح ، واسس عليها قومية عالمية تفرد جناحيها على الكرة الأرضية باكملها . وقيام هذا البناء ودوامه يعتمد فى اساسه على أن كل افراده

المختلفة اصولهم المتباينة اماكنهم واشكالهم ينسون اصولهم واجناسهم الخاصة ويصطبغون بصبغة واحدة ، ويصرفون انظارهم عن اماكنهم واوطانهم الذاتية ويخرجون من مخرج صدق واحد ويدخلون فى مدخل صدق واحد .

هذه الوحدة الدينية هى روح ذلك البنيان المرصوص فاذا انفصمت عراها وتفرق افرادها كل حسب جنسه واصله ووطنه ومكانه ، وتنوعوا تبعا لألوانهم واشكالهم ، واختلفوا وفق اغراضهم الدنيوية المتضادة فان جدران هذا البنيان العملاق سوف تتصدع بالضرورة وتختل اسسه وتتهاوى ، وتتطاير لبنانه نتفا متناثرة ـ فكما يستحيل أن تضم الدولة الواحدة عدة دول فى داحلها كذلك يستحيل وجود عدة قوميات داخل قومية واحدة ، فاجتماع القوميات التى تقوم على الجنس او الوطن او اللون او اللغة داخل القوميةالاسلاميه امر مستحيل والبقاء لواحدةمنهما اما القومية الاسلامية واما قومية تقوم علىاى أساس آخر .

ان المسلم الذى يريد البقاء مسلما عليه أن يؤمن ببطلان كل القوميات الأخرى ، ولا يقيم لكافة صلات الأرض والدم وزنا . اما من يرد الاهتمام بهذه الروابط والصلات فعلينا انتعرف أن الاسلام لم يخالط قلبه وروحه وان الجاهلية قد تمكنت من قلبه وعقله واستولت عليهما ، وانه سينفصل عن الاسلام وينفصل الاسلام عنه ان آجلا أو عاجلا .

آخر وصايا الرسول :

واخشى ما كان يخشاه الرسول عليه الصلاة والسلام فى آخر حياته ان تنال العصبيات الجاهلية يوما من المسلمين فينهدم صرح الاسلام ويتناثر لهذا كثيرا ما كان يقول :

« لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »

(البخارى ـ كتاب الفتن)

وفى حجة الوداع خاطب المسلمين :

« كل مأثرة عن الجاهلية تحت قدمى هاتين لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى كلكم من آدم وآدم من تراب المسلم اخو المسلم والمسلمون اخوة كل دعوة جاهلية باطلةدمكم وعزتكم ومالكم حرام فيما بينكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا »

وحين شرف « منى » اكد على سابق قوله واضاف :

« لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وستلقون ربكم فيسالكم عن أعمالكم اسمعوا واطيعوا ولو امر عليكم عبدحبشى يحكم بكتاب الله »

ثم قال « اللهم هل بلغت » قالوا « بلى يا رسول الله » قال « اللهم فاشهد » « فليبلغ الشاهد الغائب »

ولما عاد من الحج ذهب الى موضع شهداء احد وخاطب المسلمين « انى لا اخاف ان تشركوا بعدى ولكنى اخاف أن تفتنكم الدنيا وتقتتلوا فيما بينكم فانكم ان فعلتم لهلكتم كما هلك من قبلكم » (١)

اكبر خطر على الاسلام .

ان هذه الفتنة التى فكر سعد الكونين عليه الصلاة والسلام فى ظهورها ثبت أنها مهلكة بالفعل كما قال . وان ما يحل بالمسلمين من كوارث منذ القرن الأول الهجرى حتى اليوم ناجم عنها ، فلقد رفعت فتنة العصبية راسها بين بنى هاشم وبنى أمية بعد سنوات من عهد الرسول ، وقلبت نظام السياسة الاسلامى الأصلى رأسا على عقب الى الأبد ، ثم راحت تظهر فى شكل عصبيات فارسية وعربية وتركية وأجهزت على وحدة الاسلام السياسية ، فكانت وحدها أقوى كارثة اجتاحت مختلف الدولة الاسلامية آنذاك .

ولقد نحرت هذه الفتنة اكبر دولتين اسلاميتين فى العصور القريبة — وهما الهند وتركيا — وقضت عليهما . ففى الهند دمر التفريق بين المغول والهنود الدولة المغولية الكبرى التى كانت قائمة هناك ، كما قوض التفريق بين الترك والعرب والأكراد دعائم الدولة التركية ودكها دكا .

ودونكم تاريخ الاسلام كله تخيروا اية دولة قوية قامت عبر عصوره وادرسوها تجدوا أساسها جنسية متحدة دون تفريق عماده اختلاف الدم أو الجنس وتروا حكامها وقواد جيشها واهل قلمها وارباب سيفها من اجناس شتى ، وتلقوا عراقيا فى افريقيا وشاميا فى ايران وافغانيا فى الهند والكل يعمل فى الحكومات الاسلامية هناك بشجاعة وتدين وصدق واخلاص وأمانة كالتى يخدم بها فى مسقط راسه الأصلى . فلم تقتصر الحكومات الاسلامية ابدا فى تجميع رجالها على بلد واحد أو جنس واحد ، بل اجتمع لها من كل

---

(١) نص مترجم — المترجم .

صوب وحدب كل انسان كفء مناسب عامل وكلهم رأوا كل « دار للاسلام» وطنا لهم ومنزلا . ولكن حين قامت فتنة الذاتية والانانية والعصبية ، ووجدت فروق الوطن واللون والجنس مكانا لها بين المسلمين ، زفرت انفاسها السامة بين جماعتهم فراح كل منهم يبغض الآخر ويحسده ، وحلت بينهم التقسيمات والمؤامرات وبدأت قواهم ـ التى كانت موجهة ضد اعدائهم فقط ـ تتصارع فيما بينها وغدت بلاد المسلمين ميادين قتال يتحاربون فيها ويقتتلون ، وانمحت من صفحة الوجود قوى اسلامية كبرى .

عاصفة تقليد الغرب :

وترتفع اليوم بين المسلمين فى كل مكان اناشيد «الجنسية» و «الوطنية» بعد أن تلقوا دروسها من الغرب ، فترى العربى فخورا بعربيته ، والمصرى يذكر اجداده الفراعنة فى زهو وتفاخر ، والتركى ينسب نفسه ـ اثناء فورة تركيته وثورتها ـ الى جنكيز خان وهولاكو ، أما الايرانى فيقول فى نخوة الاعتزاز بايرانيته ـ ان قوة الامبراطورية الاستعمارية العربية وحدها هى التى جعلت الحسين وعليا أبطالنا بينما أبطال قومنا فى الحقيقة هم رستم واسفنديار (١) ، أما الهند فقد ظهر فيها من ينسبون أنفسهم الى القومية الهندية ، ومن يريدون الانفصال عن ماء زمزم والارتباط بماء الجنجا (٢) ، ومن يبغون جعل « بهيم » و « أرجن » (٣) أبطالهم القوميين، ومن نسوا مكة المكرمة تماما ويجتهدون ليلا ونهارا فى تقوية صلاتهم « بتكسيلا » و « موهن جودارو » و « هربا » (٤) . والسبب فى هذا كله أن هؤلاء الجهلاء الحمقى لم يفهموا ثقافتهم ولا الثقافة الغربية ، وتغيب عن عيونهم الحقائق والأسس وينظرون الى الامور نظرة سطحية ، ويحوز اعجابهم ويسلب البابهم ما تقع عليه أبصارهم من الآثار والمعالم ذات الأسطح البارزة البراقة ولايعلمون أن ما هو بالنسبه للقومية الغربية ماء الحياةهو للقومية الاسلامية السم الزعاف . فالقوميات الغربية أساس بنائها وحدة الجنس والوطن واللغة واللون ومن ثم يضطر كل فرد فيها لأن ينفر ممن ليسوا من بنى جنسه أو شعبه أو لغته حتى ولو كان الفاصل بين حدودهما ميل واحد ، ويستحيل على الفرد أن يكون على وفاء واخلاص لشعب غير شعبه، ولايمكن

---

(١) من أبطال ملاحم فارس القديمة قبل الاسلام والايرانيون يعتدون بهما وبغيرها كثير الاعتداد ـ المترجم .

(٢) أحد انهار الهند المقدسة عند الهندوس وهم يزورونه مرة كل عام ويؤمنون بمعتقدات غريبة حوله ـ المترجم .

(٣) من أبطال الهندوس الذين تزعموا حركة المقاومة ضد الدولة المغولية المسلمة التى تأسست فى القرن السادس عشر الميلادى وبقيت حتى احتلال بريطانيا للهند فى القرن التاسع عشر الميلادى ـ المترجم .

(٤) مدن هندوسية مقدسة ترتبط بمعتقدات الهندوس وديانتهم ـ المترجم .

لواحد من رعايا دولة ان يصير عاملا امينا مخلصا لدولة أخرى ، وهيهات لشعبان يطمئن الى احد افراد شعبآخر فى ان يرجح مصلحته علىمصلحة قومه وبنى جلدته .

اما القومية الاسلامية فهى نقيض ذلك تماما لأن عمـــادها وأساسها الايمان والعمل لا الجنس والوطن ، والمسلمون فى أرجاء العالم كله شركاء متعاونون فيما بينهم تحت ظل هذه القومية بلا اختلاف او تمايز ، فالمسلم الهنـدى يستطيع أن يصبح مواطنا مخلصا لمصر كما هو مخلص للهنـد ، والمسلم الأفغانى يقاتل بشجاعة وفداء فى سبيل حماية بلاد الشام والذود عنها تماما كما يفعل فى سبيل افغانستان . ولذا فليس بين المسلمين فى بلد وآخر اى فارق جغرافى او جنسى قط ، لأن أسس القومية الاســلامية فى الواقع على النقيض من أسس القوميات الغربية ، وسبب القوة عندهم هو أسباس الضعف عندنا ، وماء الحياة فى قومياتهم هو السم القاتل لقوميتنا .

وقد عبر الشاعر محمد اقبال عن هذه الحقيقة أحسن تعبير حين قال :

* لا تقارن بين قوميتك وقومية أهل الغرب
* لأن قوم الرسول الهاشمى متفردون فى تركيبهم
* فجماعة الغرب تقوم على الوطن والنسب
* أما جماعتك فتستمد تماسكها واستحكامها من قوة دينك .

وقد يفكر البعض تفكيرا ساذجا فيقول أن صلة القومية الاسلامية تبقى بعد ظهور مشاعر القومية المحلية الوطنية والجنسية ، وهاهم يخـدعون انفسهم بأن هاتين القوميتين تسيران معا جنبا الى جنب ، وإن كلتيهمـا لا تتصادم والأخرى . بل لنا ان نجنى ثمارهما معا ، لكن هذا القول هو من عجائب الجهل وضحالات الفكر . فكما ان الله لم يخلق قلبين فى صدر واحد كذلك لم يضع فى القلب الواحد مكانا يجمع بين عواطف قوميتين متناقضتين ، لأن النتيجة الحتمية الطبيعية لعاطفة القومية بشكل عام هى التفريق بين الاتباع والاغيار ، وعلى هذا فعاطفة القومية الاســـلامية تقتضى طبعا ان تعتبروا المسلمين اتباعكم وغير المسلمين اغياركم ، على حين تستلزم عاطفة القومية الوطنية او الجنسية ان تعدوا من شارككم الوطن او الجنس صنوا لكم وحليفا ، ومن ولد فى بلد آخر او جنس مختلف مخالفالكم ومغايرا . فليتكرم اى من ذوى العقول السليمة ويخبرنا كيف لهاتين العــاطفتين ان تجتمعا فى مكان واحد ؟ وكيف تستطيعون اعتبار رعايا بلدكم غير المسلمين اتباعكم واغياركم فى آن واحد ، وكيف تقتربون من المسلمين فى البلاد الأخرى

وتبتعدون عنهم فى ذات الوقت ؟ هل يجتمعان معا ؟ « **أليس منكم رجل رشيد** » هود ٧٨ .

ان علينا أن نفهم أن ظهور الاحساس بالهنـــدية والتركية والافغانية والعربية والايرانية بين المسلمين يستلزم بالضرورة محو القومية الاسلامية وتفتيتها ، وليست هذه النتيجة مما يقضى به العقل والمنطق فحسب بل قد رأيناها مرارا فى الواقع الفعلى فعندما ظهرت فى المسلمين العصـبيات الجنسية أو الوطنية نتج عنها بالضرورة أن ضرب المسلم عنق المسلم ، وأثبت المسلمين صدق تفكير الرسول « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وبالاضافة الى عصيانهم هذا الأمر .

فان كان هذا عمل الداعين الى الوطنية ومهمتهم ، فمن الأفضل أن يكفوا عن خداعهم أنفسهم وأقوامهم ويعلموا أن دعوة القومية الوطنيةتخالف دعوة محمد رسول الله وهى عين ضدها .

الفصل الثانى

المفهوم الحقيقى للقومية الاسلامية

يستخدم لفظ « قـــوم » بكثرة فى هذه الآونة للدلالة على الجماعـــة الاسلامية . وقـــد راج هذا الاصطلاح بوجـــه عام للتعبير عن حيثيتنا الاجتماعية . والحقيقة ان لفظ « قوم » وما يشابهه لم يستخدم كمصطلح للدلالة على المسلمين فى القرآن والحديث ، على حين تحاول بعض الدوائر والأجهزة استغلاله استغلالا سيئا .

واود ان اذكر باختصار العيوب والنقائص فى هذه الاصطلاحات التى نستخدم فى معنى الأمة او القوم Nation كى يوقى الاسلام شرور استخدامها ، ويعرف المسلمون الألفاظ التى استخدمها القرآن والحديث فى هذا الصدد . وليس ما اذكره من قبيـــل البحث العلمى المحض ولكنه توضيح لتصوراتنا الخاطئة التى سارت حياتنا بسببها فى طريق ضال معوج .

ان لفظ « قوم » ولفظ Nation الذى يرادفه فى اللغة الانجليزية هما اصطلاحان من اصطلاحات الجاهلية . فأهـــل الجاهلية لم يبنوا « القومية » Nationality على أساس فكرى تهذيبى خالص Cultural Basis سواء فى الجاهلية القديمة أم الحديثة المعاصرة ، اذ استشرت فى انسجة قلوبهم وعقولهم محبـــة ابناء جنسهم وما تواتر عن الأجداد من صلات وروابط حتى انهم لم يستطيعوا ابدا تطهير تصوراتهم القومية من ارتباطها الوثيق بوشائج الجنس والنسب والمأثورات التاريخية . وكما كان العرب فى القديم يطلقون لفظ « قوم » بشكل عام على افراد قبيلة واحدة او جنس واحد (١) فان لفظ Nation السائد اليوم يحوى فى داخله كذلك بالضرورة تصور الجنسية المشتركة Common Descent . ولما كان هذا يخالف التصور الاسلامى « للتجمع » فان لفظ قـــوم او مرادفاته العربية كالشعب وغيره لم يستخدم فى القـــرآن

---

(١) لتوضيح معنى قوم اورد رأى الاستاذ العقاد رحمه الله الذى ضمنه فى كتابه اللغة
الشاعرة اذ يقول ان لفظ « قوم » لفظ مجازى بذاته ويطلق فى اساسه على الرجال يقومون
قومة واحدة للدفاع عن خطر مشترك او ما اليه . وهو مقصور على الرجال دون النســـاء قال
تعالى : **يا ايها الذين آمنو لا يسخر قوم من قوم** » ثم اردف « **ولا نساء من نساء** » .
وربما دخل فيه النساء على سبيل التبع لان قوم كل نبى يتكون من رجال ونساء ـ المترجم

كمصطلح للدلالة على جماعة المسلمين ، فكيف يستخدم مصطلح كهذا ليدل على تلك الجماعة التى لم يكن للدم والأرض واللون وما الى ذلك اى دخل فى أساس « تجمعها » على الاطلاق ، والتى تالفت وتركبت فى اساسها على المنهج فقط والتى بدأت طريقها بالهجرة والانفصال عن روابط النسب والصلات المادية .

لقد أطلق القرآن على جماعة المسلمين لفظ « حزب » لان « القوم » ينشأ على الجنس والنسب اما « الحزب » فعلى المبدا والمنهج ، ومن ثم فالمسلمون « حزب » لا « قوم » لأنهم انفصلوا عن الدنيا وارتبط كل منهم بالآخر على أساس ايمانهم بمبادىء واحدة واتباعهم منهجاواحدا ، ولا عاطفة بينهم وبين من لا يشتركون معهم فى مبادئهم ومنهجهم حتى وان كانوا اقرب الأقرباء اليهم . فالقــرآن يرى فى البشرية كلها حزبين اثنين فقط أولهمــا « حزب الله » وثانيهما «حزب الشيطان» وأيا كان الاختلاف بين من يشكلون حزب الشيطان فهم ينضوون تحت حزب واحد ، لأن تفكيرهم ومنهجهم – بوجه عام – ليس الاسلام ، وعلى هذا فهم جميعا أعضاء حزب الشيطان وأن كانت بينهم اختلافات وفروق .

يقول القرآن :

« استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حــــزب الشيطان الا ان حزب الشيطانهم الخاسرون »

المجادلة ١٩

وعلى العكس من ذلك اعضاء حزب الله اذ مهما كان بينهم من اختلاف فى الجنس والوطن واللغة والتاريخ ، ومهما كان بين آبائهم وأجــدادهم من ضروب العداءات والخلافات فطالما أنهم متفقون على منهج الله فى التفكير والسلوك فقد صاروا كمن تربطهم بالله (تعالى عن ذلك علوا كبيرا) ، صلة دم وثيقة ، ودخلوا فى حزب الله وقطعوا تماما ما بينهم وبين حزب الشيطان من روابط وصلات .

هذا الاختلاف فى الحزب يقطع حتى صلة الأب بابنه فلا يرث عن أبيه شيئا .. يقول الحديث الشريف « لا يتوارث أهل ملتين » .

هذا الاختلاف فى الحزب يفرق بين المرء وزوجه فيحرم على كليهما أن يقرب الآخر ويباشره ، لا لشىء سوى أن طريق حياة كل منهما قد أصبح مختلفا ومنفصلا عن الآخر .. **« لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن »**

الممتحنة ١٠

هذا الاختلاف فى الحزب يقطع اواصر الأخوة بين افراد العائلة الواحدة فيحرم على اعضاء حزب الله ان يتزوجوا من اقربائهم الذين ينضوون تحت لواء حزب الشيطان ..

« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم »

البقرة ٢٢١

هذا الاختلاف فى الحزب لايقطع صلة القومية الوطنية والجنسية بين اهل الحزبين فحسب انما يخلق بينهم نزاعا دائما يظل قائما ما لم يؤمن حزب الشيطان بمبادىء حزب الله .

يقول القرآن :

« قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك »

الممتحنة ٤

« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الاعن موعدة وعدها أياه فلما تبين له انه عدو الله تبرا منه »

التوبة ١١٤

هـذا الاختلاف فى الحزب يحرم المحبة بين ابناء العائلة الواحدة وبين اقرب الأقرباء ، حتى اذا احب فرد من حزب الله اباه او اخاه او ابنه وكان من حزب الشيطان يكون بفعله هذا قد خان حزبه وغدر به ..

يقول القرآن :

« لا تجـد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخـوانهم او عشيرتهم اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها .رضى الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون »

المجادلة ٢٢

واللفظ الثانى الذى اطلقه القرآن على المسلمين بنفس معنى الحزب هو « الأمة » ، وقد استعمل فى الحديث بكثرة ويطلق على الجماعة التى جمعها امر جامع . والأفراد الذين يشتركون فى أصل واحد هم من هـذه الناحية « امة » فمثلا يقال لاهـل فترة ما « امة » ، وافـراد جنس واحد

او بلد واحد يقال لهم « امة » ايضا . والأصل المشترك بين المسلمين الذى على اساسه قيل انهم « امة » ليس الجنس او الوطن او الاهـداف الاقتصادية انما هو مهمة حياتهم ومبادىء حزبهم ومنهجه .. لذا يقول القرآن :

« كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

آل عمران ١١٠

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

البقرة ١٤٣

ولو تأملنا هذه الآيات لوجدنا ان لفظ « امـة وسط » يراد به جماعـة اسلامية عالمية International Party فقد اختير هؤلاء الأشخاص الذين هم على استعداد لقبول مبادىء خاصة والعمل وفق برنامج خاص واداء مهمة خاصة من بين شـعوب العالم . وبما انهم تجمعوا عن شعوب مختلفة وصاروا حزبا واحدا ثم انقطعوا عن الانتماء على أى من الشـعوب والأقوام ، لذا فهم « امة وسط » . ولكنهم بعد انفصال كل منهم عن شعبه وجنسه توطدت فيما بينهم علاقة واحدة هى القيام بالواجبات من اجـل امضاء قانون الله . وتعنى الفاظ الآتية **« لتكونوا شهداء على الناس »** ان المسلمين قد عينوا بمكانة قاض من قبـل الله يحكم العالم كله ، كما توضح عبارة **« اخرجت للناس »** ان مهمة المسلمين مهمة عالمية خلاصتها العمـل بكافة الطاقات الأخلاقية والذهنية والمادية لتنفيذ قانون الفكر والعمل الذى اسنده الله الى محمد عليه الصلاة والسلام زعيم « حزب الله » فى العالم ، وقهر كل النظم الأخرى . وهذا هو ما جعـل المسلمون على اساسه « امة » .

اما اللفظ الاصطلاحى الثالث الذى استخدمه النبى عليه الصلاة والسلام للتعبير عن وضع المسلمين وحيثيتهم الاجتماعية فهو « الجماعة » ، وهو ايضا يرادف الحزب . ويتضح من تدبر الأحاديث الكثيرة مثـل « عليكم بالجماعة » و « يد الله على الجماعة » وما اليها ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه احترز عن قصد فى استخدام الفاظ كالقـوم والشعب وما يشاكلها ، واستخدم بدلا منها جميعا اصطلاح الجماعة فلم يقل ابدا «عليكم بالقوم » او « يد الله على القوم » بل كان يسـتخدم فى كل اقواله لفظ « الجماعة » دون غيره ، والسبب فى ذلك انه انسب فى التعبير عن اظهار نوعية تجمع المسلمين اكثر من اى لفظ آخر مثل « قوم » او « حزب » اذ بملاحظة المعانى التى يستخدم لفظ « قوم » للتعبير عنها نجد ان اى شخص

مهما كانت مبادؤه ومنهجه يمكنه البقاء بين « قوم » ما طالما انه ولد وانخرط فيه من ناحية اسمه واسلوب حياته وعلاقاته الاجتماعية ، اما لفظ «حزب» و « جماعة » فان بقاء الفرد فى « حزب » او خروجه منه يتوقف اساسا على المبادىء والمنهج . فلا يمكنكم مثلا البقاء فى حزب ما بعـد خلعكم لمبادئه واسلوبه فى العمل ، وتراجعكم عنه ، كما لا يمكنكم حمـل اسمه او تمثيله او حماية مصالحه والحفاظ عليها، ولا يمكن قيام اى ضرب من التعـاون بينكم وبين اعضائه . ولو قال احـدكم انا لا اتفق مـع مبادىء هذا الحزب ومنهاج عمله لكن والدى اعضاء فيه ، واسمى من الأسماء التى يتسمى بها اعضاؤه وعلى هذا لا بد لى من الحصول على الحقوق التى ينالها سائر اعضائه ، فان قوله هذا يثير الضحك والسخرية وقد يجعل من يسمعونه يشكون فى قواه العقلية لكنه لو استبدل تصور القوم بتصور الحزب لأمكن قبول قوله ودعواه .

ولقد امر الاسلام اعضاء حزبه العالمى ان تزوجوا من بينكم كى يخلق منهم سمتا واحدا . وينشر المساواة فى مجتمعه ، ويجعـل منهم مجتمعا واحدا . كذلك اقر لأولادهم نظاما فى التربية والتعليم كى يتربوا على مبادىء الحزب ومنهجه لأن قوة الحزب تأتى - الى جانب الدعوة - من التوالد وزيادة النسل .

هكذا كانت بداية تكون افراد هذا الحزب ثم احكمت المشاركة الاجتماعية واواصر النسب والجنس والعلاقات والروابط التاريخية بناء هذه القومية. والى هذا الحد كل ما حدث كان صحيحا سليما .

لكن المسلمين ما لبثوا ان نسوا تدريجيا حقيقة انهم حزب واحد اصلا وان قوميتهم بنيت فقط على اساس انهم حزب واحد ، ثم ازداد هـذا النسيان حتى وصل الأمر الى ان تاه الآن تصور الحزب داخل تصـور القومية وذاب تماما ، وها هم المسلمون قد غدوا مجرد قوم ونسوا ان الشىء الاساسى هو المبادىء والمنهج الذى على اساسه جعلهم الاسلام امة واحدة ، وهو المهمة التى نظم الاسلام اتباعه فى حزب واحد لتنفيذها واتمامها ، ثم اعقبوا هذا النسيان بأن اخذوا عن الشعوب غير المسلمة التصور الجاهلى « للقومية » . ان هـذا الخطأ فاحش انتشرت آثاره السيئة وضربت بجذورها فى الأعماق الى درجة اصبح من العسير معها ان تبذل خطوة واحدة لاحياء الاسلام دون استئصال هذا الخطا ومحوه اولا .

ان ما يوجد بين اعضاء حزب من الاحزاب من محبة وصداقة وتعاون لا يوجد . بسبب شخصى او دافـع ورابط عائلى بل فقط على اساس انهم يؤمنون جميعا بمبادىء واحدة ، ويتبعون منهجا واحدا . ولو ان احدا من

اعضاء الحزب حاد عن مبادىء جماعته ومنهجها ، وحاول ان يفعل شيئا فليس من واجب أعضاء الحزب ان يوقفوا مساعدتهم له فحسب بل يكون لزاما عليهم أن يمنعوه من سلوك مثل هذا التصرف الخائن الغادر ، فإن لم يرض اشتدوا فى محاكمته عن طريق اللوائح الحزبية الجماعية ، فان لم يرجع طردوه من زمرتهم . بل ان هناك امثلة فى عالمنا لا تخفى عليكم نرى فيها الشخص يقتل اذا انحرف عن منهج الحزب انحرافا شديدا فى حالات خاصة (١) . لكن تأملوا حال المسلمين وكيف سقطوا ــ بسبب اعتبارهم انفسهم قوما لا حزبا ــ فى أخطاء فهم شديدة من بينها مثلا ان لو اراد فرد ان يقوم بعمل شىء فيه مصلحة على مبادىء وأسس غير اسلامية توقع ان يساعده المسلمون الآخرون ، فان لم يفعلوا راح يشكو ويصيح انظروا كيف لا يعاون المسلم اخاه المسلم أو يساعده .



كذلك من يكتبون خطابات توصية لشخص ما ترونهم يدونون فيها « انها خدمة للاسلام او انها خدمة لأخ مسلم فأرجو مساعدته » . وحتى من يساعده فى ذلك ان ساعده سمى عمله هذا تعاطفا اسلاميا . وما اكثر ما تتردد فى هذا الصدد كلمات « التعاطف الاسلامى » و «الاخوة الاسلامية» و « رابطة الاسلام الدينية » وما الى ذلك بينما هى فى الحقيقة ضد الاسلام نفسه ، كما ان طلب العون والمساعدة أيا كانت باسم الاسلام لغو صريح . فلو ان الاسلام حى بالفعل فى صدور من يرددون اسمه لوقفوا فى وجه كل من يعمل وفق نظرية تخالف نظرية الاسلام ومبادئه ولا يدعونه الا اذا رجع عن مسلكه وتاب سواء كان فردا أم جماعة .

ان الرغبة فى مساعدة احد لا تكون فى مخالفة مبادىء الاسلام وعلى حساب اسمه ، لكن ما اكثر ما تفعلون ذلك ليل نهار بسبب تمكن القومية الجاهلية من قلوبكم . فما تسمونه « اخوة اسلامية » هو فى حقيقته ضرب من ضروب القومية الجاهلية التى أخذتموها عن غير المسلمين .

ومن رزايا هذه الجاهلية ومصائبها ان ظهر بينكم تصور عجيب « للمصلحة القومية » تسمونه دون تكلف « المصلحة الاسلامية » ، فما هى « المصلحة القومية » أو « المصلحة الاسلامية » المزعومة ؟ ان تتحقق مصلحة ونفع من يسمون « مسلمين » ، وان يصيبوا قدرا من الثراء ، وتزداد عزتهم وتسمو وتتسع سلطتهم وتقوى بغض النظر عما اذا كانت كل هذه المنافع والمصالح تتحقق باتباع مبادىء الاسلام ونظريته أم بمخالفتها وعصيانها .

---

(١) القتل هو عقوبة المرتد فى الاسلام كما ان روسيا تعاقب المرتدين عن الاشتراكية بنفس العقوبة .

انكم تسمون كل من هب ودب مسلما حتى ولو كان مسلما بسبب ولادته فى اسرة مسلمة ، وكأن لفظ « مسلم » اسم لجسم لا لروح يطلق على اى شخص دون اعتبار لصفة الاسلام ذاتها . وفى ضوء هذا الخطأ فى التصور وضعتم لهذه الأجسام « اسم ذات » فسميتموها « مسلمين » وسميتم حكومتهم « حكومة اسلامية » وحضارتهم « حضارة اسلامية » ، ومصلحتهم « مصلحة اسلامية » حتى ولو كانت هذه الحكومة والحضارة والمصلحة تتعارض واصول الاسلام ومبادئه فى اصلها وفصلها . فكما ان « الألمانية » ليست اسم مبدأ بل اسم قومية فحسب ، وكما أن « من يتعلق بالشعب الالمانى » لا يريد الا رفعة هذا الشعب بأية وسيلة ، كذلك جعلتم انتم « الاسلامية » مجرد قومية ، ومن يحب شعبكم المسلم ويخلص له هو من لا يريد سوى رفعة هذا الشعب وتقدمه ، ولو كانت هذه الرفعة ناتجة عن اتباع طرق تخالف الاسلام فى المبدأ والعمل والمنهج . أليست هذه جاهلية ؟ هل نسيتم ان « الاسلامى » كان فى الحقيقة اسم ذلك الحزب العالمى الذى جاء بنظرية خاصة وبرنامج عملى لفلاح الانسانية وتقدمها فى الدنيا ؟ فكيف تسمون اعمال من انفصلوا عن هذه النظرية وهذا البرنامج وساروا على نظرية وبرنامج آخر اعمالا اسلامية ؟ هل سمعتم ان من يعمل وفق المبادىء الراسمالية يسمى اشتراكيا ؟ وهل تسمى الحكومة الراسمالية حكومة اشتراكية ؟ هل تسمون النظام الفاشى نظاما ديمقراطيا ؟ ان اى شخص لو استعمل مثل هذه الاصطلاحات فى غير مكانها فلن تتوانوا فى رميه بالجهل والحماقة على حين نرى نحن اصطلاحات « الاسلام » و « المسلم » تستخدم فى غير محلها تماما ، ولا يشم احد فى ذلك ريح الجاهلية او يرى فيه شبحها .

ان لفظ « مسلم » ـ كما يتضح بذاته ـ ليس « اسم ذات » بل « اسم صفة » ، وليس له اى معنى آخر سوى « تابع الاسلام » . وهو يعبر عن صفة الانسان العقلية والأخلاقية والعملية التى تسمى «الاسلام» ، ولايمكنكم اطلاقه على الشخص المسلم بنفس الطريقة التى تطلقون بها لفظ هندى او صينى أو يابانى على انسان هندى أو صينى أو يابانى . واذا ارتد المسلم الموسوم بهذا الاسم وتراجع فان صفة الاسلام تسلب منه تلقائيا ، وما يقوم به بعد ذلك بصفته الشخصية الخاصة ، ولا حق له فى استخدام اسم الاسلام . وهكذا الامر بالنسبة للفظ « المصلحة الاسلامية » و « الرقى الاسلامى » و « الحكومة الاسلامية » و « الوزارة الاسلامية » و « المجتمع الاسلامى » وما الى هذا من الألفاظ التى يمكنكم اطلاقها فى مثل هذه الأمور . فان كانت تطابق الاسلام نظرية ومبدأ وتتبعه وتهتم بانجاز مهمة الاسلام التى جاء من أجها فبها والا فاستخدام لفظ « مسلم » لأى منها

هو استخدام خاطىء (١) . ولكم ان تسموها بما شئتم من الاسماء لكنكم لا تستطيعون تسميتها باسم الاسلام . لأن المسلم اذا خلعنا عنه صفة الاسلام فهو ليس شيئا فى ذاته، واذا كنتم لاتتصورون وصف فرد او شعب بالاشتراكية أو تسميته اشتراكيا بغض النظر عن الاشتراكية ذاتها ، وكذا الأمر بالنسبة لأى مصلحة اشتراكية او حكومة اشتراكية او مجتمع اشتراكى فكيف اذن تعتبرون صفة مسلم اسما ذاتيا لشخص أو لشعب دونما نظر الى الاسلام نفسه ، وتصفون كل مايصدر عنه من أفعال واعمال بانه « اسلامى » ؟

ان هذا الخطأ فى الفهم قد دفع ثقافتكم ومجتمعكم وحضارتكم وتاريخكم ـ بشكل اساسى ـ فى مسار خاطىء فالدول والحكومات التى كانت تقوم على مبادىء غير اسلامية تسمونها « حكومات ودولا اسلامية » لمجرد أن حاكمها كان مسلما ، والحضارة التى ازدهرت فى بلاطات وقصور الملذات الدنيوية فى قرطبة وبغداد ودلهى والقاهرة تدعونها « حضارة اسلامية » بينما لا دخل للاسلام فيها ولا صلة ، واذا ما سئلتم عن الحضارة الاسلامية اذا بكم تشيرون من فوركم الى « تاج محل » المقام فى مدينة « أكرا » بالهند (٢) وكأنه النموذج البارز لهذه الحضارة ، على حين ليس من الحضارة الاسلامية ان تقتطع أفدنة من الأرض ، وينفق على عمارتها ملايين الجنيهات كى تدفن فيها جثة ميتة .

واذا أردتم ذكر مفاخر التاريخ الاسلامى اذابكم تذكرون أعمال العباسيين والسلاجقة والمغول العظيمة بينما هى من وجهة نظر التاريخ الاسلامى الحقيقى تستحق أن تكتب فى سجل الجرائم بمداد أسود .

لقد سميتم تاريخ ملوك المسلمين « تاريخا اسلاميا » بل وتسمونه أيضا « تاريخ الاسلام » كأن اسم هؤلاء الملوك « اسلام » . وبدلا من أن تضعوا أمام أعينكم مبادىء الاسلام ومهمته وتقيموا التاريخ الماضى وتروا الفرق ـ بمنتهى الانصاف ـ بين الحركات الاسلامية وغير الاسلامية وتوضحوه لغيركم ، اذا بكم تعتبرون خدمة التاريخ الاسلامى تكمن فى الدفاع عن ملوكه وحكامه وحمايتهم . ومن هنا ظهر هذا الاعوجاج فى وجهة نظركم فرحتم تعتبرون كل ما أثر عن « مسلم » « اسلاميا » ظانين أن كل ما يصدر عمن

---

(١) ـ «المصلحة الاسلامية » ليست خطا فى حد ذاتها انما الخطا ان يكون ما يخالف الاسلام مصلحة اسلامية لان الاصل فى كل الامور ان توزن بميزان الاسلام وتقاس بمعياره .

(٢) تاج محل هو المقبرة التى بناها السلطان المغولى شاهجهان ١٥٩٢ ـ ١٦٦٦ م فى الهند لزوجته ارجمندبيكم ممتاز محل وهو بناء رائع جدا واعجوبة من أعاجيب العالم فى فن العمارة ـ المترجم .

يدعى « مسلما » فهو « اسلامى » ، حتى ولو كان انجزه عن طريق غير اسلامى .

ولقد ارتايتم هذا الراى الفاسد فى سياسة دينكم ايضا ، فاذا بكم لا تكترثون بمبادىء الاسلام ونظرياته ومهامه وتدعون اى شعب « شعبا اسلاميا » ، وفى مكنة اى شخص او ـ جماعة ان يفعل ما يحلو له باسم هذا الشعب ومن اجله ، واى مسلم من السهل ان يصبح لديكم ممثلا للمسلمين بل وقائدا وزعيما اسلاميا ، حتى ولو كان هذا المسكين لا يعرف عن الاسلام شيئا ، كما انكم على استعداد للانضمام الى اى حزب ترون فى اتباعه اية فائدة او مصلحة مهما اختلفت مهمته عن مهمة الاسلام ، وتفرحون كثيرا بما يوضع من قوانين توفر للمسلمين قوت يومهم حتى ولو كان مصدر هذا القوت حراما من وجهة نظر الاسلام ، ولا تسعكم الفرحة عندما ترون مسلما يحكم فى اى بقعة حتى ولو كان يستخدم سلطة حكمه لتنفيذ اهداف غير اسلامية مثلما يستخدمها اى حاكم غير مسلم ، واكثر ما تسمونه فائدة ومصلحة اسلامية هو فى الحقيقة غير اسلامى ، وتبذلون ارواحكم فى سبيل حماية وصون هذه النظم القائمة التى تخالف الاسلام تماما ، وتبددون اموالكم وقواكم وراء اهداف ليست اسلامية البتة .

هذه هى نتائج خطئكم فى اعتباركم انفسكم مجرد « قوم » ونسيانكم حقيقة انكم « حزب عالمى » ليس له هدف او مصلحة سوى ان يجعل مبادئه تسود العالم كله وتحكمه . وطالما انكم لم تثبتوا تصور « الحزب » لاتصور القوم بين ظهرانيكم ، وتجعلونه تصورا صحيحا حيا فان اى طريق تسلكونه فى اى امر فى حياتكم لن يكون طريقا صحيحا مستقيما .

استدراك :

بعد نشر ما سبق ظن الكثيرون ان اطلاق لفظ « حزب » على الجماعة الاسلامية بدلا من « قوم » يعنى ان هذا الحزب يصير جزءا فى اية قومية وطنية بنفس الصورة التى عليها الأحزاب السياسية المختلفة فى الشعب الواحد . فمع وجود منهاج خاص بكل منها الا انها تدخل جميعها فى مجموعة كبيرة تسمى « قوما » او « شعبا » فلو ضم المسلمين حزب واحد فيصبحون جزءا من شعب وطن واحد .

ولا شك ان هذا الخطأ فى الفهم نتج عن فهم الناس معنى « الحزب » و « الجماعة » بوجه عام بالمعنى السياسى للاحزاب . غير ان هذا ليس ما يعنيه اللفظ حقيقة بل هو معنى نتج عن استعماله بكثرة فى معنى خاص . ومعناه الحقيقى ان من يجتمعوا على عقيدة وهدف ومنهج ونظرية خاصة بهم فهم جماعة واحدة . وقد استخدم القرآن لفظ « حزب » و « امة »

للتعبير عن هذا المعنى اما الاحاديث فقد استخدمت لفظ « جماعة » ، وهو بمعنى « الحزب » أيضا .

ولو ان هناك جماعة ذات نظرية سياسية خاصة وبرنامج محدد فيما يختص بالظروف السياسية الخاصة ببلد أو شعب ما ، فهى جماعة سياسية فحسب ومن ثم تعمل كجزء من الشعب الذى وجدت فيه .

اما الجماعة الأخرى فتقوم على نظرية كلية وتصور عالمى شامل world Idea وتضع امامها برنامجا عالميا للانسانية كلها دون اعتبار لقوم او وطن، وتبغى بناء وتشكيل الحياة كلها وفق طريقة جديدة، وتسعى لقولبة كل شىء فى الحياة من النظرية والمنهج والعقائد والأفكار ومبادىء الأخلاق حتى تفاصيل السلوك الفردى والنظام الاجتماعى وفق قالبها ، وترغب فى خلق ثقافة مستقلة وحضارة Civilization خاصة .

هذه الجماعة على الرغم من كونها « جماعة » فى حقيقتها ، الا انها ليست من ذلك الصنف الذى يظل يعمل كجزء من « شعب » . فهى اعلى من هذه القوميات المحدودة وارفع، ومهمتها تحطيم كل العصبيات الجنسية والتاريخية التى تشكل أساسا مختلف القوميات فى العالم . فأنى لها ان تربط نفسها بهذه القوميات ؟ انها تخلق قومية عقلية فكرية Rational Netionlity بدلا من القوميات الجنسية والتاريخية ، وتؤلف قومية شاملة متسعة Expanding Natiolity فى مكان القوميات الجامدة المتحجرة المحدودة ، وتصبح فى ذاتها قومية مستعدة لأن تظل دائرتها كافة أقطار المسكونة على أساس وحدة عقلية فكرية . ولكن مع كونها قومية فهى تظل جماعة واحدة فى حقيقتها لأن الانضمام ليس أساسه الميلاد والنشأة وانما اتباع النظرية والمنهج اللذين قامت على أساسهما هذه الجماعة .

و « الاسلامية » فى الحقيقة هو الاسم الثانى للجماعة التى ليست من نوع ما يتكون فى شعب ما من أحزاب ، بل هى حزب قام لصنع نظام ثقافة وحضارة مستقل خاص ، وتحطيم الحدود الضيقة لتلك القوميات الصغيرة وخلق قومية واحدة على أسس فكرية عقلية . وتسميته قوما تسمية صحيحة على أساس انه يربطكم عاطفيا بما يبنيه من مدنيته وثقافته وحضارته وفق نظريته فى الحياة ، وبما يتمشى مع فلسفته الاجتماعية Social Philosophy لا على أساس ربطكم بقومية من قوميات العالم التاريخية والجنسية . وبالرغم من كونه « قوما » بهذا المعنى الا انه يظل « جماعة » فى حقيقته واصله . لان مجرد صدفة الميلاد لا يمكن ان تجعل الانسان عضوا فى هذا المنبر ما لم يؤمن بمنهجه ويتبعه ، مثلما لايحول

ميلاد شخص بين قوم دون خروجه من قومه ودخوله فى الآخرين طالما انه مستعد للايمان بمنهجهم .

ان الغرض من كل ما قلته فى الحقيقة هو ان قومية الشعب المسلم تقوم على كونه جماعة واحدة او حزباواحدا ، فصفته « الجماعية » هى الجذر والأصل اما صفته « القومية » فهى الغصن والفرع ، فاذا انفصل عن صفته الأصلية الأولى وبقى مجرد قوم ففى هذا انحطاطه وسقوطه .

والحق ان جوهر الجماعة الاسلامية جوهر متفرد فى تاريخ الجماعات الانسانية . صحيح ان البوذية والمسيحية قد حطمتا حـــدود القوميات ــ قبل مجىء الاسلام ــ وحاولتا خلق اخوة عالمية على اساس نظرية ومنهج الا ان منهجيهما لم يتضمنا اية فلسفة اجتماعية يمكن على اساسها قيـام فكر وحضارة اللهم الا بعض المبادىء الأخلاقية . ولهـذا لم تفلحا فى خلق قومية عالمية بل بقيتا نوعا من الأخوة . كذلك قامت الثقافة والحضارة العلمية فى الغرب بعد مجىء الاسلام وأرادت أن تجعــل دعوتها عالمية ، لكن جيوش « القومية » حملت عليها منذ اول يوم وقضت عليها فى مهدها فلم تفلح أيضا فى اقامة قومية عالمية .

وها هى الاشتراكية الماركسية تريد تحطيم حدود القوميات وخلق فكر عالمى يقوم على تصور عالمى ، لكنها لم تستطع التحول الى قومية عالمية لأن ما وضعته أمامها من فكر لم يأت الى الوجود بشكل كامل .

وليس فى الميدان حتى الآن سوى الاسلام نظرية ومنهجا ينطلق خارج حـدود القوميات التاريخية والجنسية ، ويصنع قومية عالمية على أســاس فكرى . ومن ثم يصعب على من لا يعرفون روح الاسلام معرفة كاملة ان يفهموا كيف يكون شكل من الأشكال الاجتماعية شعبا وحزبا فى آن واحد . لأن كل شعوب العالم التى يعرفونها ليس من بينها شعب بهذه الصورة لا يولد افراده بل يصنعون . فهم يرون الانسان المولود فى ايطاليا فردا فى القومية الايطالية ومن لم يولد ايطاليـــا لا يستطيع بأى حال أن يصبح ايطاليا ، ولا يعرفون مثل هذه القومية التى ينضم اليها الانسان على أساس الايمان والمنهج ويخرج منها بمجرد تغيير ايمانه وتبديل منهجه لأن هذه الخصائص فى نظرهم ليست خصائص شعب بل صفات وخصائص حزب . لكنهم حين يرون أن هذا الحزب الفريد يصنع فكرا مستقلا بذاته ، ويدعو الى قوميته الخاصة ، ويرفض الارتباط بأية قومية مكانية فى أى موضع من العالم فان هذا الأمر يصبح عندهم لغزا محيرا .

وهذا الغباء مايفتأ يفيض من جانب المسلمين وغير المسلمين على السواء . لأن تلقى نوع من التعليم والتربية غير اسلامى منذ أمد بعيد ، والعيش دهرا فى جو غير اسلامى خلق فى أذهانهم التصور الجاهلى للقومية التاريخية ،

فنسوا ان وضعهم الحقيقى هو وضع الجماعة التى وجدت فى العالم لاحداث ثورة عالمية ، والتى كانت تهدف فى حياتها الى نشر نظريتها فى العالم اجمع، وكان عملها فى الدنيا ازالة كل النظم الاجتماعية وابادتها واقامة نظام اجتماعى فى مكانها مبنى على فلسفتها الاجتماعية .. نسوا كل هذا واعتبروا انفسهم شعبا كسائر الشعوب الموجودة فى العالم ، وهاهم فى انديتهم ومجالسهم ومؤتمراتهم وجمعياتهم وصحفهم ومجلاتهم لا يذكرون هذه المهمة التى جعلوا من اجلها امة واحدة من بين سائر الشعوب .

اما ما استحوذ على انتباههم واهتمامهم بدل هذه المهمة فهو « مصلحة المسلمين » والمراد بالمسلمين هنا كل من ولدوا من أم واب مسلمين ، اما المراد بالمصلحة فهو مصالح هؤلاء المسلمين المادية والسياسية أو بمعنى آخر حماية ذلك الفكر الذى ورثوه عن الآباء وتراهم منقادين لكل اجراء أو تدبير يتخذ للحفاظ على هذه المصلحة ، تماما كما كان يفعل موسولينى فى اختياره اية طريقة يراها مناسبة لمصلحة الايطاليين ، فلم يكن يتبع أيا من النظريات والمبادىء ، وكان يزعم ان ما فيه فائدة الايطاليين فهو وحده الحق .

هذا ما اسميه بانحطاط المسلمين . واحتجاجا على هذا الانحطاط ارى ان اذكرهم بأنكم لستم شعبا كسائر الشعوب التى ترتبط بتاريخ واحد وجنس واحد ، وانما انتم فى الحقيقة جماعة واحدة ، وخلاصكم ونجاتكم فى ان تشعروا فى ذواتكم باحساس الجماعة .

ان النتائج السيئة المترتبة على فقدان هذا الاحساس أو تناسيه تفوق الحصر والعد ، ولعل احداها ان غدا المسلم على استعداد لاتباع اية نظرية والسير خلف اى شعار، والارتداد عن نظرية الاسلام واهدافه ومبادئه ، فتراه يصبح « قوميا » و « شيوعيا » ولايتردد فى قبول المبادىء الفاشية. ولو نظرتم فيما بينكم لرايتم فى المسلمين اتباعا لمختلف النظريات والفلسفات الاجتماعية والأفكار الغيبية والعلمية الغربية ، وليس فى العالم حركة سياسية او اجتماعية أو حضارية لا يساهم فيها المسلمون بنصيب . والعجيب انهم جميعا يسمون ويعتبرون انفسهم « مسلمين » ولم يتذكر احد ممن يجولون ويتيهون فى مختلف الطرق أن لفظ «مسلم» ليس لقبا ميلاديا، بل هو أهم صفة لمن يتبع الاسلام .

ان تسميه من يتنكب طريق الاسلام ويتبع الطرق الاخرى مسلما لهى خطأ فى استعمال هذا اللفظ . و « المسلم القومى » و « المسلم الشيوعى » وما اليهامن الأسماء الاصطلاحية هى مصطلحات متناقضة كتناقض مصطلح « التاجر أو رجل الأعمال الشيوعى » أو « الجزار البوذى » (١) .

---

(١) ذلك ان الشيوعية لا تبيح ممارسة التجارة او امتلاك المصانع بشكل فردى كما انه حرام على البوذيين الاشتغال بالجزارة — المترجم .

الباب الخامس

الاسلام وبعض المفاهيم المعاصرة

الفصل الأول

الاسلام وحقوق الانسان الاساسية

ان تصور حقوق الانسان الأساسية ليس جديدا علينا نحن المسلمين . وقد يبدأ فى نظر الآخرين بميثاق الأمم المتحدة او ال Magna Carta الانجليزى ، لكن بدايته عندنا بعيدة فى القدم والعراقة .

وارى من الضرورى ــ قبل القاء الضوء على حقوق الانسان الأساسية ــ أن اعرض باختصار لبداية فكرتها .

البحث عن الحقوق الأساسية ... لماذا ؟

من العجيب حقا ان الانسان هو الكائن الوحيد الذى لا يزال البحث والسؤال عن حقوقه الأساسية يظهر بين افراده انفسهم . فالمخلوقات الاخرى ــ وما اكثرها فى هذا الكون ــ أعطتها الفطرة حقوقها تلقائيا ، ولا تزال تنالها دون تحمل عناء التفكير فى امرها ومشقة السعى للحصول عليها . ولكن الانسان وحده هو المخلوق الذى يظهر السؤال عن حقوقه وتقتضى الضرورة تحديدها وتعيينها .

كذلك من العجيب ايضا ان اى نوع آخر من المخلوقات فى هذا الكون لا يعامل افراده كما يعامل الانسان بنى نوعه ، فحتى الحيوانات لا نرى نوعا منها يهاجم نوعا آخر من اجل اللذة المجردة او من اجل ان يصبح حاكما عليه وسيدا . واذا كان قانون الطبيعة قد جعل حيوانا غذاء لحيوان آخر، فان تعدى الاخير وهجومه على الأول يقف عند حد الغذاء لا اكثر ولا اقل واى حيوان مفترس لا يطارد الحيوانات الأخرى دون سبب بعدان يشبع غريزة الجوع فى ذاته ، فهو لا يسلك مع بنى جنسه ما يسلكه الانسان مع افراد نوعه . واختيار الانسان هذا السلوك غير العادى فى الدنيا لهو فى الغالب نتيجة ما حباه الله من فضل وشرف وعبقرية وقوة ابداع .

ان السباع لم تجهز حتى اليوم جيوشا حربية كرارة ، ولم يستعبد اى

كلب غيره من الكلاب الأخرى ، كذلك لم تقم ضفدعة باغلاق افواه غيرها من الضفادع ومنعها من الكلام والحديث فقط الانسان وحده هو الذى راى الا حاجة به الى قوانين الله تعالى ، وطفق يستغل ما منح من قوى وطاقات فاذا به يصب جحيم الظلم والجور على بنى جنسه . ومنذ وجد الانسان على وجه الأرض والحيوانات لم تزهق أرواح آدميين بقدر ما ازهق الانسان من أرواح بنى نوعه فى الحرب العالمية الثانية وحدها ممايدل دلالة واضحة على ان الانسان يجهل تمام الجهل حقوق الآدميين الأساسية .

والله وحده هو الذى هدى الانسان فى هذا المجال وعرفه حقوق الانسان عن طريق انبيائه ، لان خالق الانسان الحقيقى هو الوحيد الذى بمقدوره تحديد حقوق خلقه ، ومن ثم فقد ذكرها لنا وبينها بالتفصيل .

حقوق الانسان فى العصر الحاضر :

يجدر بنا قبل أن نخوض فى الحديث عن بنود الميثاق الاسلامى لحقوق الانسان ان نلقى نظرة عابرة على تاريخ تطور الاحساس بحقوق الانسان :

(أ) لم يكن ال Magna Carta الذى طبقه الملك « جان » فى انجلترا عام ١٢١٥ م الا نتيجة ما مارسه أمراؤه «البارونات» عليه من ضغط ، فكان بمثابة معاهدة بين الملك وأمرائه وجاءت مواده فى جانب مصالح الأمراء بقدر أكبر على حين لم يشتمل اى بند فيه على شىء يتعلق بحقوق العامة من الناس فى قليل أو كثير . فلما تفحصه الناس فى العصور التالية وقراوا بين سطوره ما قصده كتابه الأصليون من معنى تملكتهم الدهشة والحيرة ، ورأى فيه خبراء القانون فى القرن السابع عشر الميلادى انه منح الشعب الانجليزى حقوق التحقيق فى الجريمة أمام مجلس قضاء وجها لوجه ، والتظلم ضد الحبس دون اقتراف جريمة Rights Of Habeas Corpus والتحكم فى سلطات فرض الضرائب .

(ب) أثر ميثاق Tom Paine ١٧٣٧ – ١٨٠٩ م الخاص بحقوق الانسان فى أفكار الغربيين تأثيرا ثوريا كبيرا اذ اشاع هذا الميثاق فكرة حقوق الانسان فى الدول الغربية على نطاق واسع عام ١٧٩١ م ، ولم يكن هذا الشخص يقول بدين الهامى بل على العكس كان ذلك العصر عصر الثورة على الدين ، ومن ثم فهم عامة الغربيين أن الدين يخلو من تصور لحقوق الانسان .

(جـ) كان « اعلان حقوق الانسان Declartion Of The Rights Of Man الذى ظهر عام ١٧٨٩ م أهم وثائق الثورة الفرنسية ، وكان ثمرة الفلسفة الاجتماعية فى القرن الثامن عشر خاصة نظرية « روسو » العقد الاجتماعى .

وقد تضمن الحقوق الفطرية فيما يختص بحاكميه الشعب والحرية والمساواة و « الملكية » كما شمل ايضا حق التصويت والانتخاب وحق التشريع وحق تحكم الراى العام فى فرض الضرائب وحق التحقيق فى الجرائم امام مجلس قضاء Trial By Jury وغيرها من الحقوق
وقد وضع مجلس التشريع الفرنسى فى عصر الثورة هذا الاعلان كى يوضع فى بداية الدستور على ان تراعى مواده وبنوده عند تدوين الدستور .

(د) الاصلاحات العشرة فى الولايات المتحدة الأمريكية وقد حوت معظم الحقوق المترتبة على فلسفة الديمقراطية البريطانية .

(هـ) الاعلان الهام لحقوق الانسان وواجباته الذى قبلته الدول الأمريكية فى مؤتمر « بجوتا » عام ١٩٤٨ م .

(و) اجازت الأمم المتحدة فى ظل الفلسفة الديمقراطية كثيرا من المواثيق الخاصة بحماية الحقوق وتأكيدها كان آخرها الاعلان العالمى لحقوق الانسان .

وفى ديسمبر ١٩٤٦ م وافقت الجمعية العامة للامم المتحدة على قرار يعتبر قتل الجنس البشرى Genocide جريمة دولية .

ثم ووفق فى ديسمبر عام ١٩٤٨ م على قرار بمنع قتل الانسان وتوقيع العقوبة على من يرتكبه ونفذ فى ١٢ يناير ١٩٥١ . وقد جاء فيه تعريف قتل الجنس البشرى بانه القيام بأى فعل من الأفعال الآتية بغية القضاء على اية جماعة Group قومية او جنسية او اخلاقية Ethical او بعض منها :

١ ـ قتل افراد هذه الجماعة .

٢ ـ الحاق اضرار بدنية او عقلية بها .

٣ ـ فرض ظروف معيشية عليها من شانها ان تدمر بقاء افرادها الجسمانى كليا او جزئيا .

٤ ـ اتخاذ اجراءات جبرية لمنع التوالد فيما بين هذه الجماعة .

٥ ـ نقل اولاد هذه الجماعة من شخص الى آخر بالقوة والاكراه .

ويتضح من مقدمة الاعلان العالمى لحقوق الانسان الذى ووفق عليه فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ ان من بين جملة اهدافه تاكيد الايمان بتساوى البشر

رجالا ونساء فى العزة والكرامة والاهمية والحقوق الانسانية الأساسية ، وتحقيق التعاون العالمى فى العمل على احترام حقوق الانسان ومنحه كل الحريات الأساسية دون تفريق على اساس الجنس او النوع او اللغة او الدين .

وتؤكد المادة ٥٥ من هذا الاعلان على أن الأمم المتحدة سوف تزيد من حمايتها واحترامها العالمى لحقوق الانسان وحرياته الأساسية .

ولم يعترض ممثلو اى شعب على اية مادة من مواد هذا الاعلان لأنه كان مجرد تعبير عن مبادىء عامة لم يفرض تنفيذها واتباعها على احد ، فهو ليس معاهدة ينبغى على الحكومات الموقعة عليها تنفيذ بنودها بحيث يفرض عليهم الالزام القانونى طبقا للقانون الدولى ، وانما ذكر فيه بوضوح ان ما تضمنه يعد معيارا او نموذجا يجب الاجتهاد فى احتذائه والوصول اليه. ومع هذا فقد امتنعت بعض الدول عن التصويت فى جانب هذه الحقوق او ضدها (١) .

وأمامكم ما يجرى فى العالم الآن من واد لكافة حقوق الانسان الأساسية فى ظل هذا الاعلان وتحت سمعه وبصره ، وممن ؟ من الدول العظمى المتحضرة التى وقعت بيديها عليه .

يتضح من هذه العجالة السريعة امران : الأول ان تصور حقوق الانسان فى العالم الغربى لا تاريخ له ولا وجود قبل قرنين أو ثلاثة . والثانى أن هذه الحقوق ــ بالرغم من أن العالم ما يفتأ يرددها ويطنطن باسمها ــ ليس وراءها اية سلطة أو قوة منفذة Sanction ، بل هى مجرد امان ورغبات صبت فى كلمات والفاظ ساحرة براقة .

ولو نظرنا الى الاسلام لرايناه قد اقر اعلان حقوق الانسان فى كتابه الكريم وهو ما اذاع ملخصه الرسول عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع. ويعد أقدم بكثير من اعلان الأمم المتحدة ، واتباعه فرض على الأمة الاسلامية سواء من الناحية الدينية أم الخلقية . وقد ترك لنا النبى عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون أمثلة عملية لتنفيذ هذا الاعلان لا يعد لها مثيل قط .

واذكر لكم فى السطور التالية مختصرا لما اقره الاسلام من حقوق للانسان :

---

(١) فى جلسة التصويت على اعلان حقوق الانسان وافقت عليه ٤٨ دولة وامتنعت ثمانى دول من التصويت .

١ ـ حرمة الروح او حق الحياة :

ورد فى القرآن الكريم ذكر اول حادثة قتل ، وكانت اول واقعة فى التاريخ الانسانى ازهق فيها انسان روح انسان* آخر فاقتضى الأمر حينذاك أن يعرف الانسان احترام الروح ، وحق كل انسان فى الحياة .. ثم يقول القرآن بعد ذكر هذه الواقعة :

« من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا »

المائدة ٣٢

ولقد اقر القرآن فى هذه الآية ان قتل اى انسان يعد قتلا للانسانية جمعاء ، وفى مقابل هذا جعل حماية روح أى انسان تعدل حماية أرواح النوع الانسانى بأسره . وبعبارة اخرى لو اجتهد انسان فى حماية الحياة الانسانية فقد أحيا الانسان ذاته . وياله من جهد خير حتى أن عد مساويا لاحياء الانسانية كلها باستثناء حالتين :

الأولى : من قتل شخصا عن عمد يقتل قصاصا منه .

الثانية : من عاث فى الأرض فسادا فقتله حلال .

فالله تعالى بين اصول ومبادىء حماية روح الانسان منذ بداية التاريخ الانسانى . اما الفكرة التى تزعم أن الانسان قد خلق فى ظلام وتيه ، وأنه قتل العديد من بنى جنسه ثم فكر فى مرحلة ما فى حتمية الاقلاع عن قتل بنى نوعه ، انما هى فكرة خاطئة من اساسها وتقوم على سوء الظن بالله تعالى ، لأن القرآن يذكر لنا ان الله هدى الانسان منذ بداية خلقه ، وان هدايته له تضمنت تعريفه بحقوق الانسان على الانسان .

٢ ـ حماية الضعفاء :

والأمر الثانى الذى يخبرنا به القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام أن التعدى على النساء والأطفال والمسنين والجرحى والمرضى أصدقاء ام اعداء أمر غير مشروع بأى حال من الأحوال الا اذا كانوا انفسهم مشتركين فى الحرب ، وما عدا ذلك من أحوال فالاسلام يمنع فيه الاعتداء عليهم منعا باتا . وهذه المبادىء ليست قصرا على شعبه وقومه بل هى مبادىء ينبغى اتباعها تجاه الانسانية كلها .

وقد وضع النبى عليه الصلاة والسلام فى هذا الأمر قواعد واضحة ، وكان الخلفاء الراشدون عند ارسالهم الجيوش لملاقاة العدو يوصونهم الا تنال

ايديهم ــ اثناء هجومهم على العدو ــ طفلا او امراة او عجوزا او جريحا او مريضا.

٣ ــ صون كرامة النساء :

والحق الآخر الذى نعرفه من آيات القرآن وتفصله لنا احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ان عصمة النساء يجب احترامها فى كافة الاحوال . يعنى انه لو قبض على نساء العدو اثناء الحرب فلا يجوز لجندى مسلم ان يمسهن بأذى لان فعل السوء مع اى امراة حرام تماما فى نظر القرآن بغض النظر عما اذا كانت هذه المراة مسلمة ام غير مسلمة ، من نفس القوم او من قوم آخر ، من دولة صديقة ام عدوة .

٤ ــ الحماية الإقتصادية :



وثمة مبدا اساسى فى الاسلام هــو أن للجائع ــ تحت اى ظرف من الظروف ــ الحق فى انيحصل على الطعام، كما أن للعريان الحق فى حصوله على كساء . وعلينا ان نقدم للجريح والمريض وسائل العلاج والدواء دون اعتبار لكون هذا الجائع أو العارى أو الجريح أو المريض عدوا ام صديقا ، لان هذا حق من الحقوق العامة Universal يجب معاملة الجميع على اساسه حتى ولو كانوا اعداء . فان وقع فى يدينا اسرى من افراد العدو نفرض علينــا الا نتركهم جياعا عرايا ، كما علينا عــلاج مرضاهم وجرحاهم (١) .

٥ ــ العدل والانصاف :

والعدل مع بنى الانسان مبدا اساسى حتمى من مبادىء القرآن الكريم .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى »

المائدة ٨

ويعين الاسلام فى هذه الآية المبدا الذى لابد من اتباعه مع الانسان فردا او جماعة بانصاف تام فى كل الظروف ، فهو يرى أن من الخطا الكبير أن نسلك مع الأصدقاء سلوك العدل والانصاف ونغفله مع الأعداء .

٦ ــ التعاون فى الخير وعدم التعاون فى الشر :

كذلك بين القرآن لنا مبدا هاما هو التعاون مع كل فرد فى امور الخــير

---

(١) انظر مثلا « وفى اموالهم حق للسائل والمحروم » الذاريات ١٩
وكذلك « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا » الانسان ٨

والحق وعـــدم التعاون مع اى انسان فى الشر والظلم وعلينا ان نشارك فى الخير ولو كان صادرا من جانب الأعداء **«وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان »**

المـائدة ٢

ومعنى البر لا يقتصر على الخير فقط بل يستخدم هذا اللفظ فى اللغة العربية للدلالة على اظهار الحق . وعلى هـــذا فمساعدتنا اى انسان على التقوى وعلى ادائه حقوق الآخرين مبدا هام من مبادىء القرآن .

٧ ــ حق المساواة :

لقد اكد القرآن على مبدا تساوى كافة النوع الانسانى أيما تأكيد ، وقال : لو ثمة فضل لأحد من افراده فهو فى الأخلاق والايمان .. **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم »**

الحجرات ١٣

فأول ما ذكره القرآن فى هذه الآية ان أصل الانسانية كلها واحد ، وان اختلاف الأجناس والألوان والألسنة ليس فى الحقيقة سببا معقولا فى تقسيم الانسانية والتفريق بينها .

ثانيا : ان الله أوجد هذا الاختلاف بين الشعوب للتعارف فحسب ، وبالفاظ اخرى ليس لأى عشيرة أو قبيلة او شعب فضل يرفع من حقوقه ويزيد من شأنه ، ويحط من قدر الآخرين ، وما خلقه الله من فروق تتمثل فى الصور والأشكال او اللغات والألسنة ليست مدعاة للتفاخر ، بل هى وسائل نميز بها بين افرادها نوعنا . ولو أن بنى الانسان كلهم على شـكل واحد ولغة واحدة ولون واحد لما امكن التمييز بينهم . فهـــذا التقسيم تقسيم فطرى طبيعى لكنه ليس أساسا لهضم حقوق الآخرين أو التفريق بينهم دون ذنب جنوه . اما الافتخار والتعالى فعلى أساس الناحيـــة الأخلاقية .

وقد أوضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه المعانى بطرق مختلفة وقال فى خطبته بعد فتح مكة :

« لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا احمر على اسود ولا لأسود على احمر الا بالتقوى ولا فضل للانساب »

ويعنى ان الأفضلية على اساس الدين والتقوى ، فليس هناك انسان

خلق من فضة وآخر من حجر وثالث من طين .. بل كل الآدميين سواء (١).

٨ ــ حق اجتناب المعاصى :

كذلك اقر الاسلام مبدأ آخر هو الا حق لاحد ان يأمر الانسان بارتكاب المعاصى ، فالانسان لا يجب بل ولا يجوز له اذا ما امر بمعصية ان يطيع هذا الأمر لأن قانون القرآن يقضى بأن لو احد الضباط مثلا امر من هم اقل منه رتبة ليقوموا بأعمال غير مشروعة ، او امرهم بالتعدى على احد دون سبب فلا يجوز لهم طاعة هذا الأمر . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

ان ما اقر الخالق بحرمته وعدم مشروعيته ، او وصفه بانه معصية لا يحق لمخلوق ان يأمر احدا بارتكابه . فليس من حق من بيده اصدار الأمر ان يصدر امرا بالمعصية ، كما ان من يصدر اليه مثل هذا الأمر لا حق له فى طاعته وتنفيذه .

٩ ــ حق رفض طاعة الظالم :

ومن مبادىء الاسلام العظيمة ان الظالم ليس له على الناس حق الطاعة وقد جاء هذافى القرآن الكريم حين اقر الله تعالى سيدنا ابراهيم اماما وقال: « **انى جاعلك للناس اماما** » ، فسال ابراهيم ربه« **ومن ذريتى** » فاجابه الله « **لا ينال عهدى الظالمين** » البقرة ١٢٤ . والعهد فى هذه الآية مستعمل بمعنى اللفظ الانجليزى Letter Of Appointment

فالله تعالى يقول فى هذه الآية : ان ليس لدى الظالمين تصريح أو أمر من الله بمطالبة الاخرين بطاعتهم (٢) ، ولذا ذكر الامام أبو حنيفة الا يحق لظالم ان يؤم المسلمين فان تمكن من ذلك فلا تجب على المسلمين طاعته .

١٠ ــ حق الاشتراك فى العمل السياسى :

قرر الاسلام للانسان ضمن ما قرر من حقوق أساسية حق اشتراك كل

---

(١) من بين الاسباب التى على اساسها اقر القرآن ببطلان النظام الفرعونى « **ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم** » القصص ٤ اى ان الاسلام لا يبيح تقسيم افراد المجتمع الواحد الى طبقات عليا واخرى دنيا او طبقة حكام وطبقة محكومين .

(٢) امامنا فى ذلك آيات صريحة مثل « **ولا تطيعوا امر المسرفين** » الشعراء ١٥ ــ « **ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا** » الكهف ٢٨ ــ « **واجتنبوا الطاغوت** » النحل ٣٦ ــ **وتلك عاد جحدوا بايات ربهم وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد** » هود ٥٩ .

أفراد المجتمع فى الحكومة ، اذ لا بد وان تكون الحكومة بمشورة الأفراد . يقول القرآن « **ليستخلفنهم فى الأرض** » النور ٥٥ ، وقد جاء الضمير هنا فى صيفة الجمع فقال اننا سنستخلف القوم كلهم لا بعض أفراده . فالحكومة ليست لفرد أو اسرة او طبقة ، لكنها حكومة الامة باسرها وتتكون بمشورة الأفراد كلهم « **وامرهم شورى بينهم** » الشورى ٣٨ « **وشاورهم فى الأمر** » آل عمران ١٥٩ يعنى ان الحكومة تسير بالتشاور فيما بينالأفراد . وتوضح كلمات عمر رضى الله عنه هذا الأمر توضيحا تاما اذ يقول : « ليس لأحد ان يلى امر المسلمين دون مشورة منهم » .

فمن رضى به المسلمون ولوه امرهم ، ومن لم يرضوا به فلا حكم له عليهم وعلى هذا يقيم الاسلام الحكومة على مبادىء الشورى والديمقراطية . ومن سوء حظنا أن لا يزال يفرض علينا عبر أدوار تاريخنا حكام غير شرعيين . وليكن معلوما ان الاسلام لا يبيح لنا تولية مثل هؤلاء الحكام وتوليهم السلطة ليس الا نتيجة حتمية لحماقاتنا .

١١ ــ حماية الحرية :

لايمكن فى الاسلام سلب حرية اى انسان الا بالعدل والانصاف . يقول سيدنا عمر رضى الله عنه « لا يؤسر رجل فى الاسلام الا بحق » ، والحق من وجهة نظره هنا هو ما يسمى الآن تحقيقا قانونيا عادلا . أو بالتعبير الانجليزى Judiclal Process of Law يعنى يشترط لسلب حرية انسان ما وجود تهمة موجهة ضده ، وان يعطى فرصة الدفاع الكامل عن نفسه ، وان يحاكم امام محكمة عامة عادلة . أما مادون ذلك فلا يسمى عدلا .

ان العقل العام يقتضى ان يكون عقاب المذنب عقابا عادلا منصفا ، أما ان يلقى القبض على الانسان ويوضع فى الأغلال دون تهمة ومحاكمة عادلة فهذا سلوك لا يوجد فى الاسلام . وقد جعل القرآن تحقق العدل والانصاف واجبا على كل من الحكومة ودار القضاء الاسلامية (١) .

١٢ ــ حماية الملكية :

يوضح القرآن حقا اساسيا بشان الملكية الخاصة فيقول « **ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل** » البقرة ١٨٨ . ولو تدارسنا القرآن والحديث والفقه الاسلامى لعلمنا علم اليقين ان اكل أموال الآخرين باطل أيا كان اسلوبه

---

(١) انظر مثلا « **واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل** » النساء ٥٨ وغيرها .

وطريقته ، فلا حق لأى فرد أوحكومة أن يتخطى القانون ويستولى على ملكية احد أو ينال منها أكثر من تلك الحالات التى أوضحها الاسلام نفسه .

١٣ ـ صون الكرامة :

من بين حقوق الانسان الأساسية فى الاسلام أن تصان عزته وكرامته وماء وجهه وهذا الحق مفصل فى سورة الحجرات مثل :

١ ـ لا يسخر قوم من قوم .

٢ ـ ولا تنابزوا بالألقاب .

٣ ـ ولا يغتب بعضكم بعضا .

الحجرات ١١ ـ ١٢

يعنى منع كافة الأشكال التى من شأنها المساس بعزة الانسان وكرامته ، فلا تجوز السخرية من احد حاضرا كان أم غائبا ، ولا يجوز اطلاق ما قبح من الفاظ عليه لأن حق الانسان القانونى الا تتعرض كرامته وحياؤه للخدش والتجريح من قبل اى انسان ، والا يتعدى عليه احد باليد أو اللسان .

١٤ ـ حماية الحيـــاة الخاصة :

ومن حقوق الانسان الأساسية فى الاسلام ايضا الحفاظ على حيـاته الخاصة ، وتوضح سورة النور هذا الامر « **لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا** » آية ٢٧ . وتقول سورة الحجرات « **ولا تجسسوا** » آية ١٢ . كما تبين لنا الأحاديث النبوية الشريفة الا حق لأحد فى أن ينظر من منزله ليرى عورة منازل الآخرين . فلكل انسان الحق القانونى أن يكون منزله فى مأمن عن عيون الآخرين وشغبهم وضوضائهم ودخولهم اياه ، وأن يجلس اهل بيته فى مسكنهم دون حجاب أو تحرج بل واكثر من ذلك ليس لأحد ان ينظر فى رسالة الآخر ليقرأ ما بها .

فالاسلام يحمى حياة الانسان الخاصة ويحفظها ويمنع تفحص البيوت وتدقيق النظر فيها منعا باتا ويوصينا الا نقرأ رسائل الآخرين الا اذا علم من مصدر وثيق ان هــذا الشخص يزاول عملا مريبـــا خطيرا ، وما عدا ذلك فالشريعة الاسلامية لا تبيح التجسس على احد مهماكان .

١٥ ـ حق الاحتجاج على الظلم :

يعطى الاسلام للانسان حقه الكامل فى الاحتجاج على الظلم « **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم** » النســـاء ١٤٨ . بمعنى ان المظلوم له الحق فى الاعتراض والاحتجاج على من ظلمه .

١٦ – حرية التعبير عن الراى :

وهناك مبدأ يقال له بالمصطلح الحديث حرية التعبير Freedom Of Expression بينه القرآن بالفاظ اخرى حين يقول ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس حقا من حقوق الانسان فحسب بل هو فرض عليه وواجب . وطبقا لما ورد فى القرآن والحديث نجد فرضا على الانسان ان يامر الناس بالخير ويساعدهم عليه ، وينهاهم عن الشر ويكفهم عنه . فان راى شرا او منكرا فليس عليه ان يحتج ضده فقط بل عليه كذلك ان يحاول منعه وازالته ، اما التزام الصمت ازاءه وعدم محاولة وقفه وكفه فهو ذنب يقترفه الانسان ويكتب عليه لآن واجب المسلمين تطهير المجتمع الاسلامى . ويعد منعهم من القيام بهذا الواجب ظلما كبيرا لا مثيل له .

ان من يمنع انسانا عن اظهار الحق ومساندته فهو بفعله هذا لا يسلبه حقا اساسيا فحسب ، بل يعوقه ايضا عن اداء فرض من الفروض ولابد من حصول الانسان — فى اى ظرف — على هـذا الحق من اجل صحة المجتمع وسلامته .

وقد ذكر القرآن سباب انحطاط بنى اسرائيل وكان من بينها انهم « **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** » المائدة ٧٩ ، يعنى أن لو اصبح شعب من الشعوب لا يعترض او يحتج على منكر او شر فسوف تستشرى هذه المنكرات تدريجيا فى سداة المجتمع ولحمته ، ويصبح كالثمار المتعفنة المعطوبة التى تلقى بعد قطافها ، ولا يبقى بين هذا الشعب وبين استحقاقه عذاب الله ادنى حائل .

١٧ – حق حرية الاعتقاد :

اعطى الاسلام الانسانية مبدأ « **لا اكراه فى الدين** » البقرة ٢٥٦ ، واعطى فى ظله كل فرد الحرية فى ان يختار من الكفر او الايمان ما يشـاء . اما استخدام القوة فى الاسلام فهو لأمرين ضروريين اولهما جهاد الاعداء من اجل حماية استقلال وكيان الدولة الاسلامية ، وثانيهما حماية الأمن والنظام وتنفيذ الاجراءات القانونية العادلة لمنع الجرائم والفتن .

لقد كان حق حرية الاعتقاد حقا غاليا ثمنيا ظل المسلمون فى مكة ثلاثة عشر عاما يكافحون من اجله ويتحملون المشاق فى سبيله حتى استقر فى النهاية . وكما حصل المسلمون عليه اعترفوا به كاملا متكاملا بالنسبة للآخرين . والتاريخ الاسلامى كله يخلو من فرض المسلمين دينهم بالقوة والاكراه على الرعايا غير المسلمين او اضطهادهم شعبا لينطق بكلمة او حرف .

١٨ ـ الحماية من الاضطهاد الدينى :

لا يسمح الاسلام باضطهاد الجماعات الدينية بعضها الآخر ، او ان تنقص كل منها من قدر ائمة الآخرين وزعماءهم او تلحق بهم الاهانة والسباب وما اليها فالقرآن يعلمنا احترام معتقدات الآخرين الدينية واحترام ائمتهم وزعمائهم « **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله** » الانعام ١٠٨ .

فالجدل المهذب بين مختلف المذاهب والنقد السليم واظهار مواطن الاختلاف كلها أمور تندرج تحت حرية التعبير ، أما الاهانة والاضطهاد والاكراه فهى أمور ممنوعة غير مشروعة .

١٩ ـ حق حرية التجمع :

ان حرية الاجتماع هى النتيجة المنطقة لحرية التعبير . وبما ان القرآن قد اوضح كثيرا أن اختلاف الآراء حقيقة ملازمة للحياة الانسانية ، فانى له الا يعترف بحركة صاحب الراى بين الناس ؟ فمن الممكن ان تظهر بين الامة التى تجتمع على مبدأ واحد ونظرية واحدة مدارس مختلفة يتقارب دعاتها على اى حال فيما بينهم . « **ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر** » آل عمران ١٠٤ وحيث أن هناك فرق بين التصورات التفصيلية لمفاهيم « الخير » و « والمعروف » و « المنكر » ، فان المتحدين على نظرية واحدة فى الأمة قد تتشكل بينهم ـ على هذا الأساس ـ مدارس فكرية مختلفة ، وجماعات واحزاب متعددة ومن ثم تظهر جماعات تختلف فيما بينها باختلاف آرائها فى النظريات السياسية والقانون والفقه وما الى ذلك .

فالسؤال اذن هل من حق الجماعات التى تختلف فيما بينها فى وجهات النظر ان تنال حرية الاجتماع فى ظل الدستور الاسلامى وميثاق الاسلام الخاص بحقوق الانسان ؟ لقد ظهر هذا السؤال امام سيدنا على رضى الله عنه بظهور الخوارج ، واعترف لهم بحقهم فى حرية الاجتماع وكان فحوى كلامه لهم انكم احرار طالما لم تجردوا سيوفكم لتفرضوا نظريتكم على الآخرين كرها .

٢٠ ـ المسئولية الفردية :

والانسان فى الاسلام لا يسأل إلا عن افعاله وجرائمه فقط ، ولا يجوز القبض عليه بسبب جرائم اقترفها الآخرون « **ولا تزر وازرة وزر اخرى** » الانعام ١٦٤ . فليس فى القانون الاسلامى ان يترك المجرم ويقبض على البرىء .

٢١ ـ لا عقاب بدون جريمة :

ان كل انسان يعيش فى ظل الاسلام فى مامن من ان يتخذ ضده اى اجراء بدون تحقيق ، وقد وضع القرآن فى هذا عدة قواعد تقضى بضرورة اجراء تحقيق عادل فيما ينسب لأى انسان من اتهامات من اجل الا تتخذ اجراءات ضد فرد او جماعة دون الوقوف على حقيتها « **اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم** » الحجرات ١٢ (١) .

هذا هو مجمل الحقوق التى أعطاها الاسلام للناس ، وتصوره الذى بينه للانسان منذ بداية الحياة الانسانية تصور واضح كامل .

والأمر الذى تجدر الاشارة اليه ان اعلان حقوق الانســان العالمى قد صدر الى العالم دون ان يحظى بأية قوة أو سلطة منفذة ، فلم يكن أكثر من نموذج ومعيار لم يتبعه اى شعب من الشعوب او يعمل وفق نصوصه ، لأنه ليس معاهدة فعالة تعطى الحقوق لسائر الشعوب .

اما المسلمون فهم يتبعون قواعد ومبادىء كتاب الله وسنة رسوله حيث أوضح الله ورسوله فيهمــا كافة الحقوق الأساسية ايضــاحا تاما . وعلى الدولة التى تريد أن تصبح دولة اسلامية أن تعطى المسلمين وغير المسلمين هذه الحقوق دون تحيز أو مجاملة ، بلا حاجة الى معــاهدة تنص على أن نعطى الشعب الفلانى هذا الحق أو ذلك اذا أعطانا اياه لأن المسلمين يمنحون عدوهم وصديقهم هذه الحقوق بالتساوى والقسطاس المستقيم .

---

(١) انظر كذلك « ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » الحجرات ٦ .

الفصل الثانى

الاسلام والعدالة الاجتماعية

لقد خلق الله الانســان فى أحسن تقويم ، وجعل احدى سمات هــذا التقويم الفريدة قلة الرغبة فى اقتراف الفساد عيانا وبث الفتنة صراحة ، ومن ثم غالبــا ما يجد الشيطان نفسه مضطرا للاجتهــاد بكافة الطرق كى يحتال على الانسان ويدس له السم فى العسل ، ويضفى على الفتنة والفساد ثوبا مقبولا . وهذا ما فعله مع آدم عليه الســلام فى الجنــة . اذ ما كان الشيطان ليستطيع خداعه صراحة بقوله « اننى أريدك أن تعصى الله لتخرج من الجنة » بل قال له **« هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »** طه ١٢٠.

ولا تزال الفطرة الانسانية كما هى منذ خلقت لا تتبدل ولا تتغير ، ولا يزال الشيطان يوقع الانسان فى كثير من الأخطاء وعديد من الحماقات . وها نحن نرى صيحات الضلال ونعرات الخديعة تستساغ مقبولة فى اردية مزورة واثواب مغايرة .



بعض خداع الشيطان فى العصر الحديث :

والعدالة الاجتماعية واحدة من حيل الشيطان والاعيبه التى صنعها بيديه وقدمها للانسانية فى العصر الحديث . ولو رجعنا الى الماضى قليلا لرأينــا كيف ظل الشــيطان الى فترة يخــدع العالم تحت اســم الحرية الفردية والتحررية « الليبرالية » ، واقام منها نظاما اساسه الراسمالية وعماده اللا دينية . وقد قوى هذا النظام وساد بلادا كثيرة ، وكان ينظر اليه آنذاك على انه ذروة التمدن الانسانى وقمة التقدم والتحضر ، وان الذين يحبون ان يوصفوا بالتمــدن والرقى عليهم أن يرفعوا اصواتهم منــادين بالحرية الفردية والتحرر والتحلل ، واذا كان ولابد من نظام للحياة الانسانية فهو هذا النظام فقط الذى يقوم على الراسمالية والديمقراطية اللادينيــة التى نشأت واستوت على سوقها فى بلاد الغرب .

ثم توالت الأيام ، واتى على الانسانية حين من الدهر شعرت فيه ان هذا النظام الشيطانى قد ملاء العالم بأسره ظلما وجورا . عندئذ لم يستطع ابليس اللعين التمادى فى خداع البشرية مدة اطول بنفس هــذه الخدعة ، فحاك حيلة جديدة قدمها للانسانية باسم العدالة الاجتماعية والاشتراكية، وها هو يقيم بها نظاما ملأ دولا عديدة بالظلم الفاحش العظيم الذى لم ير

التاريخ مثله . وكانت خدعته هذه المرة من القوة بمكان حتى أن كثيرا من الدول والشعوب اعتبرتها سدرة المنتهى فى « التقدمية » والرقى ، وما تفتا توطد نفسها لقبولها . وحتى الآن لم يسقط القناع عن هذه الخدعة .

ولو نظرنا الى المسلمين لوجدنا عندهم فى كتاب الله وسنة رسوله قانونا وهديا ابديا كافيا لان ينبههم للوساوس الشيطانية الى الآبد ، وقادرا على ان يوضح لهم كل مناحى الحياة وامورها . غير انهم ــ المساكين ــ يجهلون امر دينهم ويخضعون تحت قهر تيار الفزو الاستعمارى الفكرى والحضارى منذ امد بعيد ، ولهذا فكل صيحة ترتفع فى معسكر الشعوب القاهرة الفازية يعلو صداها من ديارنا المفلوبة المقهورة .

فمثلا حين اشتد تيار الأفكار الناجمة عن الثورة الفرنسية ، فهم المثقفون فى الامم الاسلامية ان واجبهم ابراز مكانة تلك الافكار وصب مجتمعاتهم وانفسهم فى قوالبها ، وراوا آنذاك أنها ستذهب بالعقول الرجعية المتخلفة ، وان العزة والكرامة هيهات ان تقوم لها قائمة فى أقطارهم بدونها .

ولما انصرم عهد الثورة الفرنسية وما تمخضته من أفكار بدات قبلة مثقفينا فى التحول والدوران ، وما هى الا سنوات حتى شرع المنادون بالعدالة الاجتماعية ودعاة الاشتراكية فى الظهور بين ظهرانينا . والأمر الى هذاالحد يمكن احتماله والصبر عليه .

لكن ما يستحق الفضب كل الفضب ان جماعة قامت بيننا تريد الاسلام ان يفير قبلته كما غيرت هى قبلتها ، وكانهم ــ المساكين ــ لا يستطيعون الحياة بفير الاسلام وكأن بقاءه بينهم ضرورى ، لكنهم يبفون فقط أن يتشرف الاسلام باتباع طريق التقدم التى اتبعوها حتى ينجو من التهمة الموجهة اليه بانه « دين رجعى » .

من اجل هذا كانت محاولات مثل هؤلاء الأفراد فيما مضى اثبات أن التصورات الفربية فيما يتعلق بالحرية الفردية والتحررية والراسمالية والديمقراطية اللادينية هى عين الاسلام .. وهاهم الآن يحاولون أيضا اثبات أن العدالة الاجتماعية بالمفهوم الاشتراكى من صميم الاسلام .

حقيقة العدالة الاجتماعية :

واود ان ابين فى هذا المقال المختصر ماهية العدالة الاجتماعية والشكل الحقيقى لاقامتها ، ولو ان الامل ضئيل فى أن يكتشف الذين فهموا الاشتراكية على انها المرادف الوحيد للعدالة الاجتماعية ويصرون على

تنفيذها وتطبيقها اقول الامل ضئيل فى ان يكتشف هؤلاء خطاهم ويرجعوا عنه ، اذ الجاهل لو ظل جاهلا فهناك امكانية فى اصلاحه ولو قليلة اما اذا اعتلى العرش ووصل الى الحكم فانه ينادى فى الناس **« ما علمت لكم من اله غيرى »** القصص ٣٨ ولا يبقى على من يحاول افهامه ما لا يفهم .

لكن جمهور الناس وعامتهم — والفضل فى ذلك لله وحده — يقبلون فى كل عصر وزمان محاولة افهامهم بطريقة معقولة ، ثم يتنبهون لفعال الشيطان وخداعه وحيله . وهؤلاء هم جمهور العامة بعينهم الذين يخدعهم الضالون ويبهرونهم ببدعهم وضلالاتهم ولهذا قصدت من مقالى هذا أن اضع الحقيقة امام جمهور العامة من الناس .

لا عدالة الا فى الاســلام :

انأول ما أحب أو أوضحم للاخوة المسلمين أن أولئك الذين ينادون بأن « فى الاسلام أيضا عدالة اجتماعيــة » انما يخطئون خطأ كبيرا ، فالصواب أن العدالة الاجتماعية لاتوجد الا فى الاسلام وحده لانه دين الحق الذى انزله خالق الكائنات وربها لهداية الانسان . واقامة العدل بين الناس وتقرير ما هو عدل وما ليس عدلا انما هو من امر خالق الكائنات وربها ، كما أن أحدا ايا كان لا يملك حق وضع معيار العدل والظلم ، ولا توجــد فى أى شخص آخر هذه الأهلية التى من شأنها اقامة العدل الحقيقى ، وليس فى مقدرو الانسان أن يملك نفسه أو يحكمها حتىيجيز لها أن تضع معيار العدالة .

فحقيقة الكائنات أنها مملوكة لله وأنها رعيتــه ، ومن ثم فهى لا تملك تقرير معيار العدالة لأن هذا من اختصاص مالكها وحاكمها . ثم أن الانسان مهمــا بلغت منزلته يعتمــد على عقله وذهنــه الذى لا شك فى قصـــوره ومحدوديته وعدم قدرته علىالوصول الى الحقيقة الكاملة مما يحتم وقوعه بأى حال تحت تأثير الرغبات والأوطار والتعصبات المختلفة ، وعلى هــذا ليس فى مكنة الانسان أن يضع لنفسه نظاما مبنيا على العــدل الحقيقى . ولعل التجربة العملية تثبت لنا أن اى نظام يضعه الانسان من نفســه — مهما بدا فى ظاهره عادلا — سرعان ما يتحقق فشله بعد مدة فيستاء منه ويلفظه ، ثم يقدم على تجربة اخرى حمقاء .

اما العدالة الحقيقية فلا توجد الا فى النظام الذى صــنعه عالم الغيب والشهادة ذو الوجود المقدس .

الأمر الثانى الذى يلزمنى ايضاحه ايضـــا أن من قال « ان فى الاســلام عدلا » فقد قال ما دون الحقيقة ، اذ الحقيقة التى لا مراء فيها أن العدل

وحده هو هدف الاسلام وبيت قصيده وان الاسلام نزل فقط لاقامة العدل يقول تعالى :

« لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز » .

الحديد ٢٥

هذان الأمران الآنف ذكرهما اذا لم يغفلهما المسلم فى بحثه عن العدالة الاجتماعية فهيهات له ان يقع فى خطأ اخذ العدل عن مصدر آخر وترك الله ورسوله ، وعليه عندما يشعر بضرورة العدل أن يعلم ان العدل لا يمكن وجوده عند أحد سوى الله ورسوله ، واما اقامة العدل لا يحققها الا تطبيق الاسلام كاملا بلا ادنى اقلال او نقصان ، فالعدل ليس شيئا منفصلا عن الاسلام ، والاسلام نفسه هو العدل :، واقامته واقامة العدل شيىء واحد .

ما هى العدالة الاجتماعية ؟

واعرض لكم الآن حقيقة العدالة الاجتماعية والصورة الصحيحة لتحقيقها وقيامها :

تكوين الشخصية الانسانية :

ان اى مجتمع انسانى يتكون نتيجة اجتماع آلاف وملايين وعشرات الملايين من البشر وتضم بنيته كل فرد ذى روح وعقل وشعور ، ولكل فرد فيه شخصيته التى لابد لها من أن تنال حظها من فرص التربية والتنشئة ، كما لكل فرد فيه أيضا ذوقه الخاص ولنفسه بعض الرغبات والمرادات ولجسده وروحه بعض الضرورات اللازمة .

فحقيقة الاشخاص انهم ليسوا أجزاء آلية فى ماكينة بلا روح بحيث ان الماكينة تعتبر هى الأصل وهذه الأجزاء مطلوبة لها بعينها دون أن تكون لها اية شخصية ، بل الأمر على عكس ذلك فالمجتمع الانسانى جماعة من الآدميين ليسوا ملكا للمجتمع بل المجتمع ملك لهم ، وهم الذين صنعوه وكونوه ليحصلوا على ضروراتهم بتعاملهم مع بعضهم البعض ، وبمساعدة كل منهم الآخر من أجل اشباع حاجاتهم النفسية والجسدية .

المسئولية الفردية :

ثم ان هؤلاء الافراد يستجوبون أمام الله فرادى ، ولكل منهم فترة اختيار مقررة لكل على حده ـ عليه أن يقضيها ثم يأتى أمام الله ليحاسبه عن

القدرات والطاقات والصلاحيات التى اعطيت له فى الدنيـا وكيف تصرف فيها وماذا فعل بها ، وعن الوسائل والأسـباب التى منحت له وتيسرت لحياته فيم استخدمها واى شخصية كونها لنفسه ورباها ثم اتى بها امام الله .

وحساب الانسان امام الله لن يكون جمـاعيا بحيث تحاسب كل اسرة وقبلية وشعب عن سلوك أفراده ككل ، بل سيكون فرديا فيأتى الناس بعد انقطاعهم عن كافة علائق وروابط الدنيا ليمثلوا امام عدالته ، ويسـأل كلا منهم عما فعل وقدمت يداه .

الحرية الفردية :

هذان الأمران ــ اعنى تكوين الشخصية الانسانية فى الدنيا ، واستجواب الانسان الفردى فى الآخرة ــ يتطلبان حصول الفرد على حريته فى الدنيا . فان لم يحصل الانسان على فرص بناء شخصيته وانمائها وتكميلها وفق رغبته وراداته ، فان الانسانية تتوقف فى داخله ويشعر بالاختناق وتفتر قواه وتنهار قدراته ويجد نفسه حبيسا مقيدا فيقع فريسة للجمود والتحجر لكن مسئولية تقصيره فى هذه الحالة سـوف تقع فى الآخرة على من صنعوا هذا النوع من النظام الاجتماعى واقاموه ، فهم لن يحاسـبوا على اعمالهم الفردية ومقترفاتهم الشخصية فحسب وانما ايضا على اقامتهم نظاما جبريا واجبارهم الناس على تكوين شخصيات ناقصة ضد رغبتهم أو وفقها .

والظاهر أن أحدا ممن يؤمنون بالآخرة لا يستطيع ان يتصور وقوفه بين يدى الله حاملا هذا العبء الثقيل ، اذ لو كان يؤمن بالله ويخشاه لمال الى منح الأفـراد مزيدا من الحرية حتي يتحمـل كل شخص تبعة ما يرتكبـه ومسئولية ما يجنيه ، ومن ثم لا تقع مسئولية خطأ تكوين الشخصية على من بيدهم اقامة النظام الاجتماعى وحكمه .

النظم الاجتماعية وسلطتها :

كانت السطور الماضية تتعلق بالحرية الفردية ، ولننتقل الآن الى الطرف الآخر واقصد به المجتمع .

والمجتمع يتكون من اسر فقبائل فشعوب فانسانية بأسرها ، وهو فى بدايته رجل وامراة ومنهما ومن أولادهما تتكون الأسرة ، ومن مجموع الأسر تنشأ القبيلة ، ومن القبائل يتشكل الشعب ، والشعب هو الذى يصـنع نظام الحكم من أجل تنفيذ متطلباته الاجتماعية .

والفرض الاساسى الذى من أجله تنشأ النظم الاجتماعية على اختلاف

اشكالها هو المحافظة على الأفراد وحصول الفرد على فرص لتكوين وبناء شخصيته بالاشتراك مع بقية الأفراد ومساعدتهم ما كان فى امكانه الحصول عليها بطاقته الفردية ، بيد ان تحقيق هذا الهدف الأساسى لا يكون بغير وجود سلطة لكل شكل من الأشكال الاجتماعية على الأفراد ، ثم للأشكال الكبيرة على الأشكال الصغيرة من أجل التحكم فى حرية الفرد وضبطها كى لا يتطاول على الآخرين ، وحتى يمكن تحقيق التقدم والصلاح لأفراد المجتمع كافة .

وما ان نصل الى هذا المقام حتى تبرز أمام أعيننا مشكلة العدالة الاجتماعية ، وتصطرع المتطلبات الفردية والجماعية المتضادة فيما بينها . فمن ناحية يقتضى فلاح الانسان حصوله على حريته الشخصية فى المجتمع ليتسنى له تكوين شخصيته كما يجب ووفق صلاحياته ، كذلك يتطلب هذا الفلاح ايضا حصول الأسر والقبائل والعشائر على الحرية اللازمة فى ممارسة عملهم داخل دائرة المجتمع ومن ناحية اخرى ينبغى لتحقيق خير المجتمع وصلاحه أن تكون للأسرة سلطة فوق الأفراد ، وللقبيلة سلطة فوق الأسر ، وللحكومة سلطة عامة فوق الأفراد جميعهم وفوق كل الأشكال الاجتماعية التى يتألف منها المجتمع وذلك للحد من حرية الفرد حتى لا يتعدى على الآخرين بالظلم والجور .

عندئذ تبدو للانسانية جمعاء مشكلة الاقرار بحرية الشعب والحكومة من ناحية وضرورة وجود قوة ضابطة فوق الحكومات والشعوب من ناحية اخرى كى تمنعهم من تجاوز الحدود المخصصة لكل منهم .

نخلص من هذا الىان العدالة الاجتماعية فى حقيقتها تعنى منح الافراد والأسر والعشائر والقبائل والشعوب قدرا مناسبا من الحرية ، ولمنع الظلم والجور تحصل الأشكال الاجتماعية المختلفة على سلطة فوق الأفراد ، كما يحصل كل شكل منها على سلطة فوق الآخر من أجل تحقيق الاستقرار والسعادة للمجتمع بأسره .

عيوب الرأسمالية والاشتراكية :

والحقيقة الأساسية التى تبدو للوهلة الأولى أن ذلك النظام الذى نتج عن الثورة الفرنسية واتخذ من الحرية الفردية والتحررية الليبرالية والرأسمالية والديمقراطية اللادينية اساسا له انما هو نظام مناف للعدالة الاجتماعية ، ومثله بل واكثر منه هذا النظام الذى يسير وفق نظريات ماركس وانجلز فهو اشد تنافيا مع العدالة الاجتماعية .

فأما النظام الأول فعيبه انه اعطى الفرد حرية أكثر من الحد اللازم ،

وسمح له بالتعدى والتطاول على الاسرة والقبيلة والمجتمع والشعب ، وتراخى مع القوة الضابطة فى المجتمع والتى يرجى بها تحقيق الخير للشعب

واما العيب فى النظام الثانى فهو انه يعطى الحكومة قوة وسلطة اكثر من الحد اللازم ، ويسلب الافراد والاسر والقبائل حريتهم جميعا ليسخر الافراد لخدمة المجتمع ، ويقلب حقيقة الانسان من آدمى ذى روح انى آلة او جزء فى آلة بلا روح . فلعمر الحق ان من يزعم ان العدالة الاجتماعية تتحقق عن طريق مثل هذا النظام انما يقول كذبا وافتراء وبهتانا .

الاشتراكية اسوا اشكال الظلم الاجتماعى (١) :

والاشتراكية فى الحقيقة هى اسوا شكل من اشكال الظلم الاجتماعى لم يظهر مثله فى زمن النمرود ، ولا فى عصر فرعون او جنكيزخان . فاى عاقل هذا الذى يرى العدالة الاجتماعية فى قيام شخص او بضعة اشخاص بتاليف فلسفة اجتماعيةوتكوين حكومة ذات سلطات واسعة غير محدودة ، وفرضهم هذه الفلسفة بالقوة على سكان دولة باكملها يبلغ تعدادهم عشرات الملايين من البشر ، ثم اذا بهم يستولون على الاراضى ويؤممون المصانع ، وحولوا بلدهم سجنا اغلقوا فيه كل باب امام الناس للنقد او الشكوى او الاستغاثة او العدالة والانصاف . فليس من حقهم تكوين تجمع او تنظيم ، وليس من صحافة تحت ظل هذ االنظام يستطيع الناس التعبير عن آرائهم من خلالها ، ولا من محكمة عادلة يطرقون ابوابها طلبا للانصاف ، كما ان نظام الجاسوسية منتشر على نطاق واسع حتى ان الانسان يخشى اخاه ان يكون جاسوسا ، وعلى من اراد ان يفتح فمه داخل منزله ان يجيل بصره فى الجدران المحيطة به خوفا من ان تكون لها اذن تسمع قوله او لسان ينقل كلامه الى الحكومة . وامعانا فى الخداع والتزييف تسبك طبخة الانتخابات بمعرفة هذه الحكومة من اجل التمثيل على الناس باظهار الديمقراطية ولكن هيهات لاحد من المخالفين لاعضاء الحكومة فى الراى ان يفوز فى هذه الانتخابات . بل ان من يشترك معهم او يدخل فى زمرتهم ليس له ان يعبر عن رايه او الا يكون بائعا لضميره .

ولو فرضنا ان مثل هذا النظام قد يؤدى الى توزيع الثروة توزيعا متساويا فان اى نظام اشتراكى لم يستطع حتى اليوم تحقيق هذا .

ثم هل العدالة الاجتماعية هى مجرد المساواة الاقتصادية ؟ انا لا اسال عما اذا كانت هناك مساواة اقتصادية فعلا بين الحكام والمحكومين فى هذا

---

(١) يقصد المؤلف بالاشتراكية هنا ــ الاشتراكية العلمية التى يدين بها المعسكر الشيوعى او ما شاكلها من النظم الاخرى .

النظام ام لا ، ولا اسأل ايضا عما اذا كان مستوى المعيشة متساويا بين الديكتاتور (١) واى فلاح من الخاضعين لهذا النظام ام لا ، انما اسأل فقط لو أن هناك مساواة اقتصادية فعلية بين الجميع فهل تسمى عدالة اجتماعية .

هل العدل ان يكون للديكتاتور ورفاقه مطلق الحرية فى اختراع هذه الفلسفة وفرضها على الناس جبرا وتسلطا عن طريق تجنيد كل قوى هذا النظام البوليسية والعسكرية والجاسوسية بأقصى طاقاتها ، وليس لأحد ان ينطق مجرد كلمة واحدة تتعلق بأدنى جزء من هذه الفلسفة واسلوب تنفيذها ؟

هل من العدالة ان يكون للديكتاتور وحفنة من حماته حق تسخير كافة السبل والوسائل وصنع كل نوع من التنظيمات من أجل الترويج لفلسفتهم، بينما لا يستطيع من يخالفهم الراى او يجرؤ على ان يكون تنظيما ولو من شخصين اثنين وا يتحدث الى جماعة او ينشر كلمة فى الصحافة ؟

هل من العدالة ان يجعل هذا الديكتاتور ملاك الأراضى واصحاب المصانع معدمين تماما ، ثم يجعل الدولة هى المالك الوحيد للاراضى والمصانع ثم يركز الحكم فى ايدى افراد معدودين لهم مطلق الحرية فى اختيار كافة الطرق والوسائل لجعل الشعب برمته بلا حرية او اختيار ، ويصبح خروج السطلات من أيديهم واستقرارها فى ايدى غيرهم امرا مستحيلا ؟

واذا كان الانسان لا يحيا ليأكل فقط وحياته ليست قصرا على الاقتصاد وحده فكيف يمكن اذن تسمية مجرد المساواة الاقتصادية عدلا ؟

ان هذا النظام ينشر الظلم والجور فى كل شعبة من شعاب الحياة ويدمر كل وجه للانسانية كم يتساوى الناس فى توزيع الثروة الاقتصادية فحسب. وحتى لو ساوى هذا الديكتاتور واذنابه بين مستوى معيشتهم ومستوى معيشة الناس ، فان المساواة التى نتجت عن طريق الظلم والتعسف لا يمكن ان تقر العدالة الاجتماعية .

ان ما ذكرته لكم وامثاله لهو أسوأ ظلم اجتماعى لم يعرف التاريخ الانسانى له مثيلا من قبل .

تصور الاسلام للعدالة :

ليس فى الاسلام مكان لانسان او مجموعة بشرية تخترع بعقلها فلسفة

---

(١) يقصد رئيس الدولة او زعيم الحزب فى النظام الاشتراكى . — المترجم .

للعدالة فى الحياة الانسانية ثم تجعل من نفسها سلطة قيمة على تنفيذها وفرضها على الناس بالحديد والنار ، وتسكت جميع الافواه ، وتخرس كافة الألسنة .

فأبو بكر الصديق وعمر الفاروق رضى الله عنهما لم يفعلا هذا ، بل ان محمدا عليه الصلاة والسلام نفسه لم يفعله لأن الاسلام ليس فيه مكان لديكتاتور او موضع قدم لحاكم مطلق سوى الله الذى يحنى الانسان راسه امام حكمه بلا تساؤل . حتى محمد عليه الصلاة والسلام كان خاضعا لحكمه تابعا له . وطاعة محمد واجبة لانه يحكم بحكم الله ومعاذ الله ان يصنع فلسفة من وحى عقله ونفسه . ولم يكن ثمة شيىء يعلو على النقد ويرتفع عن التطاول فى نظام حكم محمد عليه الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين سوى الشريعة الالهية وحدها ، اما ما عداها فمن حق الانسان ان يبدى رايه فيه ويعلن كلمته بشانه .

حدود الحرية الفردية :

اما القيود التى تحد من حرية الفرد فى الاسلام فقد وضعها الله بنفسه ، فعين للمسلم الأفعال الحرام التى تجب حمايته منها واوضح له الفروض التى يلزمه اداؤها ، وحدد له حقوقه على الآخرين وحقوق الآخرين عليه ودواعى انتقال الملكية من يده واسبابه ، والطرق التى يحرم عليه اقتناء الثروة منها ، كما حدد الواجبات والفرائض التى على الأفراد والأسر والقبائل والشعوب ،والتى من شأنها تعميم الخير على المجتمع ، وكذلك عين سبحانه وتعالى الخدمات اللازمة للحياة وشعابها المختلفة .

كل هذا ثابت فى الكتاب والسنة وهما الدستور الدائم الذى لا يحتاج الى ادنى مراجعة ، والذى لا يحق لفرد ايا كان ان يعمل فيه بالحذف أو الاضافة أو التبديل . ويقضى هذا الدستور بعدم احقية الفرد فى تجاوز الحدود والقيود التى وضعها الله على حريته الشخصية ، اما فى اطار هذه الحدود فليس لأحد الحق فى ان يسلبه حريته .

فطرق الكسب غير المشروع مثلا او وجوه انفاق المال المحرمة ليس لأحد ان يحيد عنها ، ومن يفعل ذلك فان القانون الاسلامى يناله بالعقوبة . اما من يمتلك شيئا بالوسائل المشروعة المحللة فان حقوق ملكيته محفوظة تماما ولا يمكن ان يحرم من التصرف فى مكليته وفق الطرق المشروعة ايضا .

كذلك فرض الله سبحانه وتعالى واجبات يتحتم على الانسان اداؤها لتحقيق خير المجتمع وصلاحه اما ما زاد عن هذه الواجبات والفروض فلا جبر ولا تسلط فى اخذه منه او تكليفه به ، اللهم الا ما اتى عن طوع

وبرضاه وينص هذا الدستور ايضا على ضرورة اداء الحكومة حقوق الأفراد كما أن لها سلطتها فى اخذ حقوقها منهم .

هذا الدستور الكامل لو طبق فسوف تتحقق عدالة اجتماعية كاملةليس بعدها عدالة . وهـذا الدستور موجود حتى اليوم ، ولو تم تنفيـــذه فلن يستطيع احد ايقاع المسلمين فى خدعة استيراد الاشتراكية من الخارج والزعم والزعم بأنها عين الاسلام .

شروط انتقال الثروة :

بين الاسلام ثلاثة اشكال لانتقال الثروة من الاشخاص هى الوراثة والهبة والكسب . اما الوراثة فهى انتقال المال من صاحبه الشرعى الى وارثه طبقا لقواعد شرعية محددة . واما الهبة او العطاء فهى ما يعطيه صاحب الثروة الشرعى طبقا لحدود شرعية ، فان كانت الهبة من طرف الحكومة فتصـير شرعية جائزة اذاما كانت من املاك الحكومة وبالطرق المعروفة المبينة وبهدف تحقيق خدمة عامة تعود على المجتمع بالخـير ، ولابد من أن تكون الحكومة التى تمنح مثل هذه الهبات والعطايا حكومة شرعية تحكم بالدستور الشرعى والشورى ، وتتوفر فيها الحرية الكاملة للفرد فى محاسبتها على أفعالها .

اما الكسب فى الاسلام فهو ما لم يكن من طرقمحرمة كالسرقة والاغتصاب والغش فى الكيل والميزان والخيانة والرشوة والاختلاس والبغـاء والاحتكار والربا وصفقات النصب والاحتيال وصناعة الخمور والمسكرات وتجارتهـا واشاعة الفاحشة بين الناس . اما ما يكونه الفرد من الثروة عن طرق شريفة شرعية فملكيته لها ملكية شرعية بصرف النظر عن قلتها أو كثرتها ، وليس لهذه الثروة حد ادنى او حد اعلى ، فلا قلتها لدى شخص تبيح ان ننزع من الآخرين ونضيف اليه ولا كثرتها تستوجب انقاصها بالقوة .

وطبيعى أن الثروة التى تتكون نتيجة تجاوز الحدود الشرعية وتعديها من حق المسلمين ان يسألوا عن سببها . من أين لك هذا ، ثم يجرى تحقيق قانونى فان ثبت عدم شرعيتها فللحكومة الاسلامية الحق الكامل فى الاستيلاء عليها ومصادرتها .

قيود على وجوه الانفاق :

ان من يملك ثروة عن طريق شرعى ليس مطلق العنان فى الاسلام ليتصرف فيها كيف يشاء ، بل تفرض عليه بعض القيود القانونية كيلا ينفق ثروته فى وجوه تلحق الضرر بالمجتمع او بأخلاقه هو نفسه أو بدينه ، فليس له مثلا ان ينفق ماله فى الفسق والفجور كالخمر والقمار والزنا وغيره وكذلك ليس

له أن يسرف أو يترف أكثر من اللازم اذ لا يجوز ان يحيا صاحب الثروة رغدا وجاره يبيت على الطوى .

فالاسلام يعطى الفرد حقه فى التمتع بثروته بالطرق المشروعة ، واذا اراد ان يستثمر ما يفيض عن حاجاته الضرورية فعليه ان يختار مجالات مشروعة بحيث لا يتجاوز الحدود التى وضعتها الشريعة على الكسب .

وتحقيقا لخدمة المجتمع فرض الاسلام الزكاة على من يملك اكثر من النصاب الشرعى ، وكذلك على اموال الزكاة ومحاصيل الاراضى والمواشى وبعض انواع الثروات الأخرى ، وتشمل الشريعة تفصيلا دقيقا لهذه الأمور .



ولكم ان تاخذو نموذجا اية دولة ثم قوموا بعمليات حسابية لها وانظروا لو وزع هذا المال الحاصل من الزكاة فى مصارفه المشروعة ابيقى فيها شخص واحد محروما من حاجاته الضرورية ؟

كذلك يقسم الاسلام المال الذى يتركز فى يد شخص واحد بمجرد موته عن طريق تشريعات الميراث ، وبذلك لا يتركز فى ايدى فئة قليلة من الناس على الدوام .

اما فيما يختص بالمعاملات بين مالك الارض والمزارع ، او صاحب المصنع والعامل فالاسلام يحب ان تقوم على بينة ورضا من الطرفين بحيث لا يلزم الامر تدخل الحكومة بينهما ، الا انه لو وقع شىء من الظلم فى هذه المعاملات فالحق كل الحق للحكومة الاسلامية ان تتدخل وتقيم الحدود وتنصف المظلوم .

ملكية الدولة :

لم يحرم الاسلام على الحكومة ادارة صناعة او تجارة ما . فلو ان هناك تجارة او صناعة لازمة لحياة المجتمع ، وليس الافراد على استعداد لادارتها ، او ان ادارتها عن طريق الافراد فيها مساس بالمصلحة العامة ففى استطاعة الحكومة ان تديرها بنفسها ، اما اذا كانت هناك صناعة او تجارة يديرها افراد قلائل بطريقة تلحق الضرر بالمجتمع ، فللحكومة ان تديرها بمعرفتها وبالطرق المناسبة بعد تعويضهم عنها . اذ ليس فى الاسلام مانع شرعى من اتخاذ مثل هذه الاجراءات ، غير ان الاسلام لا يقبل ان تكون الحكومة وحدها هى المالك الوحيد فى المجتمع ، وفى يدها كل مصادر الثروة لتصبح التاجر الوحيد ومالك الارض الأول والاخير وصاحب المصنع المطلق .

شروط التصرف فى بيت المال :

الحكم القطعى فيما يتعلق ببيت المال ان ما به من مال هو مال الله

والمسلمين ، ولا يملك احد التصرف فيه . اما ضبطه وتنظيمه فهو كسائر شئون المسلمين لا يكون الا بالشورى ، وكل اموره تسير بالطرق الشرعية . وللمسلمين حق محاسبة الدولة اذا حادت عن ذلك .

ســـؤال :

وفى ختام حديثى هذا اتوجه بالسؤال الى كل من له عقل يفكر :

اذا كانت العدالة الاجتماعية اقتصادية فقط الا تكفينا هذه العـــدالة الاجتماعية التى اقرها الاسلام ؟ وهل تبقى بعـــد ذلك ضرورة تسلب من اجلها حرية الناس وحقهم فى ملكية اموالهم ويصبح الشعب كله من أجـل خاطرها عبدا لحفنة آدميين .

ثم ما الذى يمنعنا نحن المسلمين من اقامة حكومات شرعية حقيقية فى بلادنا تعمل وفق الدستور الاسلامى وتنفذ شريعة الله كاملة غير منقوصة ؟

اننا لو حققنا هذا فسوف ترى شعوب الدول الاشتراكية بنفسها نظام حياتنا وتشعر انه بغير هذا النور سوف تظل تائهة الى الأبد فى هذه الظلمة التى تعيش بين لججها .

الباب السادس

العصر النموذجي للدولة الاسلامية

الفصل الأول

العصر النبـوى

ان المجتمع الاسلامى الذى ولد مع ظهور الاســـلام وتمكن من السلطة السياسية بعد الهجرة اختار شكلا لدولته يتكىء على عدة مبادىء واضحة نذكر اهم ما يتعلق منها ببحثنا هذا فى النقاط التالية :

١ ـ سيادة القانون الالهى :

كانت اولى القواعد الأساسية لهذه الدولة ان الحاكمية لله تعالى وحده وحكومة المؤمنين فى اصلها وحقيقتها « خلافة » ولم تكن حكومة مطلقة العنان فيما تفعل بل كان حتما عليها ان تعمل تحت القانون الالهى الذى يـستمد ويؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله . وهذا المبدأ الاساسى مذكور فى كتـاب الله فى سورة النساء آيات ٥٩ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٨٠ ـ ١٠٥ وسورة المـائدة آيات ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٧ وفى سورة الأعراف آية ٣ وسـورة يوسف آية ٤٠ وسورة النور آيتى ٥٤ ـ ٥٥ وسورة الأحزاب اية ٣٦ وسورة الحشر آية ٧ .

وقد اوضح الرسول عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ فى احاديثه المتعددة صراحة فقال :

« عليكم بكتا بالله أحلوا حلاله وحرموا حرامه »

(مسند الامام أحمد)

« ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم حرمات فلاتنتهكوها وحد حدودا فلا تعتـدوها وسكت عن أشياء من غـير نسيان فلا تبحثوا عنها »

(كنز العمال ـ المشكاه باب الاعتصام بالكتاب والسنة)

« من اقتدى بكتاب الله لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة »

(المشكاه باب الاعتصام بالكتاب والسنة)

« تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما كتـــاب الله وسنة رسوله »

(المشكاه ـ باب الاعتصام بالكتاب
والسنة ـ كنز العمل)

« ما امرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا »

(كنز العمل)

٢ ـ العدل بين الناس :

والقاعدة الثانية التى أسس عليها بناء الدولة أن الجميع متساوون أمام قانون الكتاب والسنة ، ولابد من تنفيذه عليهم من ادنى فرد فى الدولة الى القادة والحكام بدرجة واحدة ، وليس فيه موضع لمعاملة شخص ما معاملة مختلفة عن غيره . وكما جاء فى القرآن ان الله تعالى هدى نبيه عليه الصلاة والسلام لأن يعلن :

« وامرت لاعدل بينكم »

الشورى ١٥

يعنى اننى مامور بالانصاف دون عداوة ، فليس من شأنى أن اتعصب لأحد أو ضد أحد ، وعلاقتى بالناس كلهم سواء وهى علاقة العدل والانصاف فأنا نصير من كان الحق فى جانبه ، وخصيم من كان الحق ضده ، وليس فى دينى اى امتيازات لأى فرد كائنا من كان ، وليس لاقاربى حقوق وللغرباء عنى حقوق اخرى ، ولا للاكابر عندى مميزات لا يحصل عليها الاصاغر ، والشرفاء والوضعاء عندى سواء ، فالحق حق للجميع ، والذنب والجرم ذنب للجميع ، والحرام حرام على الكل والحلال حلال للكل ، والفرض فرض على الكل حتى انا نفسى لست مستثنى من سلطة القانون الالهى .

ويوضح النبى عليه الصلاة والسلام هذه القاعدة فيقول :

« انما هلك من كان قبلكم انهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة (بنت محمد) فعلت ذلك لقطعت يدها » .

(صحيح البخارى ـ كتاب الحدود)

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد (اى يقتص) من نفسه »

(كتاب الخراج للامام ابى يوسف
مسند ابى داود)

٣ ـ المساواة بين الناس :

وتتشعب من القاعدة السابقة قاعدة ثالثة ضمن كافة المسلمات التى

كانت فى الدولة الاسلامية الا وهى ان حقوق كافة المسلمين واحدة ومتساوية تماما دون اعتبار للون او جنس او لغة او وطن ، ولم يكن لاى فرد او جماعة او طبقة او جنس او شعب داخل حدود الدولة الاسلامية اى نوع من التمايز فى الحقوق ، ولا يمكن ان تكون منزلة فرد ادنى واقل من آخر . يقول القرآن :

« انما المؤمنون اخوة »

الحجرات ١٠

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم »

الحجرات ١٣

ويوضح الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديثه :

« ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم »

(تفسير ابن كثير نقلا عن
مسلم وابن ماجه)

« المسلمون اخوة لا فضل لأحد على احد الا بالتقوى »

(ابن كثير نقلا عن الطبرانى)

« يا أيها الناس الا ان ربكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على احمر ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى »

(تفسير روح المعانى نقلا عن البيهقى)

« من شهد أن لا اله الا الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا واكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما للمسلم وعليه ما على المسلم »

(صحيح البخارى ـ كتاب الصلاة)

«المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم ادناهم»

(مسند ابى داوود كتاب الديات ـ النسائى كتاب القسامة)

« ليس على المسلم جزية »

(مسند ابى داوود كتاب الامارة)

٤ ـ مسئولية الحكومة :

والقاعدة الرابعة الهامة التى تأسست عليها الدولة الاسلامية ان الحكومة وسلطتها واموالها امانات لله للمسلمين ينبغى ايكالها لأناس يخشون الله عادلين مؤمنين ، وليس لأحد حق التصرف فى هذه الأمانات بطرق مشبوهة او لأغراض شخصية .

يقول تعالى :

« ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلهــا واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا »

النســـاء ٥٨

ويقول النبى عليه الصلاة والسلام :

« الا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالامام الأعظم الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته »

(صحيح البخارى كتاب الاحكام ــ صحيح مسلم كتاب الامارة)

« ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا حرم الله عليه الجنة »

(صحيح البخارى كتا بالاحكام ــ صحيح مسلم كتاب الايمان وكتاب الامارة) .

« ما من امير يلى امر المسلمين ثم لا يجهد لهم ولا ينصح الا لم يدخل معهم فى الجنة »

(صحيح مسلم كتاب الامارة)

« يا أبا ذر انك ضعيف وانها امانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من اخذها بحقها وادى الذى عليه فيها »

(كنز العمال)

« من أخون الخيانة تجارة الوالى فى رعيته » .

(المصدر السابق)

« ومن ولى لنا عملا ولم تكن له زوجة فليتخذ زوجة ولم يكن له خادم فليتخذ خادما أو ليس له مسكن فليتخذ مسكنا أو ليس له دابة فليتخذ دابة فمن أصاب سوى ذلك فهو غال أو سارق » .

(المصدر السابق)

ويقول سيدنا ابو بكر الصديق رضى الله عنه :

« من يكن اميرا فانه من اطول الناس خســـابا واغلظهم عذابا ومن لا يكون اميرا فانه من أيسر الناس حسابا واهونهم عذابا لأن الامراء أقرب الناس من ظلم المؤمنين ومن يظلم المؤمنين فانما يخفر الله (ينقض عهده ويغدر به)

(المصدر السابق)

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« لو هلك حمل من ولد الضأن ضياعا بشـــاطىء الفرات خشيت ان يسألنى الله » .

(المصدر السابق)

٥ ـ الشورى :

خامسة قواعد الدولة الاسلامية هى حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم وامضاء نظام الحكم بالشورى .

يقول تعالى :

« وامرهم شورى بينهم »

الشورى ٣٨

« وشاورهم فى الأمر »

آل عمران ١٥٩

وقال على رضى الله عنه :

« سألت يوما رسول الله لو وقع لنا بعدك ما لم نجد له حكما فى القرآن او نسمع منك فيه شيئا فماذا نفعل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

اجمعوا العابدين من امتى واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوا برأى واحد»

(تفسير روح المعانى)

ويقول عمر رضى الله عنه :

« من دعا الى امارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فلا يحل لكم ان لا تقتلوه »

(كنز العمال)

ويقول أيضا :

« لا خلافة الا عن مشورة »

(المصدر السابق)

٦ ـ الطاعة فى المعروف :

اما القاعدة السادسة فكانت وجوب طاعة الحكومة فى المعروف فقط ، ولا حق لأحد ان يطاع فى معصية . ومعنى هذه القاعدة بالفاظ اخرى ان الحكم الصادر من الحكومة والحكام الى رعيتهم واجب الطاعة اذا كان مطابقا للقانون الشرعى ، ولا طاعة لهم فيما يخالف هـذا القانون ، ولا يلزم احد تنفيذ هذا الحكم . وبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم وردت فى القرآن مشروطة بالطاعة فى المعروف على الرغم من عدم الشك فى صدور أمر فى معصية من جانبه صلى الله عليه وسلم .

يقول تعالى :

« ولا يعصينك فى معروف »

الممتحنة ١٢

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« السمع والطاعة على المرء المسلم فيمااحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فاذا امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »

(صحيح البخارى كتاب الاحكام — صحيح مسلم كتاب الامارة)

« لا طاعة فى معصية انما الطاعة فى المعروف »

(النسائى كتاب البيعة — ابن ماجة كتاب الجهاد)

وقد روى عن النبى صلوات الله وسلامه عليه تأكيده هـذا المضمون بطرق مختلفة . ففى رواية قال : « لا طاعة لمن عصى الله » ، وفى حديث آخر « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » كما قال : « لا طاعة لمن لم يطع الله » وقال : « من امركم من الولاة بمعصية فلا تطيعوه »

وقال ابو بكر رضى الله عنه فى خطبة له : « من ولى من امر أمة محمـد صلى الله عليه وسلم شيئا فلم يقم فيهم كتاب الله فعليه بهلة الله » (أى لعنته)

(كنز العمال)

وعلى هذا الأساس أعلن فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة :

« اطيعونى ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »

وفى رواية اخرى :

« فان عصيت الله ورسوله فاعصونى »

(المصدر السابق)

ويقول سيدنا على رضى الله عنه :

« حق على الامام أن يحكم بما انزل الله وأن يؤدى الأمانة فان فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا اذا دعوا »

(المصدر السابق)

وفى زمان خلافته قال فى خطبة له :

« ما أمرتكم به من طاعة الله فحق عليكم طاعتى فيما احببتم وما كرهتم وما أمرتكم به من معصية الله فلا طاعة لأحد فى المعصية الطاعة فى المعروف »

(المصدر السابق)

٧ — طلب السلطة .. ممنوع :

كانت هذه القاعدة من بين القواعد التى قام عليها بناء الدولة الاسلامية ، وتعنى أن الذين يطلبون المناصب القيادية فى الحكومة بوجه عام ، والخلافة بوجه خاص ، ويجتهدون فى ذلك هم أقل الناس كفاءة وصلاحية .

يقول تعالى فى كتابه الكريم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا »

القصص ٨٣

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« انا والله لا نولى على عملنا هذا احدا سأله او حرص عليه »

(صحيح البخارى كتاب الأحكام ـ صحيح مسلم كتاب الامارة)

« ان أخونكم عندنا من طلبه » .

(مسند ابى داوود كتاب الامارة)

« انا لا نستعمل على عملنا من اراده »

(كنز العمال)

« يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة فانك ان أوتيتها عن مسألة وكلت اليها وان أوتيتها عن غير مسألة امنت عليها » (١)

(المصدر السابق)

٨ ـ هدف وجود الدولة :

ان أول واجب فرض على الحاكم وحكومته فى الدولة الاسلامية أن يقيم نظام الحياة الاسلامى بحذافيره دون نقص او ابدال ، وان يرفع من قدر الخير وينشره ، ويقضى على الشرور ويزيلها طبقا لمعيار الاسلام الأخلاقى ، وقد أوضح القرآن هدف هذه الدولة فقال :

« والذين أن مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »

(الحج ٤١)

وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

(البقرة ١٤٣)

« كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

(آل عمران ١١٠)

---

(١) قد يسأل احدكم : اذا كان هذا مبدأ الاسلام فى هذا الامر فلماذا طلب سيدنا يوسف عليه السلام منصب الحكومة من ملك مصر ؟ والحقيقة أن يوسف عليه السلام لم يكن فى بلد مسلم وحكومة مسلمة بل كان فى بلد كافر وحكومة كافرة ، وكان آنذاك فى حالة نفسية خاصة شعر معها أن لو طلب من الملك ارفع المناصب واعلاها فى الحكومة لنالها ولمكن من اقامة ونشر دين الله فى مصر ، اما اذا امتنع عن طلب السلطة فلن تتاح له فرصة هداية ذلك الشعب الكافر وتفلت السلطة من يديه ، فكانت هذه حالة خاصة لا تنطبق عليها قاعدة الاسلام العامة .

هذا بالاضافة الى ان المهمة التى كلف بها محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء قبله من وجهة نظر القرآن كانت **« أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »** الشورى ١٣ ، وان الغرض من جهاده ضد العالم غير الاسلامى هو فقط أن **« يكون الدين كله لله »** الانفال ٣٩ ، وان الأمر الذى صدر لأمته عليه الصلاة والسلام ومن قبلها من امم الأنبياء جميعا هو **« ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء »** البينة ٥ ، ولهذا كان العمل الأصلى والمهمة الرئيسية لدولته صلى الله عليه وسلم أن تقيم نظام الدين كاملا ، والا يكون فيها هذا الخلط والعجن والتخبط الذى ترونه واضحا فى المجتمعات التى تدين بالاسلام الآن ، والذى نبه اليه النبى أصحابه وخلفاءه فى احاديثه قائلا :

« من احدث فى امرنا هذا ما ليس منه فهو رد »

(المشكاه ــ باب الاعتصام بالكتاب والسنة)

« اياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثه بدعة وكل بدعة ضلالة »

(المصدر السابق)

« من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الاسلام »

(المصدر السابق)

كذلك بين لنا عليه الصلاة والسلام فى هذا الصدد أن ثلاثة لا يحبهم الله منهم :

« مبتغ فى الاسلام سنة الجاهلية »

(المصدر السابق)

٩ ــ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

آخر قاعدة من قواعد الدولة الاسلامية والتى كانت ضامنا لسيرها فى الوجهة الصواب ان من حق كل فرد فى المجتمع الاسلامى بل وفرض عليه أن يقول كلمة الحق ويحمى الخير ويذب عنه ، وأن يبذل ما فى وسعه لمنع المنكر والضرب على يد الباطل قدر امكانه . والقرآن فى هذا يقول :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

المائدة ٢

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا »

الاحزاب ٧٠

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين »

النساء ١٣٥

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف ..... والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر »

التوبة ٦٧ – ٧١

وصفة المؤمنين فى القرآن :

« الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله »

التوبة ١١٢

أما أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا فهى :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان »

(صحيح مسلم – كتاب الايمان ، الترمذى – كتاب الفتن أبو داود . كتاب الملاحم ، ابن ماجه – كتاب الفتن)

« ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك حبة خردل من الايمان »

(صحيح مسلم – كتاب الايمان)

« أفضل الجهاد كلمة عدل (أو حق) عند سلطان جائر »

(أبو داود – كتاب الملاحم ، الترمذى – كتاب الفتن ، النسائى كتاب البيعة ، ابن ماجة – كتاب الفتن)

« ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه »

(أبو داود كتاب الملاحم – الترمذى كتاب الفتن)

« انه سيكون بعدى أمراء من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه » .

(النسائى – كتاب البيعة)

« سيكون عليكم أئمة يملكون أرزاقكم يحدثونكم فيكذبونكم ويعملون فيسيئون العمل لا يرضون منكم حتى تحسنوا قبيحهم وتصدقوا كذبهم فأعطوهم الحق ما رضوا فاذا تجاوزوا فمن قتل على ذلك فهو شهيد »

(كنز العمال)

« من أرضى سلطانا بما يسخط ربه خرج من دين الله »

(المصدر السابق)

الفصل الثانى

عصر الخلافة الراشدة

تلك كانت مبادىء الحكم واسسه التى قام وسار عليهانظام الحكومة فى عصر محمدصلى الله عليه وسلم ، وهى نفس الاصول التى قامت عليهاحكومة الخلفاء الراشدين من بعده وكان كل فرد فى المجتمع آنذاك ــ نظرا لما تلقاه من تعليم وتربية وقيادة عملية عن النبى مباشرة ــ يعرف اى نوع من النظم الحكومية ينبغى ان يكون لهذا المجتمع .

وعلى الرغم من ان الرسول لم يحدد خليفة له الاأن أفراد المجتمع المسلم عرفوا أن الاسلام يتطلب خلافة شورى ، فلم تتأسس أية عائلة ملكية حاكمة ولم يصل احد الى السلطة عن طريق القوة والسطو ، وما حاول احد قط ان يطرى نفسه أو يفرض شخصه فى سبيل الحصول على الخلافة ، وانما اختار الناس اربعة من الصحابة خلفاء متعاقبين وفق رضاهم واختيارهم الحر وقد سمت الأمة هذه الخلافة « الخلافة الراشدة » وهو لفظ يوضح بذاته ان هذا وحسب الأسلوب الصحيح للخلافة فى نظر المسلمين .

الخلافة الانتخابية :

رشح عمر بن الخطاب أبا بكر الصديق رضى الله عنهما لخلافة النبى عليه الصلاة والسلام فقبله اهل المدينة ــ وكانت لهم فى الحقيقة صفةتمثيل البلاد باكملها ــ وبايعوه برضاهم ورغبتهم دون ضغط أو حرص وطمع .

وقد أوصى ابو بكر عند وفاته بالخلافة لعمر وجمع الناس فى المسجد النبوى وقال :

« اترضون بمن استخلف عليكم فانى والله ما الوت من جهدالرأى ولا وليت ذا قرابة وانى قد استخلف عمر بن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا »

فقال الناس :

« سمعنا واطعنا »

وبينما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الحج فى العام الاخير من

حياته بلغه ان رجلا قال : « لو مات امير المؤمنين (عمر) لبايعت فلانا فان بيعة ابى بكر كانت فلتة وتمت (١)

فقال عمر : « انى لقائم فى العشية فى الناس فمحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون ان يغصبوهم امورهم » .

ولذا ذكر هذه الحادثة فى اول خطبة له بعد عودته الى المدينة وروى بالتفصيل احداث يوم السقيفة والظروف الخاصة التى جعلته ينهض لمبايعة ابى بكر على الفور فقال :

« وانا والله ما وجدنا امرا هواقوى من مبايعة ابى بكر فخشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نتابعهم على ما نرضى او نخالفهم فيكون فساد فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرة ان يقتلا »

وبمقتضى هذه القاعدة التى شرحها فى خطبته كون مجلسا انتخابيا عند وفاته ليفصل فى امر الخلافة وقال : « من دعا الى امارة نفسه بغير مشورة من المسلمين فاقتلوه » ، ثم اصدر قرارا باستثناء ابنه من استحقاقه الخلافة حتى لا تصير منصبا وراثيا ، وقد ضم ذلك المجلس الانتخابى ستة اشخاص رأى عمر انهم اكثر الناس تأثيرا وقبولا .

وفى نهاية الأمر قر قرار المجلس على اختيار احد اعضائه وهو عبد الرحمن بن عوف خليفة للمسلمين ، فتنقل بين الناس باحثا عمن يرجحه قبولا لديهم حتى أنه سأل القوافل التى كانت عائدة من الحج ، وانتهى من هذا الاستفتاء العام الى أن اكثر الناس يميلون الى عثمان بن عفان وعلى هذا تم انتخابه خليفة وبويع فى مجلس عام .

وبعد استشهاد عثمان أراد بعض الناس تولية على بن أبى طالب فقال لهم :

« ليس ذلك اليكم انماهو لأهل الشورى وأهل بدر فمن رضى به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة فنجتمع وننظر فى هذا الأمر »

ويروى الطبرى أن عليا قال : « ان بيعتى لا تكون خفيا ولا تكون الا عن

---

(١) كان يشير الى ان عمر بن الخطاب إقام فجاة فى سقيفه بنى ساعدة ورشح ابا بكر ومد يده وبايعه على الفور .

رضا المسلمين ، وعند وفاة على رضى الله عنـــه سأله الناس اتبايع ابنك الحسن فرد عليهم « لا آمركم ولا انهاكم انتم أبصر » ، وحينما كان يوصى أولاده آخر وصية سأله رجل « الا تعهد يا أمير المؤمنين فأجابه : لا ولكنى أتركهم كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

يتضح من هذه الوقائع ان الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام كانوا يرون الخـــلافة منصبا انتخابيا يتحتم الفصل فيه بمشورة المسلمين فيما بينهم ورضاهم التام أما الوراثة أو الوصول الى الحكم عنوة فلم يكن لديهم أمرا صوابامستقيما .

حكومة شورى :

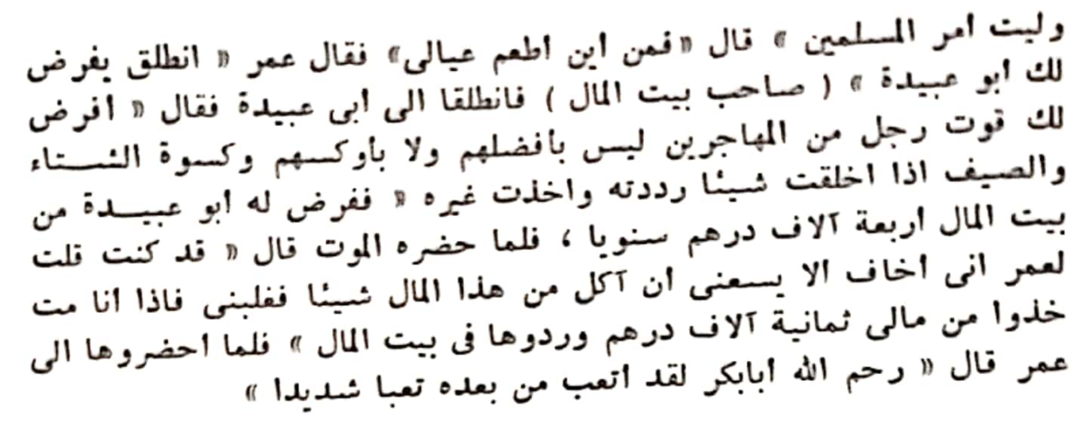
هؤلاء الخلفاء الاربعة لم يكونوا يبرمون أمرا يتعلق بضبط الحكومة أو التشريع وغيره دون مشورة اهل الرأى من الناس ، وروى فى سنن الدرامى « أن ميمون بن مهران حكى عن ديدن أبى بكر فى هذا فقال كان اذا وقع أمر راى قول كتاب الله فيه فان لم يجد راى كيف قضى فيه رسول الله عليــه الصلاة والسلام فان لم يجد جمع خيار الناس وشاورهم فما استقر عليه رأيهم بعد تمحيص قضى به وحكم . وكذا كان عمر رضى الله عنه .

وفيمايتعلق بالشورى كان الخلفاء الراشدون يرون أن لأهل الشورى حقهم الكامل فى التعبير عن رأيهم بحرية تامة ، وقد أوضح عمر رضى الله عنه سياسة الخلافة فى مسألة الشورى فى خطبة افتتاحة مجلس الشـــورى فقال :

«انى لم ازعجكم الا لأن تشتركوا فى امانتى فيما حملت من اموركم فانى واحد كأحدكم وانتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا الذى هواى »

امانة بيت المـال :

لقد كان الخلفاء الراشدون والصحابة الكرام يعتبرون بيت المال أمانة لله ولجمهور المسلمين فلم يسمحوا بدخول شىء اليه أو خروجه منه خلافا للقانون ، وكان حراما على الحكام استخدام بيت المال لأغراضهم الشخصية. فأبو بكر حمل على كتفيه ــ فى اليوم الثانى لتوليه الخلافة ــ أقمشته وخرج لبيعها (وكان يتعيش قبل الخلافة من بيع القماش) فلقيه فى الطريق عمر رضى الله عنه فسأله « أين تريد » قال « السوق » قال « تصنع ماذا وقد



وليت امر المسلمين » قال « فمن اين اطعم عيالى » فقال عمر « انطلق يفرض لك ابو عبيدة » (صاحب بيت المال) فانطلقا الى ابى عبيدة فقال « افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بافضلهم ولا باوكسهم وكسوة الشتاء والصيف اذا اخلقت شيئا رددته واخذت غيره » ففرض له ابو عبيدة من بيت المال اربعة آلاف درهم سنويا ، فلما حضره الموت قال « قد كنت قلت لعمر انى اخاف الا يسعنى ان آكل من هذا المال شيئا فغلبنى فاذا انا مت خذوا من مالى ثمانية آلاف درهم وردوها فى بيت المال » فلما احضروها الى عمر قال « رحم الله ابابكر لقد اتعب من بعده تعبا شديدا »

وقد بين عمر رضى الله عنه فى احدى خطبه حق الخليفة فى بيت المال فقال :

« لا يحل لى فى مال الله سوى كسوتين للصيف وكسوة للشتاء ومعاش رجل من اوسط قريش يأخذه لعياله وانا بعد ذلك رجل من عامة المسلمين » (١)

وقال فى خطبة اخرى :

« انى لأجد هذا المال لا يصح فيه سوى خلال ثلاث ان يؤخذ بالحق ويعطى فى الحق ويمنع من الباطل وانما انا ومالكم كولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت اكلت بالمعروف »

وحين نشب القتال بين على رضى الله عنه ومعاوية ، اشار الناس على على ان يأخذ من بيت المال ما يحمى به نفسه كما يفعل معاوية فى استقطابه الناس واغداقه العطايا والنعم عليهم دون خوف ، فاستنكر منهم ذلك وقال « اتأمروننى ان اطلب النصر بالجور والله لا افعل ما طلعت الشمس وما لاح فى السماء نجم » ، ولما اراد اخوه عقيل بن ابى طالب ان يعطيه من بيت المال انكر عليه هذا وقال له « اتريد ان يحرقنى الله فى نار جهنم فى صلتك باموال المسلمين » .

تصور الحكومة :

كيف كان تصور هؤلاء الناس للحكومة ؟ وكيف كان تفكيرهم فيما يتعلق بواجباتهم ومناصبهم كحكام وامراء ؟ واى سياسة كانوا ينتهجونها فى حكوماتهم ؟ كل هذه الامور كانوا يبينونها بانفسهم لعامة الناس فى خطبهم واقوالهم .. فقال ابو بكر الصديق رضوان الله عليه فى اول خطبة له بعد البيعة :

---

(١) نص مترجم — المترجم .

« ايها الناس فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان اسأت فقومونى الصدق امانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى اريح عليه حقه ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله لا يدع احد منكم الجهاد فى سبيل الله فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة فى قوم الا عمهم الله بالبلاء أطيعونى ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم فانى متبع ولست مبتدعا »

وقال عمر رضى الله عنه فى احدى خطبه :

« انه لم يبلغ ذو حق فى حقه ان يطاع فى معصية ولكم على أيها الناس خصال اذكرها لكم فخذونى بها على الا أجتبى شيئا من خراجكم ولا مما افاء الله عليكم الا من وجهه ولكم على اذا وقع فى يدى الا يخرج منى الا فى حقه »

ولما بعث ابو بكر عمرو بن العاص الى الشام وفلسطين كان مما اوصاه به :

« اتق الله فى سر امرك وعلانيته واستحه فانه يراك ويرى عملك ... فكن من عمال الآخرة وارد بما تعمل وجه الله وكن والدا لمن معك ولا تكشفن الناس عن استارهم واكتف بعلانيتهم ... واصلح نفسك تصلح لك رعيتى »

وكان عمر يقول لمن يرسلهم ولاة على الناس :

« انى لم استعملكم على امة محمد صلى الله عليه وسلم على اشعارهم ولا على ابشارهم وانما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل »
وذات مرة اعلن على رؤوس الاشهاد :

« انى والله ما ارسل اليكم عمالا ليضربوا ابشاركم ولا ليأخذوا اموالكم ولكن ارسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه الى فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه »

فقال له عمرو بن العاص (حاكم مصر) ارايتك ان كان رجلا من امراء المسلمين على رعية فادب بعض رعيته انك لتقصنه منه ؟ فاجابه « اى والذى نفس عمر بيده لاقصنه منه وقد رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه » .

وحدث فى مرة ان استدعى عمر وهو فى الحج كل ولاته وحكامه ووقف على ملأ وقال :

« من كانت له مظلمة عند احد منهم فليقم فما قام من الناس يومئذ الا رجل واحد فقال « يا امير المؤمنين « عاملك ضربنى مائة سوط » فقال عمر « أتضربه مائة سوط قم فاستقد منه » فقام اليه عمرو بن العاص فقال « يا امير المؤمنين انك ان تفتح هذا على عمالك كبر عليهم وكانت سنة يأخذ بها من بعدك » فقال عمر « الا اقيده منك وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد من نفسه قم فاستقد » فقال عمرو « دعنا اذن فلنرضه » ولم يهدأ عمر بن الخطاب الابعد ان افتدى عمرو بن العاص كل سوط بدينارين » .

سيادة القانون :

لم يكن هؤلاء الخلفاء يجعلون من ذواتهم سلطة اعلى من القانون ، او يضعون انفسهم فوقه وانما كانوا فى نظر القانون سواسية برعايا دولتهم مسلمين كانوا أم ذميين . وعلى الرغم من انهم كانوا ينصبون القضاة ـ باعتبارهم رؤساء للدولة ـ الا أن أى قاض كان حرا بعد تقلده منصبه فى ان يحكم ضدهم كأى من عامة الرعايا .

ففى مرة اختلف عمر وابى بن كعب على أمر ما واحتكما الى زيد بن ثابت، فمثلا امامه فقام زيد من مكانه وأراد أن يجلس عمر ولكنه رضى الله عنه جلس مع ابى ثم عرض ابى دعواه فانكرها عمر وكان على زيد ـ طبقا للقانون ـ أن يستحلف عمر لكنه توانى فى ذلك ، فحلف عمر من نفسه ثم اعلن فى نهاية الجلسة « لا يكون زيد قاضيا فعمر لا يتساوى عنده ورجل من عامة المسلمين (١) » .

وحدث ان اختلف على رضى الله عنه مع مسيحى حين رآه يبيع درعه المفقود فى سوق الكوفة فلم ينتزعه منه انتزاعا بصفته امير المؤمنين ، بل رفع شكواه الى القاضى ولما لم يستطع تقديم حجة أو شهادة على دعواه حكم القاضى ضده .

ويروى ابن خلكان ان عليا رضى الله عنه تخاصم واحد الذميين فذهبا الى القاضى فقام من مجلسه واستقبل عليا ورحب به فقال له على « هذا أول ظلمك » (٢) .

---

(١) نص مترجم ـ المترجم .

(١) نص مترجم ـ المترجم .

حكومة بلا عصبية :

كان من سمات العصر الاسلامى الأول ان تكون المعاملة سواء بين الناس اجمعين تمشيا مع مبادىء الاسلام وروحه فى السمو فوق العصبيات القبلية والجنسيةوالوطنية . غير ان طوفان العصبيات قد تدفق بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان عاملا فعالا فى ظهور ادعياء النبوة ونشوب حركة الردة . وقال واحد من اتباع مسيلمة الكذاب : أعرف أن مسيلمة كذاب ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر . وقال زعيم من بنى غطفان يحمى طليحة الذى ادعى النبوة : والله لئن اتبع نبيا من حلفائى أحب الى من اتباع نبى قريش .

الا ان ابا بكر الصديق (١١ ــ ١٣ هـ) ومن بعده عمر بن الخطاب (١٣ ــ ٢٤ هـ) رضى الله عنهما سلكا نهج العدل والانصاف لا مع كافة القبائل العربية وحدها ، بل مع كل المسلمين الجدد من غير العرب ، ولم يفضلا ذويهما وعشائرهما على من سواهم فذابت كل صخور العصبيات ، وارتقت بين المسلمين تلك الروح العالية الشاملة التى يتطلبها الاسلام وينشدها ، فكان سلوك هذين الخليفتين سلوكا نموذجيا ينبغى أن يحتذى .

ولقد شعر سيدنا عمر رضى الله عنه فى أواخر حياته بالخوف من تيقظ عصبيات العرب القبائلية (ولم تكن قد انتهت تماما بالرغم من قوة وفعالية الثورة التى أحدثها الاسلام فيهم) وتصدر عن يقظتها فتنة فى الاسلام . لذلك قال ذات مرة لعبد الله بن عباس عن عثمان بن عفان حينما كان يتحدث فى أمر من يخلفه :

> « أخشى ان استخلفته ان يجعل بنى ابى معيط (بنى أمية) على رقاب الناس ويعصى الله فيهم فوالله أن استخلفته لفعل هذا وأن فعل عثمان هذا لارتكب الناس المعاصى ولثاروا عليه وقتلوه » (١)

وبقى هذا الأمر فى ذهنه حتى آن وفاته فاستدعى عليا بن ابى طالب وعثمان بن عفان وسعدا بن ابى وقاص وقال لهم « انشدكم الله ان وليتم من امور المسلمين شيئا أن تحملوا اقاربكم على رقاب الناس » .

اضف الى هذا انه ترك شروطا وقواعد لأعضاء مجلس الشورى الانتخابى الستة كان من بينها ان يتعهد الخليفة المنتخب الا يعامل بنى قبيلته معاملة خاصة متميزة . لكن من سوء الحظ ان الخليفة الثالث عثمان بن عفان

---

(١) نص مترجم ــ المترجم .

(٢٤ – ٣٥ هـ) لم ينفذ هذا الشرط اذ اسند الى بنى امية فى عهده اكبر المناصب واكثرها ، وخصص لهم راتبا من بيت المال فشعرت القبائل الاخرى مرارة مسلكه . ولقد كان عثمان يرى هـــذا مما تقتضيه صلة الرحم فكان يقول :

« ان أبا بكر وعمر كانا يتأولان فى هذا المال ظلف (اى شظف) انفسهما وذوى أرحامهما وانى تأوليت فيه صلة رحمى »

فكانت النتيجة ما توقعه عمر رضى الله عنه وفكر فيه ، فقامت الثورة ضده . وليت الأمر قد انتهى باستشهاده وكفى بل تأججت جذوة العصبية القبائلية التى انطفأت وخمدت فى ظل نظام الخلافة الراشدة .

وقد اجتهد على رضوان الله عليه (٣٥ – ٤٠ هـ) فى اتباع المعيار الذى وضعه أبو بكر وعمر فكان طاهـــرا نظيفا من التعصب القبلى ، فحين حاول أبو سفيان ان يوقظ فيه روح العصبية وقت بيعة ابى بكر رفض اختيـــار هذا السبيل اذ قال له أبو سفيان « ما بال هذا الامر (اى الخلافة) فى اذل قبلية من قريش واقلها والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا فاجابه فى صراحة ووضوح : لا والله ما أريد ان تملأها عليه خيلا ورجالا ولولا انا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه واياها » .

وظل هذا راى على بن ابى طالب بعد ان اصبح خليفة ، فقـــد شرع فى معاملة الناس عربا كانوا أم عجما ، شرفاء أم وضعاء ، هاشميين ام غـــير هاشميين معاملة منصفة عادلة طبقا لمبادىء الاسلام . ولم يكن يقبل ترجيح فئة على اخرى فى المعاملة لان هذا يوقد مشاعر الحقـــد والضغينة فى نفوس الآخرين .

روح الديمقراطية :

كان من اهم خصائص هذه الخلافة حصول الناس على حريتهم الكاملة فى النقد والتعبير عن الراى واتصال الناس بالخلفـــاء فى اى وقت شاءوا . فكانوا يجلسون مع اهل الشورى ويشتركون فى النقاش والتباحث فما كان لهم حزب خاص مستقل بهم وما كان هناك حزب معارض ، وكان كل من حضر المجلس يبدى رأيه بما يمليه عليه ايمانه وضميره فى حرية تامة ، وكانت كل الأمور توضـــع أمام أهل الحل والعقـــد كما هى دون تحريف او تغيير ولا يخفى عليهم شىء، وكان أساس الفصل فى الأمور الدليل والحجة لا الخوف من أحد أو نفوذه ، ولا الحفاظ على مصالح أحد ، ولا على أساس اختلاف الطبقة أو الجماعة . ولم يكن الخلفاء يلتقون بالناس عند الشورى فقط بل

كانوا يلتقون خمس مرات فى صلاة الجماعة ، ومرة كل اسبوع فى صـــدره الجمعة ، وفى الأعياد وموسم الحج ، كما كانت منازل الخلفاء ودورهم وسط بيوت عامة الناس ، وابوابهامفتوحة امام من اراد دخولهـا دون حاجب او « سكرتير » وكانوا يتجولون فى الاسواق دون حرس « Body Gard » او عسكر يمنعون الناس من السير فى الشوارع كى يفسحوا لسيادته طريقا يشقه بسيارته وموكبه الحاشد ، وكان لكل انســـان مطلق الحرية فى ان يستوقفهم اينما وجدوا ، او يوجه اليهم نقدا او يحاسبهم . ولم يكن هؤلاء الخلفاء يسمحون للناس بممارسة هذه الحـرية فحسب بل كانوا يحثونهم ويشجعونهم ويرغبونهم فيها . وقد رايتم فيما سبق ما قاله ابو بكر فى أولى خطبه التى قال فيها للناس : « ان احسنت فاعينونى وان اسات فقومونى»

وذات مرة اعلن عمر بن الخطاب فى خطبة الجمعة ان من اراد الزواج فلا يدفع مهرا اكثر من اربعمائة درهم ، فقاطعته امراة واحتجت على قوله وحاجته بأن القرآن قد اباح دفع قنطار من المال مهرا (١) فتراجع عمر من فوره عن رايه (وقال اخطأ عمر واصابت امراة) . كذلك حاسـبه سلمان الفارسى مرة امام الناس عندما راى عليه ثوبا لا ياتى الا من ضعف ما حصل عليه الفرد الواحد من ذلك الصنف من القماش فطلب عمر شهادة ابنه عبد الله الذى شهد انه اعطى والده نصيبه .

وسأل عمـر الناس يوما « ارايتم لو ترخصت (اى تهاونت) فى بعض الامور ما كنتم فاعلين » فقال بشر بن سعد « لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح » فرد عمر « انتم اذا انتم اذا » (٢) .

وقد تعرض عثمان بن عفان لاشد انواع النقـد واقذعها ولم يحاول ان يسكت احدا بقوته وسطوته ونفوذه ، بل كان يرد دائما على ما يوجه اليه من اعتراضات على مسمع من الناس ومراى .

كذلك قابل على رضى الله عنه بذاءات الخوارج فى عهده بصدر رحب ، وحدث ان قبض على خمسة منهم واحضروا اليه وكانوا يكيلون له السباب

---

(١) اشارة الى الاية « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج واتيتم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا » النساء ٢٠ ـ المترجم .

(٢) فى رواية اخرى انه قال الحمد لله الذى جعل فى امة محمد صلى الله عليه وسلم من يقوم عمر بسيفه ـ المترجم .

علنا حتى أن أقسم أحدهم أمام الناس لاقتلن عليا ، ومع ذلك أطلق سراحهم وقال لرجاله أن يردوا عليهم بما شاءوا من القول لكنه لم يتخذ ضدهم اجراء عمليا ، لأن المعارضة بالقـــول واللسان ليست جرما يستحق أن يقبض عليهم به .

ان عصر الخلافة الراشدة الذى تحدثنا عنه كان وسيظل نبراسا مضيئا يولى الفقاء والمحدثون وكل المسلمين الصادقين وجوههم شطره ، كما سيبقى معيارا وميزانا لنظام الاسلام الدينى والسياسى والاخلاقى والاجتماعى الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وآخر دعـــوانا ان الحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب

صفحة

الموضـــوع

الموضوع	صفحة